

ابن هشام

وأثره في النجوم العربي

دكتور يوسف عبد الرحمن النبع

دار الحديث

القاهرة

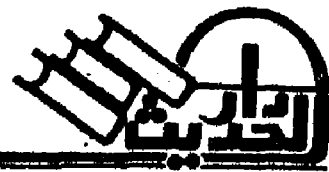
ابن هشام
وأشده في النجوم العربي

هقوق الطبع بحفظ لئل الناسر

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

طبع. نشر. توزيع



١٤٠ شارع جوهرة القاشد أمام جامعة الأزهر

تلفون ٥٩١٨٧١٩ ٥٩١٩٦٩٧ - ٥١١٣٠٣٦ فاكس ٥٩١٩٦٩٧

ابن هشام

وأثره في النجوم العربي

دكتور يوسف عبد الرحمن النبع

دار الحديث

القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

نسبه: هو يوسف بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن الضبيع بن محمد ابن حمد بن محمد بن عزوز بن الضبيع بن فياض الجهينى بلدًا ومولدًا، الحنفى مشربًا ومذهبًا.

مولده: ولد فى موسم جنى ثمار النخيل والأعناب بريف جهينة ذات السدر والنخيل عام ١٩٠٥ من أبوين صالحين.

وقد تتلمذ أبوه عبد الرحمن على والده الشيخ إبراهيم محمد الضبيع من علماء الأزهر ومن تلاميذ شيوخه الأفاضل الشيخ الباجورى والشيخ عlish الكبير ومعاصريه كما هو ثابت فى الشهادات التى أجازوه بها فى مختلف العلوم والفنون.

حفظ القرآن الكريم حفظًا جيدًا مع تجويده على رواية حفص عن عاصم على أيدي سبعة نفر من المقرئين المجودين، وحفظ متن نور الإيضاح فى فقه الحنفية، كما حفظ متن الأجرومية وتتلّمذ فى شرحهما على خاله: الشيخ حسين محمد حسين الضبيع - رحمه الله - الذى اتخذ له حلقة لتدريس مبادئ الفقه الحنفى.

ثم تلقى تعليمه الابتدائى والثانوى فى معهد الإسكندرية الدينى وتولى أمره ابن خالته الشيخ أحمد بن إبراهيم الجهينى - رحمه الله - أحد علماء الأزهر والذى كان يعمل إمامًا وخطيبًا ومدرسًا بالإسكندرية.

ونال ثقة الأساتذة وشيخ المعهد - آنذاك - الشيخ محمد الشافعى الظواهرى

الذى آخى بينه وبين ابنه الشيخ حسن الظواهرى، كما آخى الشيخ عمر الجندى - كبير مراقبى المعهد - بينه وبين ابنه الأستاذ عبد الوهاب عمر الجندى فى المذاكرة وتحضير الدروس، وكان أساتذة المعهد يتفقدونهم الأمر أعد ثلاثهم إعداداً محموداً وأهلهم لكلية اللغة العربية، وكلية دار العلوم التى اختارها الجندى.

وفى كلية اللغة العربية اشتد حرص المؤلف على تحصيل العلوم المقررة من عربية ولغوية، كالنحو والصرف وفقه اللغة وعلوم البلاغة «المعانى والبيان والبديع» وأدب اللغة العربية، والتفسير والحديث وأصول الفقه، والعروض والقافية، على أيدي فحول العلماء: الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، والشيخ محمد غرابه من جماعة كبار العلماء، والشيخ عبد الحميد ناصف عبد الغفار، والشيخ عبد الجواد رمضان، والأستاذ على بك الجارم، والأستاذ محمد هاشم عطية، والأستاذ أحمد يوسف لمجاتى.

وكان لفرط حرص المترجم له على التحصيل أثر بالغ لدخول مسابقة الإمامة والخطابة والتدريس التى أعلنت عنها وزارة الأوقاف ودخلها مئات من الخريجين الحاصلين على مؤهلات عليا من عالمية وإجازة تخصص، وعقد الإمتحان التحريرى فى مسجد أحمد بن طولون بالقلعة والذى كان خطيبه وإمامه ومدرسه الأستاذ أحمد أبو بكر الجهنى المحامى الشرعى والذى عهد بالخطابة إلى المترجم له، وما أن ظهرت نتيجة الإمتحان التحريرى حتى كانت نتيجة الشهادة العالية بكلية اللغة العربية قد أعلنت فى صحيفة الأهرام سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م، مما أتاح له دخول الإمتحان الشفوى على لجنة مؤلفة من مدير المساجد؛ الأستاذ محمد عبد الرحمن الجويلى، والأستاذين مصطفى الماحى الأديب المشهور، والأستاذ إبراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء فيما بعد.

ولإحاطة المترجم له بنصوص الأدب العربى من العصر الجاهلى إلى العصر الحاضر حفظاً وفهماً قدرته اللجنة قدره مما جعله فى طليعة الناجحين الذين تضاعل عددهم إلى ثلاثة وثلاثين؛ من أجل ذلك جعلت وزارة الأوقاف مساجد القاهرة من نصيب العشرة الأول، وللعشرة الثانية مساجد الوجه البحرى، ولمن تبقى مساجد الصعيد، فعين الشيخ يوسف إماماً وخطيباً ومدرساً لمسجد المؤيد

بالدرب الأحمر بادیء الأمر فمسجد الکومی بالعباسیة، ثم القبة الفداویة، ثم مسجد محمود محرم بالجمالية مع جدول لإلقاء عظات دینیة فی المساجد الجامعة بالعاصمة، وكان ذلك إبان انتظامه فی سلك التخصّص للأستاذیة، وكانت مدته أربع سنوات بالدراسة التمهیدیة وبعدها ستان - علی الأقل - لرسالة علمیة.

وبعد انتهائه من الدراسة العلیا التي أعطاهها حقها من مدة كافية نظراً لاضطرابات فی الأزهر فقد تقدم للإمتحان النهائي سنة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م ونال درجة العالمیة بدرجة أستاذ «دكتوراه» بتوقيع المرحوم إبراهيم باشا عبد الهادی رئیس الديوان الملكي نائباً عن الملك فاروق رحمهم الله، فعین فی الأزهر من ذلك التاريخ عامّاً دراسياً فی معهد القاهرة الدینی وبعده مدرساً فی كلية اللغة العربیة بجامعة الأزهر.

وفی عام ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩م حضر إلى الأزهر مدیر المعارف السعودیة الشیخ محمد بن مانع - رحمه الله - المشرف العام علی التعليم الدینی لاختیار نفر من أساتذة الأزهر لینیشئ بهم كلية الشریعة بمكة المكرمة نواة الجامعات، وظل فی السعودیة مدة طويلة فی الرياض، ومكة، والمدينة، وغيرهن من مدن المملكة، ولم یظفر به الأزهر إلا بعد تفرغه سنة ١٩٩٠، فكان عضواً فی اللجنة العلمیة الدائمة لأقسام اللغویات لترقیة الأساتذة، وظل بها حتی لقی ربه فی ٢٦ / ١٠ / ١٩٩٦ .

وكان معه فی تلك اللجنة الدكتور / إبراهيم البسیونی - رحمه الله - والدكتور / أحمد حسن كحیل، والدكتور / یوسف أبو العلا الجرشه، أمد الله فی عمرهما ونفع المسلمین بعلمهما.

وبعد

فقد رغب إلى أخي وصديقي الدكتور «محمد» نجل عالمنا وشيخنا الشيخ يوسف الضبيع في أن أتولى الإشراف على طبع هذا الكتاب من أجل إخراجه إلى النور، فليبت رغبته، وأحببت أن أشارك في إحياء هذا التراث الخالد الذي تعتز المكتبة الإسلامية به.

كما قمت بتخريج الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الواردة في ثنايا الكتاب، مع عمل فهرس فنية لها في آخر الكتاب حتى يعم النفع، ووضعت في هوامش الكتاب تلك العلامة (*) لما أضفته إلى الأصل، فما أصبت فيه فله المنة، وما أخطأت فمني وحسبي أن من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.

دكتور

مصطفى محمد حسين الذهبي

١٩٩٧/١٢/٢١

الدكتور يوسف الضبع بقلم أحد تلامذته إبراهيم على إسماعيل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين: سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، ومن سار على دربهم وأتبع نهجهم إلى يوم الدين، وبعد... فقد قال الحكيم العربى:

ليس على الله بمستنكر

أن يجمع العالم فى واحد

وفاء بحق، وحفظاً لعهد، وتادية لواجب، واعترافاً بجميل، وآداء لشكر، أعاد ذكرى شيخ النحويين فى عصره وقدوة المحققين لزمه، وعلامة المعقول والمنقول، وليس ذكرى له اليوم كذكرى له بالأمس؛ لأننى اليوم أذكره روحاً سارية وفضيلة سامية فى حياته الباقية، وهى حياة لا تحدها تلكم الطاقة المادية، ولا تأسرها الأواصر الآدمية، بل حياة أبدية خالدة سعيدة بعون الله تعالى ومشيتته: ﴿وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقدماً قيل:

* فالذكر للإنسان عمر ثان *

لقد كنت أذكره فيما مضى من الأعوام السابقة فأذكر فيه الأستاذ العالم، والمربى الفاضل، والمعلم الأمين، والوالد الراعى، والصديق الوفى، والأخ المخلص، هذا عدا الشهامة، والنجدة، والكرم، وقوة الشخصية، والأدب الجم، والتواضع الشديد، وبشاشة الوجه، وطلاقة المحيا، والحياء، والسخاء.

تراه إذا ما جئته منهلاً

كانك تعطيه الذى أنت سائلة

هو البحر من أى النواحي أتيته
 فلُجَّتْهُ المعروف والجود ساحله
 ثم الثبات على المبدأ والاعتزاز بالنفس فى غير ما تكبر أو صلف.
 أولئك آبائى فـجـئتـنى بمثلهم

إذا جمعتنا يا جرير المجامع

لم يكن - رحمه الله - بمعزل عن الحياة العامة، وإن لم يكن غير مكلف رسمياً بشيء منها ويقول فى ذلك: واجبنا أن نكمل الناس بأفكارنا وطاقتنا ما دام الله أعطانا ما يمكن أن ينتفع به؛ فإن وجدنا للكلمة قبولاً شاركنا، وإن وجدنا صدوداً كفانا أننا بذلنا النصيح؛ ومن هنا كنت تراه مشاركاً لأفراح الناس وأحزانهم ومشاكلهم وقضاياهم اجتماعياً بمعنى هذه الكلمة، معيناً لأبنائه وطلابه ومريديه مقدماً لهم يد العون والمساعدة والمساندة يحبهم ويحبونه حتى ظن أهل الحى - وأنا واحد من تلاميذه - أننى ابنه الذى من صلبه، وكفى بالعلم رَحِمًا بين أهله، كنت أشفق عليه من كثرة ما يبذل فكان - رحمه الله - يقطع كلامى بقوله: «إن أبناءنا أوليناهم لغيرنا» وينشدنى قول القائل:

من يصنع الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس

كان - رحمه الله - عالماً من علماء العربية، ورائداً من رواد الإصلاح؛ إذ قام بمهمة الوعظ والتدريس والخطابة فى مساجد مصر وخارجها؛ فكان إذا سكت أسمع، وإذا تكلم أقنع، تتدفق اللغة من فيه تدفقاً، معاصراً لشيوخ الأزهر وعلمائه من العقد الأول من هذا القرن إلى أن وافته المنية ولبى نداء ربه سنة ست وتسعين وتسعمائة ألف؛ فكان كالأرض الطيبة النقية التى قبلت الماء فأنبتت الخير الكثير والرزق الوفير، وشيخاً عظيماً من شيوخ الإسلام وهبوا أنفسهم للعلم والدفاع عن الدين - إذ قام بمهمة التدريس فى المسجد الحرام فترة طويلة - والحفاظ على اللغة حتى يسلم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من عادة التحريف وغائلة اللحن - له فى ذلك اجتهادات سأخصها بحديث فى

بحث آخر - قضى حياته فى محراب العلم فعلم وعمل ، ونفع الله به وبعلمه خلقاً كثيراً صاروا أساتذة وشيوخاً فى زمنه .

إذا مات منا سيدٌ قام سيدٌ

قوول لما قال الكرام فعول

وكان خير رسول فى المصالح العامة بين الناس ، يتصرف بحكمة ، وينطق بذكاء ، ويتكلم بحق ، ويقنع بقوة ، وينجح دائماً فيما قصد إليه ، ولست أعرف أنه كُلف بالوساطة فى خير ، أو السفارة بين الناس فى منفعة تعود عليهم ونكص عما كلف به ، أو تردد فى قبوله ، وكنت أسأله مستغرباً : كيف نفذت إلى فلان ؟ فيجيبني : الناس طيبون يبتغون الخير لكن بطرق مختلفة ، فإذا جمعت بينهم أو قربت بين آرائهم وجدت التلاقى سهلاً والخير هدف الجميع .

أما اليوم فإنما يحضرني منه صفاته وكم هى نادرة وعزيزة فلقد كان - رحمه الله - صاحب مواقف تاريخية مشهودة سطرت له صفحات مجد خالد من الشرف سواء أكان فى مصر أم فى خارجها إذ كان - رحمه الله - من الذين أسهموا فى تأسيس الجامعات الإسلامية والعربية بالملكة العربية السعودية ، وله فى ذلك دور بارز ونشاط ملموس يُذكر له اليوم فيشكر عليه «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها» .

وكانت له صلات وعلاقات لا تنفصم عراها بملوك وأمراء المملكة العربية السعودية لثقتهم فيه وعلو كعبه ورسوخ قدمه وأمانته وهمته ونشاطه إذ كان عالماً تلمس فيه ثقة العالم وتمكنه وقوته وأصالته .

وكان عبقرياً المعياً ماهراً موهوباً شغف بدراسة العلوم ودأب على تفهمها حتى تطامن له مركبها وصفا مشربها ، ويقول فإذا قال فالقول ما قال .

إذا قالت حذام فصددوها

فإن القول ما قالت حذام

ويرى فيكون الصواب كل الصواب ما رأى ، ويتمثل الحق كل الحق .

وهو أستاذ يحمل بين جوانبه هموم طلابه وجامعته ويسير بهما إلى أبعد الآفاق، يؤازره علم راسخ، وتأصيل ومنهجية، تحس بالحزم المعطر بالحب والعطف الفاهم الواعى والصادق مع نفسه ومع من يرمى فيحسوطهم بالرام ويرعاهم بالود والتقدير يآلف ويؤلف.

كالبحر يقذف للقريب جواهرًا

جودًا ويرسل للبعيد سحائبًا

كالشمس في كبس السماء وضوًا

يفشى البلاد مشارقًا ومفاربًا

وكان - رحمه الله - شاعرًا؛ قرأت له شعرًا رائعًا نظمته في بداية حياته العلمية فرأيت فيه توهج الروح وذوب الفؤاد، ولمست ملكة ملهمة، ويدًا صناعًا، وريشة موهوبة، وحسًا وأداة لا ينالهما ما ينال الحس والأداة من ضعف وفتور، وأزهرًا تتقد في روحه كل عراقة الأزهر وتاريخه وهمومه ومشاكله، كان مؤمنًا برسائله أبعد ما يكون الإيمان ويرى في مثذنتيه السامقتين تواريخ الدنيا والعالم والإنسان، يعتز بذلك اعتزازه بنفسه، وينعى على الذين يتهاونون في ذلك، يؤثره بالحب؛ يرضى من أجله، ويشور من أجله، ويحب من أجله، ويكره من أجله، كانت عينه على الأزهر وكأنه يحرسه ويخاف عليه إن هو نام أو غفل، كان بالنسبة له كل شيء يمكن الحفاظ عليه، كان ترنيمة روحه وجلوة حسه وراحة نفسه.

وكان مع من يخالطهم ويجالسهم فرحة الأنس، ومستودع السر، وجلاء الهم، وانطلاقة السرور، وضحكة الأمل، وتغريدة الحياة.

ولد ونشأ - رحمه الله تعالى - في «جهينة» من مدن محافظة سوهاج سنة خمس وتسعمائة وألف للميلاد حيث البيئة الهادئة والريف الممتع الأقياء الوارف الظلال بين قوم تميزوا بسلامة الصدر وكرم الشماثل وعظيم الأخلاق، فتفتحت عيناه على رصيد ضخم وثروة غزيرة من القيم والمبادئ الراسخة التي كان لها دور كبير وأثر عظيم في بناء شخصيته وتحديد وجهته وسلامة فطرته وصحة عقيدته.

وينشأ ناشئ الفتيان منها

على ما كان عوده أبوه

كان - رحمه الله - من بيت علم وأدب إذ تتلمذ والده - عبد الرحمن - على والده الشيخ إبراهيم محمد الضبيع من علماء الأزهر الشريف الذى كان من تلاميذ شيوخه الأفاضل الشيخ الباجورى، والشيخ عlish الكبير، ومعاصره كما هو ثابت فى الشهادات التى أجازوه بها فى مختلف العلوم والفنون، ولقد كان لذلك أثره الواضح على تكوين الشيخ تكويناً علمياً؛ إذ حفظ القرآن الكريم حفظاً جيداً مع تجويده على رواية حفص عن عاصم - أحد القراء السبعة - على أيدي سبعة من المقرئين المجودين، وكان حنفى المذهب يحفظ كثيراً من متونة وحواشيه والتى كان منها: متن نور الإيضاح وغير ذلك من المتون التى كان لها أثر كبير وتأثير واضح فى تكوين الشيخ - رحمه الله تعالى -، هذا عدا العلوم المختلفة فكان أحق الناس بقول القائل:

وكان من الفنون بحيث يقضى

له فى كل فن بالجميع

وبعدما فرغ من الدراسة فى معهد الاسكندرية جاء إلى القاهرة ليواصل طلب العلم فالتحق بكلية اللغة العربية حتى حصل على العالمية من درجة أستاذ سنة ١٩٤٣.

ولقد حاولت جاهداً أن أجمع ما خلفه من تراث فى العلوم العربية وخطه يمينه وكأنى أجمع حبات عقد منفرط، فقد ترك آثاراً علمية تدل على علو كعبه ورسوخ قدمه وكان لها أثر بالغ إذ سدت فراغاً فى المكتبة العربية وأكملت نقصاً فى المكتبة الإسلامية وكان منها:

(١) ابن هشام وأثره فى النحو العربى.

(٢) الرياض الوافية فى علمى العروض والقافية.

(٣) التبيان فى سر تحامل ابن هشام على أبى حيان، وقد طبع.

- (٤) العدوان على بنت عدنان.
- (٥) من محاسن التربية الإسلامية.
- (٦) عباد الرحمن.
- (٧) من أعلام النحاة.
- (٨) الصحة والفراغ.
- (٩) استدراكات فى العروض على بعض شواهد النحويين.
- (١٠) بعض ما تركه الأول للآخر «شواهد نحوية»، مطبوع.
- كما أشرف ومنح المئات من الرسائل العلمية «دكتوراة وماجستير».
- هذا عدا الكثير من المقالات التى نشرت فى الصحف والمجلات والدوريات والحوليات المختلفة، والأحاديث الصحفية والإذاعية، ومشاركته فى المؤتمرات والندوات والمحاضرات العامة والأمسيات المتعددة.
- وأما عن أعماله التى تولاهها أو شغلها فكانت قدراته فيها تفوق حاجاتها فتراه يفرغ طاقاته فى أعمال أخرى تعود بالنفع على المكان الذى يعمل فيه وعلى الناس الذين يشتغلون معه دون أن يطغى ذلك على واجبات وظيفته أو يقلل من عطائه لها؛ عمل مدرساً وخطيباً وواعظاً بوزارة الأوقاف، ثم مدرساً وأستاذاً بكلية اللغة العربية بالقاهرة، ثم أعير للسعودية، وبعد ذلك اختير وكيلاً لكلية اللغة العربية بالسودان، ثم أستاذاً بالملكة العربية السعودية وظل بها حتى عاد أستاذاً متفرغاً بكلية اللغة العربية بالقاهرة وعضواً فى اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة «قسم اللغويات».
- رحم الله أبا محمد فقد كان كذلك وأكثر من ذلك.

بقلم الدكتور

إبراهيم على إسماعيل صبح

مدرس اللغويات فى كلية اللغة العربية

بجرجا جامعة الأزهر

١٩٩٧/١٢/٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد، وعلى آله وصحابه والتابعين، وبعد:

فلما كان النحو من العلوم العربية التى توفّر عليها العلماء قديماً وحديثاً، وأشبعوها بحثاً وتمحيصاً، حتى تم نضجها وآتت أكلها، وكان كل طور من أطوار هذا العلم وليد أثر من آثار أولئك الأبرار الموغلين فيه والمخلصين له، الذين لم تشغلهم دنيا ولم تلهمهم تجارة ولا بيع عن إرساء أصوله ورفع قواعده، حبيت إلى الكتابة فى لون مما اصطبح به النحو فى طور من هذه الأطوار، وفى العوامل التى تكون منها حس مرهف وذوق سليم ويد صناع.

«والناس شتى خطة ومذاهبا».

وآثرت «ابن هشام» بالكتابة فيه دون سواه من النحاة؛ لما امتاز به تأليفه من جمال الصنعة وقوة الإحكام وسهولة العبارة وحسن التعليل وبراعة التحقيق وما إلى ذلك مما يأتى بيانه، وكان له أحسن الأثر فى تبسيط هذا العلم وفى إقبال الناشئين عليه وتمكنهم بعد ذلك منه؛ بسبب ما أضفى عليه من روعة وجلال.

وأشهد لقد أولعت بكتبه وشغفت بحبه من سنوات مضت حينما طعمت النحو سائغاً من قطر نداه، ولسته سهلاً ليناً فى شذورذهبه، وألفيته معبداً فى أوضح مسالكه، ورأيت روضاً فى مغنيه، وزادنى هياماً به قرب سكنائى منه، وما توارثه القوم من حسن الأحداث عنه، ولاهل الحى أثر ذوبال ينسبونه الآن إليه أمل إن أوفق للوقوف عليه، فإذا صح أثبتته؛ لهذا سامرت المراجع التاريخية المختلفة شهوراً أتلّمس فى بطونها بيته ذلك الرجل الفذ، واقتضانى البحث

دراسة مستفيضة للقرن السابع الهجرى الذى كان مقدمة لعصره، وقطعت الليالى ذوات العدد اتحسس روحه من كتبه التى قرأتها - وسأشير إليها - ثم طفقت أكتب ما وقفت عليه حتى إذا كنت من الغاية قاب قوسين، تذكرت يوم العرض وعادنى قول الناصح الأول:

لا تَعْرِضَنَّ عَلَى الرِّوَاةِ قَصِيْدَةً

مَا لَمْ تُبَالِغْ قَبْلُ فِى تَهْذِيْبِهَا

فَمَتَى عَرَضْتَ الشَّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ

عَدُوهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِى بِهَا

فلبثت أمدًا غير قصير أمحو وأثبت فى جميع ما كتبت حتى جد الركب وأبطأ بى المسير،

وقال أصيحابى وقد هالنى النوى

وهالهمُ أمرى متى أنت قافلٌ؟

فقلت إذا شاء الإله فأوبتى

قريب وربعى بالسعادة أهلُ

فأسرَّ إلى الصاحب الصامت قول العماد الأصفهانى:

«أننى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا فى يومه إلا قال فى غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

عند ذلك هدأت النفس وأطمأن الحس، فمضيتُ إلى النهاية مستعينًا بالله مستلهمًا رشدَه وهداه، إنه نعم المولى ونعم النصير.

دكتور

يوسف الضيع

الفصل الأول

حياة ابن هشام

نسبه: هو أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن هشام الأنصارى المصرى.

وهذا النسب جاء فى كتابى السيوطى: «بغية الوعاة»، و«حسن المحاضرة».

وجاء فى «شذرات الذهب» لأبى الفلاح عبد الحى بن العماد.

وفى «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للعلامة الشوكانى.

وفى «دائرة المعارف الإسلامية».

ولكن الإمام ابن حجر ذكر فى «الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة»، أنه: عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصارى المصرى، فجعل جده الأدنى: عبد الله، وجد والده: يوسف، على حين قد جعل غيره جده: أحمد، وجد والده: عبد الله.

وإذا علمنا أن العلامة ابن حجر قد سبقهم فى الترجمة لابن هشام ساغ لنا أن نقول إن الحق معه، وغيره على حق أيضاً إذا روعى الاختصار، خصوصاً أن المحذوف موجود مثله فلا منافاة إذن بين النسيين.

وظاهر أنه من سلالة القوم الذين آووا رسول الله ﷺ وعزروه، ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه فسماهم أنصاراً، وهم أبناء الأوس والخزرج، غلبت عليهم الصفة التى خلعها عليهم رسول الله ﷺ، وهم من قبائل الأزد بن الغوث بن ثبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ أخى جرهم وحضرموت أبناء قحطان.

قال الشيخ عبادة فى حاشيته على شرح الشذور: والأنصار قبيلتان: الأوس والخزرج.

وانظر هل أصول الشارح «ابن هشام» من الخزرج، أو من الأوس؟ قرره

بعض الأشياخ، وذكر بعض أنه من الخزرج، واختار العلامة الأمير في خطبة حاشيته على «المغنى» أنه خزرجي.

مولده

ولد ابن هشام بالقاهرة يوم السبت الخامس من شهر ذى القعدة في العام الثامن من القرن الثامن «سنة ٧٠٨ هجرية» بإجماع الروايات.

وفاته

توفى ابن هشام رحمه الله ليلة الجمعة من شهر ذى القعدة في العام الأول من العقد السابع في القرن الثامن «سنة ٧٦١ هجرية».

وتاريخ الوفاة المذكور تضافرت عليه الرواة، ولم يشذ منهم إلا صاحب «كشف الظنون» فقد ذكر في غير موضع من كتابه: أنه توفى سنة اثنتين وستين وسبعمائة «سنة ٧٦٢ هجرية».

مكانه الآن ومقبرة سعيد السعداء

إذا قفل الإنسان من باب النصر فإنه يستقبل على قيد خطوات منه ضريحه قائماً وحده يكسوه الوقار، ويحيط به جدار على شكل دائرة صغيرة متواضعة أقيمت حوله حديثاً بعد أن نبشت المقابر التي كانت تجاوره، ونقل ما فيها من رفات الأموات إلى جهات أخرى، وجعل التنظيم من هذه الساحة قاعاً صفصفاً لا ترى فيها إلا ضريح ابن هشام وإلا سور المدينة الفاطمية القديم؛ الذي نبشوا المقابر ونقلوها من أجل كشفه، ويعلو المقبرة داخل سورها عمود حجري صغير في رأسه عمامة خضراء من أثر الحناء، وقد نقش عليه تاريخ ميلاده «سنة ٧٠٨ هجرية»، وتاريخ وفاته «سنة ٧٦١ هجرية».

وقد رأيت في «الضوء اللامع» للسخاوي أن حفيد ابن هشام وهو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن هشام دفن عند أبيه وجده بتربة سعيد السعداء (١).

(١) الجزء الخامس من الضوء اللامع ص ٥٦ - ٥٧ .

وسعيد السعداء كان يطلق قديماً على خانقاه، ويحمل هذا الاسم الآن مسجد أثرى بشارع الجمالية قبل باب النصر.

وفى «حسن المحاضرة» للسيوطى أن هذه الخانقاه كانت داراً لسعيد السعداء «قنبر» ويقال له: «عنبر» عتيق الخليفة المستنصر، فلما استبد الناصر صلاح الدين بن أيوب بالأمر، وقفها على الصوفية فى سنة تسع وستين وخمسمائة وأجرى عليهم فيها الأرزاق وهى أول خانقاه عملت بديار مصر، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ^(١).

من يطلق عليه «ابن هشام»

أطلق «ابن هشام» على جماعة كثيرة وعتهم بغية الوعاة للعلامة السيوطى واشتهر من بينهم عدد من العلماء.

أولهم: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى، وهو نحوى بصرى نزل مصر، ويذكر اسمه مقروناً بالسيرة النبوية، وهى ليست له، وإنما هى لابن إسحق، ولعبد الملك ابن هشام فضل تهذيبها؛ فلذلك نسبت إليه، وتوفى «سنة ٢١٨ هجرية»^(٢).

ثانيهم: محمد بن يحيى بن هشام الخضراوى أبو عبد الله الأنصارى الخزرجى، ويقال له ابن هشام الأندلسى، وهو من أهل الجزيرة الخضراء بالأندلس، وكان رأساً فى العربية أخذها عن ابن خروف.

ومن تلاميذه الشلوين، ولد «سنة ٥٧٥ هجرية»، وتوفى «سنة ٦٤٦ هجرية» بتونس، وقد أكثر المترجم له من النقل عنه فى مؤلفاته ولاسيما «المغنى».

ثالثهم: محمد بن أحمد بن عبد الله بن هشام أبو عبد الله الفهرى ويعرف بابن الشواس، أخذ النحو عن الجزولى، وتوفى «سنة ٦١٩ هجرية»^(٣).

رابعهم: قال عنه السيوطى فى فهرس «بغية الوعاة»: «لم أعثر له على ترجمة»^(*)، ولقد رأيت فى هذا الكتاب ترجمة منقولة عن تاريخ غرناطة لطالب عفيف اسمه أحمد بن أحمد بن هشام السلمى قال عنه صاحب التاريخ

(١) حسن المحاضرة ٢ : ١٤٣، خانقاه سعيد السعداء.

(٢) بغية الوعاة ص ٣١٥، ودائرة المعارف الإسلامية ص ٢٩٧، وحسن المحاضرة ١ : ٢٢٨.

(٣) بغية الوعاة ص ١٢.

(*) نص عبارة السيوطى «يباض فى الأصل» وقد اخترت لها العبارة المسطرة أعلاه.

السالف أنه مجتهد مُولع بفن العربية يحسب الكمال الإنسانى وفقاً عليه، توفى «سنة ٧٥٠ هجرية» (١).

خامسهم: قطب رحاهم وفارس حلبتهم وأرومة الثلاثة الباقيين وعميد أسرتهم: «صاحب الترجمة».

سادسهم: ابن صاحب العلم محمد بن عبد الله بن يوسف بن هشام محب الدين بن الشيخ جمال الدين النحوى بن النحوى، ولد «سنة ٧٥٠ هجرية»، وكان أوحده عصره فى تحقيق النحو.

قال السيوطى: سمعت شيخنا قاضى القضاة علم الدين البلقينى يقول: كان والدى يقول: هو أنحى من أبيه، وتوفى «سنة ٧٩٩ هجرية» (٢).

سابعهم: حفيد صاحب الترجمة، وهو أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن هشام شهاب الدين تقى الدين، اشتغل كثيراً، وفاق فى العربية وغيرها، ويقال له: العجيمى (٣).

(١) بغية الوعاة ص ١٢٨ .

(٢) بغية الوعاة ص ٦٢ .

(٣) بغية الوعاة ص ١٣٩ .

الفصل الثاني

عصر ابن هشام

«القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي»

لا يعزب عن البال أن العلوم والفنون ظلان تابعان للأطوار السياسية، فإذا كان الطور السياسي عتيقاً صاحباً ذا أثر بارز في تاريخ شعب من الشعوب فإن آثاره تبدو في الحركة العلمية والنهضة الفكرية، وإن غشيته سكينه وسادته دعة وطمانينة استبانته نتائجها في العلوم والآداب.

ولقد كان بلوغ لغة الضاد قمة مجدها واستواؤها على سوقها في ظل الخلافة الإسلامية على يد الدولة العباسية مؤذنًا بمغيب شمسها إلى حين «سنة الله في الذين خلّوا من قبل» [الأحزاب: ٦٢].

* لكل شيء إذا ما تم نقصان (١) *

فدهى الناطقين بها ما دهاهم من حوادث وكوارث لم يرو التاريخ لها مثيلاً في عنفها واجتياحها وسرعة تطويحها بمدنية كانت راسية الأصول سامية الفروع، ذلك الحادث المروع تمثل في خروج التتر من عزلتهم وإغارة أبنائهم المغول على البلاد الإسلامية.

ولقد كانوا قساة عتاة غلاظ الأكباد، لم تهذبهم شريعة، ولم ترّضهم أخلاق قومية.

كانوا في معزل عن العالم جنوبي سيبيريا (٢) يحترفون الصيد والقنص، وكان بأسهم بينهم إلى أن قادهم فاتك منهم وفارس فيهم هو «جنكيز خان» الذي قهر الصين بعد أن حطم سورها العظيم، وكر على الممالك الإسلامية يلتهمها واحدة تلو أخرى.

وطوعت له نفسه أن يعيث في الأرض الفساد، فلم يغادر مدينة إلا دمار مبانيتها، وأحرق ما وصلت إليه يده من آثار علمائها، وثمرات عقول أبنائها

(١) بغية الرعاة ص ٦٨ .

(٢) بغية الرعاة ص ١١٠ .

وتركها أطلالاً دارسة لا تكاد تبين عن مجد الذاهيين، ولا تحسن الحديث عن أباة الضيم الراحلين، الذين سلبهم حق الحياة ليستأصل شجرة العلم بقتلهم فتدين له الدهماء.

ومن العلماء الأجلاء الذين قتلهم التتار الإمام الفرغانى «سنة ٦١٦ هجرية»^(١) والعلامة محمد الزهرى «سنة ٦١٧ هجرية»^(٢).

وجثم هذا الكابوس على صدر الدولة الإسلامية اثنين وعشرين عاماً. ولما تنفس الشرق الصعداء بوفاته «سنة ٦٢٤ هجرية» منى بحفيده «هولاكو» الذى كان أشد منه قوة وأكثر بطشاً، ولم يقنع ببلاد فارس تدين له وتخضع لسلطانه بل قصد بالسوء بغداد معقد آمال المسلمين فى كل مكان وموئل علمهم الذى إليه يهفون، وموطن عزهم الذى به يباهون.

شخص إلى المدينة وزحف على بغداد فلما كان منها قاب قوسين بسط يد الختل ونشر أحبولة الخديعة للخليفة المستعصم، ودعاه مع أمائل المدينة وعلمائها فأثر فيهم بهتانه، وانطلى عليهم زوره، وأتوا إليه مذعنين فأمر بذبحهم أجمعين.

ثم هجم على دار الخلافة فاستولى على ما بها، وقتل أهلها، وسبى أطفالها، ثم أباح بغداد أربعين يوماً كانت القاضية على ما فيها من تراث ثمرته فى خمسة قرون، ظلت فيها عاصمة الإسلام ومحط رحال العلماء والأدباء.

وتبخر نتاج العقول وعصارة الأذهان فى هذا المدى الواسع والآمد البعيد، وكان ذلك النتاج جدّ عظيم لما صاحبه طول مدة الخلافة فى هذه المدينة من همة فائقة فى إحياء العلوم، وجهود موفقة فى خدمة الدين، تحقيقاً لرغبة الخلفاء واستجابة لداعى الأمراء.

محا كل ذلك بين طرفة عين وانتباهتها، وأتى على الكتب التى كانت أئمن ذخائر المدينة وأبادها حرقاً وإغراقاً حتى لقد تغير ماء دجلة من فرط ما قذف فيه من كتب تراكم بعضها فوق بعض، فكان منها برزخٌ عبر عليه النهر جُند ذلك الجبار العنيد.

ولقد تطلع هذا الغاشم إلى ما وراء بغداد فطمع فى التهام الشام ويم شطرها، وهى يومئذ مستقر حكم المماليك الذين ردوه على أعقابهم؛ إذ كانوا أولى قوة وأولى بأس شديد.

(١) بغية الرعاة ص ٢٨٥ .

(٢) بغية الرعاة ص ١١ .

وقد ظل المغول يُلَوِّنَ أمور المسلمين رهاء قرن من الزمان «٦٥٤ - ٧٥٠» هجرية، وهم على وثنيتهن وجبهالتهن، فلم يستقم لهم أمر، ولم يطرد لهم نظام، ثم بدا لهم سيأت ما عملوا، ورأوا أنهم مضطرون إلى اعتناق الإسلام ليسهل عليهم حكم شعوبه، ومحتاجون إلى العلم ليحسنوا تدبير ملكهم، فكان من بعضهم إبقاء على آثار المسلمين، وإكرام لعلماء اللغة والدين، وإنشاء للمدارس والمساجد، وكانوا بهذا الصنيع مكفرين عن سيئات أعمالهم التى اقتترفوها فى غمرة جهلهم وثورة فتكهم وضلالهم، ولكن أنى لهم أن يأتوا بمعشار ما أبادوا من ثمة قرون، تضافرت فيها همم فحول.

وكان الزمان قد خبأ للشام بقية مما يُضَامُّ به الكرام على يد مسلم من سلالة التتار هو «تيمور لnk» الذى ظل يفتح البلاد، ويسوم العباد سوء العذاب، حتى وصل إلى آسيا الصغرى فانتزعها من السلطان «بايزيد» انتزاعاً، واقتنصه أسيراً، ولم تمتنع عليه الشام فألقى عصاه فيها، واستولى عليها كلها، وكأنه شاقه ما عمله سلفه «هولاكو» فجعله قدوته، بل لقد فاقه عدواناً وطغياناً.

إذ خرب المدن وقاتل العلماء، واشتد فتكه بالعرب، حتى يقال إنه بنى من رؤوسهم قلاعاً واهراماً، ولكن الله صان مصر من عبثه وطغيانه، وحفظ الكنانة وأهلها من عتو أهله وطوفانه، ووقاهم سيئات ما مكروا.

فصارت مصر حرماً آمناً آوت إليها الخلافة الإسلامية، ولجأ إليها من استطاع الفرار من هذه المحن، واعتصم بها من أفلت من تلك الفتن، وخلفت القاهرة بغداد فأصبحت مقر الخليفة العباسى، وعاذ بها العلماء الذين خلصوا من أهوال الفرغ والإضطراب، فصارت معقد آمال المسلمين، يؤمها كل قاصد، وينهل منها كل وارد، فى ظل المماليك الشجعان، أباة الضيم وناشرى العلم.

وكانوا جدّ حريصين على تخليد ذكراهم فتنافسوا فى إقامة المساجد وإنشاء المدارس والمعاهد؛ لإقامة الشعائر الدينية وإحياء ما درس من العلوم الشرعية والعربية، وكانوا بهذا للإسلام نعم العون فقد عوضه الله بعملهم فى مصر ما فاته فى كثير من بلاد الله.

حالة اللغة العربية في القرن السابع

كانت جبهة الدولة الإسلامية في المدة السالفة غير عربية بل كان يتولى بعضها وثنيون وهم المغول قبل اعتناقهم الدين الإسلامى، وكان سلطانهم يمتد من حدود الهند شرقاً إلى سورية غرباً، وكانت مصر والشام فى قبضة المماليك مع صورة رسمية للخلافة العباسية، لا يستقيم معها أن نقول إن البلاد كانت تحكم حكماً عربياً صرفاً، وقد ساد البربر فيما وراء مصر غرباً، فلم يكن الحكم العربى البحت إلا فى جهات اليمن من بلاد العرب، وفى دولة غرناطة من بلاد الأندلس التى كان يلى أمرها «بنو أحمر» من سنة ٦٢٩ هجرية وكانت آخر معقل للمسلمين هناك حتى ضعفت شوكتهم، واشتد ساعد النصارى فانتزعوا منهم قرطبة، وإشبيلية ومرسية وغيرها من أمهات المدن، كما أنهم استولوا على قلعة جبل طارق «سنة ٧٠٩ هجرية» وظل فى أيديهم إلى «سنة ٧٣٣ هجرية».

ومن المدن التى تداولها المسلمون والنصارى: الجزيرة الخضراء، مهد ابن هشام الخضراوى ومن نكد الدنيا على المسلمين إبان إدبار دولتهم بالأندلس خضوعهم للنصارى واضطرارهم أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

ولم يكن أعلام العلماء لدى النصارى فى الأندلس أسعد حظاً من زملائهم المشاركة لدى كفسار التار حينما جاسوا خلال الديار بالعراق، فلقد أخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم، ونكبوهم فى الأموال والأنفس والثمرات، فنهبوا أموالهم وفتكوا بهم، وروّعوا أولادهم، ومن طردوا من بلادهم: «العلامة محمد بن الفخار الجذامى»^(١)، وكان ميلاده بعد «سنة ٦٣٠ هجرية» ومثله «يحيى بن زنون الأشبيلي النحوى» الذى انتقل إلى العدو عند استيلاء النصارى على قرطبة «سنة ٦٣٣ هجرية»^(٢).

ومن العلماء الذين قتلوا: «ابن خميس الحجرى التلمسانى» الذى قتل مع وزير غرناطة الذى تلقاه وآواه، وكان مصرعهما «سنة ٧٠٨ هجرية»، وهو العام الذى ولد فيه ابن هشام^(٣).

ومن أخطاه سيف النصارى فقد أدركه الموت بغيره «كمحمد بن سودة المصرى

(١) بغية الوعاة ص ٨٠.

(٢) بغية الوعاة ص ٤٤١.

(٣) بغية الوعاة ص ٨٦.

الغرناطى» الذى مات كمدًا لأسر أولاده «سنة ٦٣٧ هجرية» (١).

فلا عجب أن أقفرت البلاد من النشاط العلمى وركدت حركة التأليف وجف معين الإزدهار فى شتى العلوم والفنون، واستكانت اللغة العربية، وذوت نضارتها، وتلك نتيجة طبيعية لبلبلة الأفكار وتشريد العلماء، ومحو آثار السابقين منهم بإحراق الكتب وإغراقها وغير ذلك مما سلفت الإشارة إليه.

تلك هى حال الأمة الإسلامية فى المدة التى سبقت عهد ابن هشام وسائره وامتدت آثارها بعده تقص علينا أن المسلمين كانوا فى بعضها يخضعون لمن لا يمت إليهم بسبب ولا تربطه بهم لغة ولا دين.

ولما كان الإسلام صبغة المحكومين والقرآن مرجع أحكامه وقانونه المكين اضطر الحاكم فى سبيل قيادة هذه الشعوب أن يجعل للقرآن وعلومه المكان الأول، ولولا ذلك لكَبَتِ العربية كَبوة لا قيامة بعدها، وقد تضافر عليها وأصابها ما أصابها من مضاعفات لم تقف عند لغة التخاطب بل جاوزتها إلى لسان الحكومة الرسمى، فكانت فى بعض الممالك هى اللغة المغولية، أو الفارسية، أو التركية، ولكن العربية مع ذلك ظلت لغة التأليف والأدب، وتلك عناية الله بلغة قرآنه ﴿إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

حظ النحو فى مصر والشام فى القرن السابع

إذا صح أن النحو كاد يصوح وأوشكت البلاد الإسلامية إلا قليلاً منها أن تصفر من اللغة العربية، وهو ما ألمت إليه أنفاً، فإن مصر - كما أسلفت قبل - كانت مثابة للناس وأمناء، والشام ظلت معها حيناً من الدهر فى حوزة الممالك الذين كانت حكومتهم أقوى حكومة إسلامية فى أيامهم، فنعم القطران فى ظل حكومة الممالك بالدعة والسكون، وصارا أخصب تربة مسح عليها غيث الملوك وغمرها سيب الأمراء، وكان ذلك مغرياً للعلماء أن يشدوا إليها الرحال، وأن يعقدوا عليهما الآمال، والمورد العذب كثير الزحام.

وقد آن لى أن أميط اللثام عن سر إقبال رعماء الممالك وإقبالهم على النهضة بالعلوم والأخذ بيد العلماء وتشجيع المؤلفين وإمدادهم بالمال الوفير، وإن لم يكن لهم فى العروبة نسب وخير.

رعاية الممالك للغة العربية وعلومها

لقد كان الممالك يُجلبون من بلاد لا يعرفون لها تاريخًا يتمون له، ولا أدبًا يتمسكون به ويسعون في نشره، ثم هم يحكمون شعبًا مسلمًا يتعصب لإسلامه ولغته، فلا يستطيع حاكم مهما كان خطره أن يظهر بغير التجلة لهذا الدين والإعزاز لتلك اللغة - والنحو عصبها، بل هو أهدي سبيل إليها.

فإذا انضاف إلى هذا أنهم وقد تمسكوا بهذا السلطان الواسع واستقام لهم ذلك الملك الكبير أرادوا أن يرفعوا لأنفسهم ذكرًا في الغابرين، ويخلدوا لهم أثرًا في الباقين، وليس لهم ما يباهون به في آبائهم الأولين، اتضح سبب احتضانهم للعلماء وبدا سر حذبهم على اللغة العربية ومقوماتها من العلوم اللسانية، وما كان من حرصهم الشديد على بناء المدارس والمساجد، وقد كانت الثانية تؤدي رسالة الأولى وتضطلع بمهمتها من قبل وجودها ومن بعد، بل لقد كانت المساجد أوسع نطاقًا وأهم نفعا، وكانت عنايتهم بها أكثر، وحظها من العمارة أوفر؛ يشهد لذلك إحكام صنعها وبقاؤها تصارع الأيام، ويؤيده ما رواه التاريخ من أنها كانت مستقر فطاحل العلماء، ومهبط الوافدين عليهم، يقطفون من رياضهم، ويغرفون من حياضهم؛ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

ولم يكن بدعًا مبالغتهم في إكرام العلماء والمؤلفين، بل كانوا تبعًا للخلفاء العباسيين، فقد سبقوهم، وأراد الممالك أن ينهجوا نهجهم ويقتفوا أثرهم ليتبؤوا مكانتهم، ويبلغوا شأوهم؛ فكان منهم للعلماء هذا الصنيع المشكور والعمل المبرور.

ولم تقف همة الممالك عند بناء المساجد والمدارس بل لقد عُنوا بالتنقيب عن الكتب القيمة، لتكون مراجع للمؤلفين، فجمعوا منها ما استطاعوا الحصول عليه مما لم تصل إليه أيدي التار الأوائم فأمدوهم به وجعلوه في خزائهم.

وكان من آثار هذه النهضة المباركة أن ازدانت كبريات المدن في مصر وفي الشام ببيوت أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه، ووزعت خزائن الكتب فيها بأنفس المؤلفات، وأثمن المخطوطات، وجعلت «قوص» و «أسيوط» تردد صدى الحركة العلمية في القاهرة والإسكندرية، تضارعهما في ذلك دمشق وحلب وغيرهما بالشام.

أشهر المدارس والمساجد فى ذلك العهد

- ١ - المدرسة الظاهرية (*): بناها السلطان الظاهر «سنة ٦٢٢ هجرية» وكان حفيًا بكبار العلماء، وبلغ من حفاوته بهم وإجلاله لهم أنه كان يفرش مصلاهم بيده، وهذه أريحية تفسر لنا مدى حيابة الممالك للعلماء ومقدار تبجيلهم وتكريمهم، والناس على دين ملوكهم.
 - ٢ - المدرسة المنصورية (**): بناها الملك المنصور قلاوون، وبني بجانبها مارستانًا، وقد هنا الشعراء بإنشائها وفى طليعتهم البوصيرى.
- واليك مطلع قصيدته:

أنشأت مدرسةً ومارستانًا

لتصحح الأديان والأبدان

- ٣ - المدرسة الكاملية (***) : وهى دار الحديث، وليس بمصر دار حديث غيرها وغير دار الحديث التى بالشيخونية.
- ٤ - المدرسة الناصرية (****) : أعدها السلطان «محمد بن قلاوون» للدراسة «سنة ٧٠٣ هجرية» وكان ذلك قبل ميلاد ابن هشام بخمسة أعوام، وقد أظله عهد هذا السلطان الذى امتارت مدة حكمه بالهدوء والاستقرار، ونعمت البلاد فى ظله بالسكينة والسلام، وجنت ثمرات ما غرسه من قبله عاهلان عظيمان.

أحدهما: «الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ٦٥٨ - ٦٧٦ هجرية» الذى راجت فى عهده العلوم وأكرم العلماء، وأعاد الخلافة العباسية وقهر التتار، وانتصر على الصليبيين وأجلاهم عن يافا، وطبرية، وإنطاكية، وقيسارية، وبلادًا كثيرة، وقد بطش بالباطنية «سنة ٦٧٠ هجرية» وفتح قلاعهم، وأزال دولتهم، وفتح بلاد النوبة، وبرقة.

ومما أثر عنه أنه كان يخضع للحق ويصغى لموعظة العلماء، وكان الشيخ

(*) انظر عنها: حسن المحاضرة ٢: ١٦٣ «مطبعة الموسوعات».

(**) انظر عنها: حسن المحاضرة ٢: ١٦٠ «مطبعة الموسوعات».

(***) انظر عنها: حسن المحاضرة ٢: ١٥٩ «مطبعة الموسوعات».

(****) انظر عنها: حسن المحاضرة ٢: ١٦٠ «مطبعة الموسوعات».

محيى الدين النووى مقرباً لديه مقبول الرأى عنده، وقصتهما فى جمع المال من الرعية لقتال التتار مشهورة رواها السيوطى فى حسن المحاضرة.

ولم تكن عظمة المنصور قلاوون الذى حكم من «سنة ٦٧٨ هجرية إلى سنة ٦٨٩ هجرية» بأقل من عظمة سلفه فلقد انتصر على التتار «سنة ٦٨١ هجرية» ثم صلحت الحال بينهما بسبب إسلام «أحمد تكودار بن هولاكو».

كما انتصر على الصليبيين وانتزع منهم مدينة طرابلس الشام بعد أن بقيت فى أيديهم زهاء مائتى عام. فاستقبل القطران بعدهما حياة هادئة وادعة انتعشت فيها العلوم وانتشرت المدارس، حتى قيل بحق إن هذا عصر المدارس.

أما المساجد فإنهم شيدوها وعمروها وزادوا فيها وأضافوا إليها، وكانت حلقات العلم قائمة بين جناباتها خصوصاً مسجد عمرو بن العاص، والمسجد الطولونى، والأقمر، والأزهر المعمور الذى جدده الظاهر بيبرس بعد تعطيل دام مائة عام أقفر فى غضونها من صلاة الجمعة ومن دراسة العلم، وكان ذلك فى عهد الدولة الأيوبية، وفى فترة حكم صلاح الدين الأيوبي وما تلاها، فقد أفتاه صدر الدين عبد الملك بن درماس قاضى القضاة بعدم جواز الجمعة إلا فى مسجد واحد بالمدينة الواحدة؛ فأقر الجمعة بالمسجد الحاكمى لاتساع رقعته، وبطلت من الأزهر يومئذ لضيق ساحته، ثم أفتى العلماء فى عهد الظاهر بيبرس بجوازها فيه، فعاد للأزهر سيرته الأولى «سنة ٦٦٥ هجرية» ثم جدد مرة أخرى بعد الزلزال الذى أصاب مصر «سنة ٧٠٣ هجرية».

وما زالت يد الحكام تتعهد الأزهر ورجاله بالعناية حتى الآن، ليؤدى رسالته الثقافية على الوجه المطلوب، ويغتذى بهدى العلم فى حجرها الذين يفيدون إليها من بلاد الله ثم يعودون إلى بلادهم بعد امتلاء جعابهم فيفيضون على قومهم هدى ونوراً نتيجة الحكمة التى أصابوها، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً.

التأليف فى هذا العهد

كان النشاط فى الحركة العلمية طابع هذا العهد إذ انبعث روح التأليف من جديد، فظهرت كتب متنوعة فى العلوم، وبدأت موسوعات تشمل كثيراً من الفنون، وقد يبدو هذا غريباً لما غشى هذا العهد فى ظاهره من عزوف عن العلم وجهل من جل الملوك بلغة الضياد التى ظهرت فيها تلك الكتب القيّمة، بيد أن الباحث إذا روى وأنعم النظر تبدت له أسباب متضافرة على هذا العمل الجليل؛

منها: زوال سلطان التتار عن البلاد.

ومنها: انتهاء الحروب الصليبية.

ومنها: ما تلا ذلك من حياة وادعة واستقرار أصبح الناس معه فى سلام آمين.

هذا إلى إحساس العلماء بأن الوفاء للغة القرآن يقتضيهم أن يهبوا أنفسهم لعلومها المختلفة؛ لأن العلوم العربية فى شتى نواحيها تلتقى عند غرض واحد، هو نصره الدين، وتيسير فهم القرآن الكريم.

فإذا انضم إلى هذا ما اتصف به الملوك - وقد حذا حذوهم الأمراء - من حرص بالغ على تخليد آثارهم، ولم يكن لهم - كما سلفت الإشارة - من نسب يركنون إليه، أو حسب يعولون عليه.

لذلك أغدقوا على العلماء، وأجزلوا للمؤلفين العطاء، وصادف هوى فى نفوسهم أن يوشى المؤلفون صدور كتبهم بأسمائهم.

ومما زاد حركة التأليف اشتعالاً فى هذا العهد ما منيت به خزائن الكتب من إقفار وما نكبت به على أيدي التتار.

كل أولئك كان حافزاً لهمم العلماء أن تجمع ما تفرق، مذكياً لقرائحهم أن تحيى ما درّس.

قال السيوطى: وقد جاء فى أعقاب هذا العهد، وهو به جد خبير: «حكى عن صاحب بن عباد أن بعض الملوك أرسل إليه يسأله القدوم عليه فقال له فى الجواب: أحتاج إلى تسعين جماً أنقل عليها الكتب التى عندى^(١)، ثم قال

(١) بغية الرعاة ص ١٩٧ .

ولقد ذهب جل الكتب فى الفتن الكائنة من التتار وغيرهم بحيث أن الكتب الموجودة الآن فى اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تحصى حمل جمل واحد».

واعتقد أن هذه القصة لا تخلو من إغراق فى صدرها ومن مبالغة فى عجزها وأيا ما كان فهى تُرينا شبه صورة لما نكتب به البلاد فى الكتب من فعل التتار. ويعجبني فى هذا المقام كلام لابن مكرم جعله بين يدى كتابه «لسان العرب» وابن مكرم من صميم رجال هذا العهد؛ حيث ولد «سنة ٦٣٠ هجرية ومات سنة ٧١١ هجرية».

قال: «وانى لم أقصد سوى حفظ هذه اللغة العربية وضبط فضيلها إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز، والسنة النبوية؛ ولأن العالم بغوامضها يعلم ما توافق فيه النية اللسان، ويخالف فيه اللسان النية، وذلك لما رأيت قد غلب فى هذا الألوان من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن فى الكلام يعد لحناً مسروداً، وصار النطق بالعربية من المعايير معدوداً، وتنافس الناس فى تصانيف الترجمات فى اللغة الأعجمية، وتفاصحوها فى غير العربية، فجمعت هذا الكتاب فى زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعتة كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون».

ومن أنعم النظر فى هذا المؤلف ورأى صنيع المؤلف من استشهاد كثير بآيات القرآن الكريم وبما صح من حديث الرسول ﷺ، ومن إرداف ذلك يذكر بعض ما أثر عن الذين يحتج بقولهم، وتعقيبهم على ذلك بشرحه وتحليله، وما اشتمل عليه من مسائل فى النحو والتصريف، حكم بأنه روضة من رياض الأدب، وإلى أنه قد ضبط به لغة العرب ووجد بينه وبين «مغنى اللبيب لابن هشام» نسباً وصهراً.

كيف لا وجمال الدين بن هشام كجمال الدين بن مكرم^(١) كلاهما مصرى لغوى أنجبهما عصر واحد، وأنبتهما قطر واحد، وانحدرا من سلالة الأنصار.

(١) بغية الوعاة ص ١٠٦ .

المؤلفات فى هذا العهد واشهر المؤلفين

من مؤلفات هذا العهد التى تحمل طابعه «لسان العرب» الذى ألحقت إليه آنفاً، ولعللى لا أعدو جادة الصواب إذا رأيت أن ابن هشام تتلمذ عليه وجعله نصب عينيه، ولا سيما حين شرع يؤلف «المغنى».

وما دام الكلام قد جر إلى ذكر «اللسان» فيحسن ذكر «القاموس» لصاحبه «مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى الشيرازى» لأنه معجم لغوى، قد ولد صاحبه «سنة ٧٢٩ هجرية» بعد موت صاحب «اللسان» بثمان عشرة سنة، وقد عاصر صاحبه ابن هشام، وحظى لدى الملوك والأغنياء فى عهده، وبالغوا فى إكرامه على اختلاف الستتهم والوانهم، فاجتمع له الدين والدنيا، ولا سيما عند سلطان اليمن الذى ولاه قضاءها وتزوج ابنته.

أما كتب النحو والصرف: فأهمها: مؤلفات «ابن مالك المولود سنة ٦٠٠ هجرية» وألفيته أكثر كتبه رواجاً فى ذلك العهد، وقد لخصها من أرجوزة له فى هذين العلمين اسمها «الكافية الشافية» وله كتاب «التسهيل» وشرحه، وهو مؤلف جليل تناوله كثير ممن جاء بعده بالكتابة عليه، وهو من المراجع التى يعول عليها لرسوخ قدم مؤلفه فى النحو والصرف، ولكثرة ما أفاض فى هذا الكتاب. و «الكافية» و «الشافية» لابن الحاجب «المتوفى سنة ٦٤٦ هجرية» وشرحهما لنجم الأئمة «محمد بن الحسن الرضى الأستراباذى» (١).

طابع التأليف فى هذا العهد

امتازت المؤلفات فى هذا العهد عنها فى الأيام الخالية بما جعلها تظهر فى صور مختلفة توخاها العلماء حينما شرعوا يؤلفون.

يتجلى ذلك فيما أمدونا به من كتب باقية تتداولها الآن، فلما نرى للمؤلف أكثر من كتاب فى غرض واحد، والذى حدا به إلى ذلك اختلاف المقام حيال من يؤلف لهم؛ إذ فيهم الصغير والمتوسط والكبير، «ولكل درجات مما عملوا». ومن ظهرت مؤلفاتهم فى صور مختلفة إيجازاً وإطناباً السيوطى فى «طبقات

(١) نشأ ببلاد فارس وتلقى على علماء الشيعة وفرغ من شرح الكافية فى شوال «سنة ٦٨٦ هجرية» واختلفت الروايات فى تاريخ وفاته، وعلى كل فهو من علماء القرن السابع الهجرى.

النحويين واللغويين» فقد أظهره على ثلاث مراتب مراعيًا حال الناشئين والشدة والناهلين ومن قبله ابن هشام فقد ألف «الإعراب عن قواعد الإعراب» وهو من الإيجاز بمكان، ثم جعله نواة لكتاب «المغنى» بل لقد شرح شواهد المغنى فى مؤلفين صغير وكبير، وكان فى ذلك مقتفيًا أثر ابن مالك فى استخلاصه «الألفية» من «الكافية الشافية» وكذلك ابن الحاجب.

ولقد كانت مقدرتهم العلمية وتمكنهم من أساليب الكلام قبضًا وبسطًا أكبر معين لهم على تفاوت كتبهم بين وجيز ووسيط وبسيط، وكان لهم إلى هذه المسحة سمة أخرى فى تأليفهم، وهى تعليق مؤلف لاحق على كلام مؤلف سابق بالإيضاح له والتوسع فى مسائله مع سبك فى الصنعة حتى يتعشق الكلامان ويأخذ بعضهما بحجز بعض فيصيرا كلامًا واحدًا، وهذا ما يعبر عنه بالشرح، ولا يكاد الإنسان يظفر بكتاب من كتب هذا العهد عاطلاً من تلك الخلية حتى لقد سُمى هذا العصر «عصر الشروح».

أشهر النحاة فى مصر فى هذا العهد

من أشهرهم: جمال الدين بن الحاجب الكردى المحتد، الأسنوى المولد، وقد تبهر فى العربية يافعا، ثم حذق النحو وانتقل إلى الشام فتهاقت المتعلمون عليه، وأقبلوا إليه، وأعجب به «ابن خلكان» ثم قفل راجعًا إلى القاهرة وتصدر بالمدرسة الفاضلية، ثم انتقل إلى الإسكندرية، وقد شرح «المفصل» للزمخشري، على أن أشهر آثاره «الكافية» وشرحها وكانت وفاته «سنة ٦٤٦ هـ»..

«وعلم الدين السخاوى» وهو أبو الحسن على بن محمد تلميذ البوصيرى ومعاصريه، وهو نحوى أديب مقرب، إمام فى النحو واللغة والتفسير، عالم بالقراءات، من تصانيفه النحوية شرح أحاجى الزمخشري وشرح المفصل توفى «سنة ٦٤٣ هـ».

«وأبو حيان أثير الدين الأندلسى» المشهور الذى كان نحوى عصره ولغويه ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه، وقد ولد فى غرناطة، وأوفى على الغاية فى التلقى على علماء الأندلس، ثم استقر به النوى فى مصر، ومن شيوخه فيها: البهاء ابن النحاس، توفى «سنة ٧٤٥ هجرية».

و «شهاب الدين عبد اللطيف بن المرحل» أستاذ ابن هشام، وهو الذى نوه

به، وأشاد بفضله، وقدره حق قدره، وقديماً قالوا:

إنما يُقْسَدُ الكرام كـسـرِـم

ويقسم الرجال وزن الرجال

ولو لم يكن من بر ابن هشام بشيخه ابن المرحل إلا كلمته الباقية «إن الاسم فى زمانه - زمان ابن المرحل - كان لأبى حيان، والانتفاع كان بابن المرحل» لكفاه فخراً^(١).

تصدر ابن المرحل بالجامع الحاكمى، وأخذ عنه كثير منهم - غير ابن هشام -: ابن الصائغ.

وتوفى بالقاهرة «سنة ٧٤٤ هجرية».

ومن نوابغ نحاة مصر فى هذا العصر صاحب اللسان^(٢)، وقد أسلفت أن ابن هشام انتفع بمؤلفه كثيراً، وقد توفى ابن مكرم «سنة ٧١١ هجرية».

و «الرضى الشاطبى» وهو محمد بن على بن يونس الذى ولد ببلنسية «سنة إحدى وستمائة»، وكان إمام عصره فى اللغة، وتصدر بالقاهرة، وأخذ عن أبى حيان وغيره، توفى «سنة ٦٨٤ هجرية».

(١) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ص ٢ : ٤٠٧ .

(٢) حسن المحاضرة ص ٢٤٦ .

بيئة ابن هشام وأثرها فيه

لقد كان القرن السابع الهجرى وما زخر به وانتشر فيه من حركة علمية بمثابة تربة طيبة، تعهدا ومهدا حذاق الزراع، وأودعوا فيها أنفس ما وصلوا إليه من بذور، وأنزل الله عليها من المعصرات ماء ثجاجاً، ليخرج به حباً ونباتاً، وجنات ألفافاً، أزهرت وأثمرت وآتت أكلها ضّعفين.

فى هذه التربة النقية، أو البيئة العلوية، نشأ ابن هشام، فتعلم ما كان يتعلمه نجباء هذا العصر من أبناء مصر، وقد أسلفت أنها خلفت بغداد فى كل ما كان لها، ومن طالع اليمن والسعد انصرف همم المماليك الذين كانوا يحكمونها إلى تقريب العلماء والأدباء، وغمرهم بالعطايا الفاخرة؛ بحثاً لهممهم، وشحذاً لقرائحهم، واستدراكاً لصوب عقولهم.

من أجل ذلك كان عصر المماليك ولا سيما البحرية وهو العصر الذى تلا انقراط عقد الدولة الأيوبية، من العصور التى بلغت فيها اللغة مبلغاً عظيماً من الرقى والنهوض، وزخرت القاهرة بالعلماء والأدباء.

وإن آثار ابن هشام لتضع يد الباحث فيها والمطلع عليها على أسباب نموه وسموه فى لغة العرب، وتعطى الدليل - أبلغ الدليل - على ما كان الرجل يتمتع به من مواهب نادرة، جعلت منه نسيج وحده وفريد نوعه، وأن ما أصابه ابن هشام من حظ عظيم فى العلم، وما بلغه وشف عنه قلمه من علو كعبه فى الأدب، وما امتاز به أسلوبه من إشراق فى العبارة، وبلاغة فى الإشارة، وروعة فى التركيب، وما إلى ذلك من صفات لا ينالها إلا الأخذ بناصية علمه البارع فى فنه.

كل ذلك ينطق بما كان للرجل من عقلية خصبة، وذكاء نادر، وما انطوى عليه من قريحة وقادة، وحس مرهف، وطبع سخى، وذوق سليم، وما تمتع به من فكر ناقب، وذهن صاف، وحسن تدبير وتقدير.

الفصل الثالث

شخصية ابن هشام

كان ابن هشام عظيمًا فى نفسه، معتزًا بكرامته، ذا شمم وإباء، مترفعًا عما ارتضاه سواه، لم يؤثر عنه أنه تهالك على دنيا، أو ترامى فى أحضان أمير بل لقد كان زاهدًا فى زهرة الدنيا معرضًا عن ريتها، قانعًا بالكفاف من مال الله الذى آتاه، يفسر لنا هذا عزوفه عن جمع المال، ولو «أراد ثراء كان له وفر».

ولكن الرجل صان كرامة العلم وترفع عما اتصف به بعض معاصريه من ركض فى أعقاب دنيا يصيبها من وراء تكسبه بالعلم.

قال ابن حجر، فى كتابه «أنباء الغمر بأبناء العمر» فى ترجمة الشيخ شمس الدين السيوطى، وهو غير السيوطى المشهور: «كان عالمًا بالعربية ماهرًا فيها حسن التعليم لها عارقًا بعدة فنون، انتفع به جماعة، وكان يعلم بالأجرة ويقرئ كل بيت من الألفية بدرهم، وله فى ذلك وقائع عجيبة، تنبىء عن دناءة شديدة وشح مفرط»^(١).

ومن متكسبى القدامى مبرمان المتوفى «سنة ٣٤٥ هجرية» كان لا يقرئ كتاب سبويه إلا بمائة دينار، وله حكاية طريفة مع ابن هاشم الجبائى^(٢).

ولقد طبقت شهرة ابن هشام الآفاق، وسارت بذكره الركبان، ولم تقع العين منه على مغمز له فى صدر مؤلف من كتبه.

وليس غريبًا على رجل من سلالة الأنصار أن يكون عزوفًا عيوفًا، فهو فرع دوحة عربية عريقة فى المجد «وهل ينبت الخطى إلا وشيجه».

أجمع المؤرخون على أن ابن هشام كان عف اللسان رقيق القلب، متواضعًا حليمًا برك كريمًا، على خلق عظيم، وكان لهذا أبلغ الأثر فى كتابته؛ فقد ظهرت مؤلفاته مبرأة مما يشبه المهاترة فلا تراه فى مناقشاته يسفه رأيًا، أو يذكر لفظًا نايًا، أو يقسو فى تعقيب، وإنما أخذ نفسه بالأدب الجهم يتفق منه فى مقارعة الحجة ودفع الشبهة ودرء الخطأ، وإحقاق الحق وإبطال الباطل، دون تشف، أو

(١) بغية الرعاة ص ٣٧ .

(٢) بغية الرعاة ص ٧٤ - ٨٧ .

تحامل، ولولا انحرافه عن أبي حيان وتبعه لأرائه بالترفيف لكان أمة وحده في سلامة التأليف.

حياته العلمية

إن الكلام في الحياة العلمية لإمام من رجالات العلم يتناول طورين من أطوار هذه الحياة.

الأول: طور التعلم والتكوين: وهو يشمل مكان دراسته وبيان شيوخه وأساتذته وما نبغ فيه، وبعض معاصريه.

والثاني: طور التعليم والتدوين: وهو يشمل المكان الذي تصدر فيه والعلوم التي خدمها بالتدريس والتأليف، ومدى ما أفاد الناس منه ومن مؤلفاته.

ولعل أسبق العلماء كتابة عن ابن هشام العلامة «ابن حجر العسقلاني» وهو مصري قاهري ولد «سنة ٧٧٣ وتوفي سنة ٨٥٢» فقد ترجم له في كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»^(١).

قال - عفا الله عنه - بعد ذكر نسب المترجم له المتقدم: «ولزم الشيخ شهاب الدين عبد اللطيف بن المرحل^(٢)، وتلا على ابن السراج، وسمع من أبي حيان ديوان زهير بن أبي سلمى، ولم يلازمه ولا قرأ عليه، وحضر دروس الشيخ «تاج الدين التبريزي» وقرأ على الشيخ «تاج الدين الفاكهاني» جميع شرح الإشارة له إلا الورقة الأخيرة، وتفقه للشافعي، ثم تحنبل، فحفظ مختصر الخرقي في أقل من أربعة أشهر، وذلك قبل موته بخمس سنين، وأتقن العربية ففاق الأقران بل الشيوخ، وحدث عن ابن جماعة «بالشاطبية» هكذا».

ومن هذه العبارة نتطلع إلى صدر حياة ابن هشام العلمية ونقف أمام شيوخه متسائلين: كيف كان منهم ابن السراج؟ ومن عجب أن السيوطي نقل هذه الترجمة إلى كتابه «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة»^(٣) ورددها في كتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة»^(٤)، وكرر فيها أنه تلا على ابن السراج.

(١) الدرر الكامنة ٢ : ٣٠٨ .

(٢) الدرر الكامنة ٢ : ٤٠٧ .

(٣) البغية ص ٢٩٣ .

(٤) الدرر الكامنة ١ : ٢٣١ .

ثم رأيت ذلك مسطوراً في «شذرات الذهب لأبي الفلاح عبد الحى بن العماد»^(١) وما كان لجرس ابن السراج أن يرن في أذنى دون أن ينصرف ذهنى إلى خليفة المبرد ببغداد الذى تتلمذ عليه ودرس كتاب سيبويه بين يديه.

وابن السراج هذا هو أبو بكر محمد بن السرى صاحب كتاب «الأصول فى النحو» ولقد جعل «ياقوت» كتابه خير مؤلفات النحو إذا قال فى شأنه: «وهو أحسنها وأكبرها، وإليه المرجع عند اضطراب النقل واختلافه، جمع فيه أصول العربية وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب».

وله عدا ذلك مؤلفات كثيرة، ولقد كان ضليعاً فى علمه حتى لقد قيل فيه: «ما زال النحو مجنوناً حتى عقله ابن السراج»^(٢).

ومن تلاميذه: الزجاجى والسيرافى والفارسى والرمانى، وتوفى «سنة ٣١٦ هجرية».

ومن هذه الإشارة العابرة نرى أن القصد إلى أبى بكر محمد بن السرى غير مستقيم وإن كان لا ينبغى قصد سواء عند الإطلاق، فهل فى النحاة مسمى غيره ينصرف إليه هذا اللفظ كما ينصرف سيبويه إلى صاحب الكتاب؟ هذا ما بحثت عنه ونقبت فى أكثر من مرجع، وإنى مورد هنا ما عثرت عليه بعد طول البحث.

١ - محمد بن الحسن بن عبد الله بن عمر بن حمدون أبو يعلى الصيرفى، ويعرف بابن السراج، قال الخطيب: كان أحد الحفاظ بعلم النحو وحروف القرآن ومذاهب القراء شار إليه فى ذلك، ولكنه ولد يوم الأحد فى أحد الربيعين «سنة ٣٧٣ هجرية»، ومات ليلة الجمعة الثامن والعشرين من ذى الحجة «سنة ٤٢٧ هجرية»^(٣) فيكون غير مراد أيضاً، وما كان للسيوطى وهو ابن بجدتها وفارس حلبتها أن يقحم ابن السراج بين شيوخ ابن هشام، ويفرض علينا أن نسلم له ونقبله منه مدعين.

ولقد راجعت فيما راجعته من كتب إلى فهرس «بغية الوعاة» له فالفيتها قد عقد فيه باباً للكنى والألقاب، واليك عبارته فى باب السين:

(١) توفى ابن العماد الحنبلى «سنة ١٠٨٩ هجرية».

(٢) بغية الوعاة ص ٤٤.

(٣) بغية الوعاة ص ٣٧.

«السراج» بتشديد الراء، صاحب «مصارع العشاق» جعفر بن أحمد، وبالرجوع إليه في ترجمته «صفحة ٢١١» نراه قد قال عنه: أنه ولد «سنة ٤١٧ هجرية» أو سنة ٤١٨ هجرية، وتوفي سنة ٥٠٠ أو سنة ٥٠١، أو سنة ٥٠٢ هجرية» وأياما ما كان الأمر فيبينه وبين ابن هشام قرنان وجل الثالث، ثم تراه يقول في نفس الفهرس: «السراج» جماعة أشهرهم: أبو بكر محمد بن السرى، وهو المعول عليه عند الإطلاق، وقد تبين أنه توفي «سنة ٣١٦ هجرية»، وأمعن في التاريخ قبل ظهور ابن هشام.

وجاء في هذا الباب وبعد العنوان السالف: «ابن سراج» بتخفيف الراء وكسر السين: عبد الملك، وقد رجعت إلى ترجمته «صفحة ٣١٢ من «بغية الوعاة» فرأيت أنه يقول عنه أنه قد عكف على كتاب سيبويه ثمانية عشر عاما لا يعرف سواه، ومات «سنة ٤٨٩ هجرية».

ثم رأيت العلامة «الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هجرية» في كتابه «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» قد ترجم لابن هشام في الجزء الأول: صفحة ٤٠٠ من كتابه وقد جرده من تلمذته على ابن السراج، وجاء كذلك خلوا منها في «دائرة المعارف الإسلامية».

ولعله قد قر في نفوسهم حين الكتابة عنه والترجمة له ما وقر بادية الأمر في نفسى، ولكن أنى لابن حجر وهو من تعلم تحقيقاً وتدقيقاً أن يقع في هذا الخطأ! وكيف يتفق للسيوطى وهو بحر الاطلاع أن يقره على خطئه، وينقله للناس وكلاهما ثبت ثقة.

الحق والحق أقول لقد تملكنى الدهش، ونازعتنى النفس إلى معاودة البحث ومواصلة التنقيب، وما الحقيقة إلا بنت البحث، ومن سار على الدرب وصل؛ راجعت فهارس المراجع في القرنين السابع والثامن وأردفت ذلك باستيعاب جميع التراجم التى ذكرها السيوطى فى «بغية الوعاة» ولم أدع فى هذا الكتاب حرفاً إلا وقع عليه نظرى ووعاه فكرى، والسراج وجهتى، والسراج قبلتى وبغيتى، وما اشتق منهما ضالتي، وفى الليلة الظلماء تفتقد السراج، وكان أن هديت إلى تسعة عشر علماً، اشتقت أسماؤهم من تلك المادة ويترددون بين ابن السراج وابن سراج وبين السراج وسراج.

الاول: ابن السراج، فى الصفحات: ٨ - ٩ - ٣٧ - ٤٤ - ١٠١ - ٢١٢ -

٢٧٢ - ٣٠٠ - ٤١٢ -

الثاني: ابن سراج، في الصفحتين: «٢١٢ - ٢١٣».

الثالث: السراج: في الصفحات: «٩٥ - ٩٧ - ٩٩ - ٢١١ - ٢٢٦ - ٢٧٥ - ٣٣٩».

الرابع: سراج، في صفحة ٢٥١.

ووجدت أولهم أولاهم بأن يكون شيخاً لابن هشام، ويقربه التعبير بلفظ التلاوة «تلا على ابن السراج» فقد جاء في ترجمته أنه المقرئ النحوي، تصدى لإقراء القرآن والنحو في دمشق وقصده الطلبة، ثم إنه أقرأ لأبى عمرو بادغام الراء في اللام من قوله تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها﴾ [النحل: ٨] ورآه سائغاً في العربية، والتزم إخراجهم من القصيد وصمم على ذلك، فراجع فصمم، فمنع من الإقراء بذلك، فتألم وامتنع من الإقراء جملة.

ثم أقرأ بالجامع وجلس للإفادة، وازدحم عليه الطلبة، ثم تولى مشيخة التربة الصالحية بعد المجد التوني؛ بحكم أنه أقرأ أهل دمشق، وتوفى «في خامس ذي الحجة سنة ٧٤٣ هجرية».

ويبعده أن إقراء ابن السراج - المذكور - كان بدمشق، ويدفع هذا البعد قرب المسافة بين القطرين «مصر والشام»، مضاعفاً إلى هذا ما امتاز به بدر الدين بن السراج من رسوخ قدمه في الإقراء، ولا مانع من أن يكون ابن هشام قد دلف إلى الشام وكان في عداد الطلاب الذين قصدوه وازدحموا عليه، ولكن هذا لا يشفى الغليل.

والذى تطمئن إليه النفس إنما هو «محمد بن محمد بن نصير الشيخ شمس الدين بن السراج ويكنى أبا بكر» قال الحافظ ابن حجر: قرأ على «نور الدين الكفتى» (١) وعلى «المكين الأسمر» (٢) وغيرهما، وعنى بالقراءات، وكتب الخط المنسوخ، وبرع فيه، وتصدر للإقراء والتكريب، وانتفع الناس به، وكان سليم الباطن يعرف النحو ويقريه، ومات في شعبان «سنة ٧٤٧ هجرية» (٣). ولكن السيوطى لم يشر إلى البلد الذى أقرأ فيه هذا المقرئ، ولم يطنب فى الثناء عليه إطنابه فى سابقه.

(١) هو شيخ القراء بديار مصر توفى «سنة ٦٨٩ هجرية»، حسن المحاضرة ص ٢٥١.

(٢) المكين الأسمر هو شيخ القراء بالأسكندرية توفى «سنة ٦٩٢ هجرية» حسن المحاضرة ص ٢١٥.

٢١٦.

(٣) بغية الوعاة ص ١٠١.

أما البلد فقد رأيت ما يُعين أنه مصرى؛ وذلك فى ترجمة «شمس الدين بن اللبان الدمشقى» من «شذرات الذهب» صفحة ٢٤٣، فقد جاء فيها أنه أخذ القراءات عن سبط السلمونى «السلقونى»، ثم رحل فأخذ عن ابن السراج والمرادى وأبى حيان وغيرهم.

والمرادى وأبو حيان معلوم أنهما كانا يُعلمان بمصر، فَقَرَنُ ابن السراج بهما دليل على أنه كان معهما فى مكان واحد هو القاهرة.

ومما يقطع بصحة ما ذهبت إليه أن السيوطى ذكر فى «حسن المحاضرة» عن شمس الدين ابن السراج أنه كتب الخط المنسوب وبرع فيه، وصار معلماً له فى الجامع الأزهر، وأنه ولد بعد السبعين وستمائه، ومات بالقاهرة فى شعبان سنة سبع وأربعين وسبعمائة من الهجرة^(١).

نقد وملاحظة^(٢)

لقد كان الأجدد بالعلامة ابن حجر أن يفصح عن المراد بابن السراج ما دام يشركه فى هذا الاسم كثير من النابهين، وهذا النقد لا يسلم منه السيوطى، فما كان أحراه أن ينأى عن هذا الغموض، وأن يجنب الباحث فى «بغية الوعاة» مؤنة الخبط والتخمين، ولا يشفع له - فى نظرى - ما ذكره فى «حسن المحاضرة» فهذا مؤلف وذاك مؤلف، والوفاء للعلم يقتضى المؤرخ كشف الغموض وإزالة الإبهام أينما كتب حتى لا يشط طالب الفائدة من الكتاب، أو يفضل ضلالاً بعيداً.

وإذا كان ابن حجر والسيوطى ملومين مرة فالشوكانى ومن ترجم لابن هشام فى دائرة المعارف يتجه إليهم اللوم مرات من جراء إغفال ابن السراج وهو مع البحث يلقى لدى الباب.

ومن ملازمة ابن هشام لابن المرحل وحضوره دروس الشيخ تاج الدين التبريزى وقراءته على تاج الدين الفاكهانى شرح الإشارة له وتحديثه عن ابن جماعة، تفهم أن شيوخته فى النحو هم الثلاثة:

الأول: «عبد اللطيف بن المرحل».

(١) حسن للمحاضرة ١ : ٢١٧ .

(٢) تقدم أنه توفى سنة ٧٤٤ هجرية بالقاهرة الدرر الكامنة ص ٤٠٧ .

الثانى: «تاج الدين التبريزى».

الثالث: تاج الدين الفاكهانى.

وهؤلاء هم فطاحل النحو فى عهدهم، وقد سبقت كلمة ابن هشام فى شيخه ابن المرحل، وأما تاج الدين التبريزى فقد كان أحد الأئمة الجامعين لأنواع العلوم، وكان عديم النظير فى عصره، متضلعا فى غالب الفنون من المعقولات، والفقه والنحو، وقد إلى القاهرة بعد أن تفجرت العلوم من جوانبه ونطقت الحكمة من نواحيه^(١)، توفى «سنة ٧٤٦ هجرية».

وأما تاج الدين الفاكهانى فهو من نحاة الأسكندرية، مهر فى العربية والفنون، وكان مالكى المذهب، وله فى النحو «شرح الإشارة» الذى قرأه عليه ابن هشام، وله غيره، توفى بالأسكندرية «سنة ٧٣١ هجرية»^(٢).

شيوخه فى الفقه

كان ابن هشام بادية الأمر شافعى المذهب وعليه فشيخه هم: «عبد الطيف بن المرحل، والتاج التبريزى».

أما التاج الفاكهانى فقد كان مالكى المذهب، ورأيت فى هامش «الدرر الكامنة»^(٣) أنه تفقه على «التقى السبكى» مجتهد زمانه وصاحب التصانيف العديدة المتوفى «سنة ٧٥٦ هجرية»^(٤).

ومنهم «المجد الزنكلونى» وهو إسماعيل بن عبد العزيز الذى ولى مشيخة البيروسية ودرس بها وبالجامع الحاكمى، وتوفى «سنة ٧٤٠ هجرية»^(٥).

وقد صار حنبلياً قبل وفاته بخمسة أعوام لينال منصب معلم بالمدرسة الحنبلية بالقاهرة كما جاء فى «دائرة المعارف الإسلامية»، فحفظ لذلك عن ظهر قلب كتاب المختصر «للخرقي» فى أقل من أربعة أشهر.

وفى «القاموس» المحيط^(٦) لمجد الدين يقول: أن الخرقى هو والد صاحب

(١) طبقات الشافعية ٦ : ١٤٦، حسن المحاضرة ١ : ٢٣٥ .

(٢) بغية الوعاة ص ٣٦٢ .

(٣) حسن المحاضرة ٢ : ٣٠٨ .

(٤) طبقات الشافعية ٦ : ١٤٦، حسن المحاضرة ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٥) حسن المحاضرة ١ : ١٧٩ .

(٦) حسن المحاضرة ٣ : ٢٢٥ .

المختصر واسمه «أبو الحسين بن عبد الله بن أحمد» وظاهر من هذا أن دراسته لمذهب ابن حنبل كانت استقلالية، وأنه كان دائب التحصيل، لا ينفك يطلع، ولا يثنيه عن ذلك اشتغاله بالتأليف؛ فإنه كان في تلك المدة يؤلف كتابه «مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب»، وقد جاء في «كشف الظنون» عند الكلام على «المغنى»: «أن ابن هشام فرغ من «المغنى» في ذى القعدة من نفس السنة التي بدأ فيها»^(١).

وقد قال ابن هشام في خطبة هذا الكتاب: «ولما مَنَّ اللهُ على في عام ستة وخمسين بمعاودة حرم الله والمجاورة بخير بلاد الله، شمرت عن ساعد الاجتهاد ثانياً، واستأنفت العمل لا كسلاً ولا متوانياً، ووضعت هذا التصنيف». وقد قال الدماميني: إن المؤلف توفي بعد فراغه من هذا الكتاب بزهاء ستة أعوام.

شيوخه في الحديث

قيل: إنه حدث عن ابن جماعة «بالشاطبية» هكذا، وابن جماعة مسماة أسرة من علماء العرب أصلها من حماة يعرف أفرادها بهذا الاسم وحده مما أدى إلى كثير من الاختلاط بينهم.

اشتهر منهم «بدر الدين محمد بن إبراهيم الكنانى»^(٢) الذى ولد «سنة ٦٣٩ هجرية» وعمر حتى «سنة ٧٣٣ هجرية»، تلقى العلم بدمشق ثم أصبح مدرساً بها، وصار فيما بعد قاضى القضاة ببيت المقدس، ثم القاهرة، فدمشق، فالقاهرة، وكان إلى جانب قيامه بأعباء منصبه لا يفتأ يؤلف، ولا ينفك يدرس فى عدة مدارس، وحدث ودرس بالكاملية وغيرها، وكان محقق عصره، وكان يمتاز بقوة الحفظ امتيازاً ظاهراً، وهو من تلاميذ البوصيرى، وقد حضر السلطان^(٣) «الناصر محمد بن قلاوون» حلقة في الحديث «سنة ٧٢٥ هجرية» فسمع عليه ٢٠ حديثاً، وأجازه إجازة سنينة.

وعز الدين ابنه^(٤) الذى أكثر من السماع فبلغت شيوخه ألفاً وثلاثمائة،

(١) كشف الظنون ص ٢٩٧ .

(٢) حسن المحاضرة ص ١٩٤ طبقات الشافعية الكبرى ص ٢٣٠، دائرة المعارف الإسلامية ص ١٢١ .

(٣) حسن المحاضرة ٢ : ١٦٣ .

(٤) حسن المحاضرة ٢ : ١٦٥ ، دائرة المعارف الإسلامية ص ١٦٥ .

وصنف «تخريج أحاديث الرافعى» وغيره، وولى القضاء بالديار المصرية، وتولى تدريس الخشائية، وكانت معرفته بالحديث أمثل من معرفته بالفقه، وقد ولد «سنة ٩٩٤ هجرية»، وتوفى «سنة ٧٦٧ هجرية».

وحفيده: «برهان الدين» ولد بالقاهرة «سنة ٧٢٥ هجرية» ودرس بها وبدمشق، ثم صار قاضى القضاة بالقاهرة، وتوفى «سنة ٧٩٠ هجرية» (١).

وأرى أن ابن هشام كان أوثق اتصالاً بأولهم، ولا مانع من تلمذته على ابنه عز الدين أيضاً فقد ترجم له السيوطى فيمن كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده.

وأرى أيضاً أن رواية ابن هشام للحديث عن ابن جماعة كانت «بالخشائية» وأن «الشاطبية» تحريف لأنها لم تذكر إلا هنا على العكس من «الخشائية» التى ذكرت مراراً، وفى مناسبات شتى، فقد جاء ذكرها فى تدريس عز الدين بن جماعة (٢).

وجاء فى الكلام على العلامة «عبد الوهاب السبكى» (٣) أنه ولى التدريس بالخشائية، وهو معاصر لابن هشام.

وفى ترجمة صدر الدين بن المرحل أنه درس بالخشائية والمشهد الحسينى والناصرية (٤).

وقد بحثت عن الشاطبية فى «الخطط التوفيقية» وفى «الخطط المقرئية»، وفى غيرهما فلم أعثر عليها بين المساجد والمدارس والأضرحة والمزارات.

(١) دائرة المعارف الإسلامية ص ١٢٢ .

(٢) حسن للمحاضرة ١ : ١٦٥ .

(٣) حسن للمحاضرة ١ : ١٣٥ .

(٤) حسن للمحاضرة ١ : ١٧٦ .

مكان دراسة ابن هشام

كما سبق نفهم أن دراسة ابن هشام لم تعد القاهرة، ويمكن حصرها في الجامع الحاكمي^(١)، والخشائية - لا الشاطبية - وفي الكاملية، وفي المسجد الحسيني، وفي الأزهر، وفي القبة المنصورية، وجامع الأقمر.

فإن هاتيك المساجد والمدارس هي التي كان يغشاها هؤلاء الشيوخ يتلون كتاب الله ويتدارسونهم بينهم وتقوم بين جنباتها حلقات الدروس، ويؤمهم فيها طلاب العلم على اختلاف أنواعه.

وكتب التاريخ التي بأيدينا على كثرتها لم يذكر في واحد منها أن ابن هشام برح مصر في طلب العلم، وما أقام الله عليه منه إنما أصابه بين سحر القاهرة وتحرها، ولم يهاجر منها إلا إلى الأرض المقدسة ليحج البيت، ويجاور الحرم، ويعاود إنشاء «الغنى» الذي أصيب به في منصرفه من الحجاز في رحلة سابقة.

وبعد... فهل وقفت تلمذة ابن هشام عند هؤلاء الأعلام أو أنه كان مشغوقاً بالإكثار منهم والطواف بحلقاتهم طواف النحل بالزهر في رياض الجنات؟ إن المراجع التي ترجمت له ولسواه من معاصريه لم تذكر غير من قدمت، ولم تقل عنه في هذا الصدد ما قالت في معاصريه: عز الدين بن جماعة الذي أكثر السماع حتى بلغت شيوخه ألفين^(٢)، والتلمساني الذي بلغت شيوخه ألفين أيضاً^(٣) وأبى حيان الذي بلغت شيوخه خمسين وأربعمائة^(٤).

وتلك مفخرة لابن هشام تدل على أن الرجل كان حصيف الرأي، نافذ البصيرة مرهف الحس، قوى الاعتماد على النفس، وتلك صفات تجعل من صاحبها منهوماً يلتهم العلم التهاماً، يصبر على البحث، ويصابر في الدرس، ويثابر في اقتناص الشوارد، ويواصل تقييد الأوابد، وكلما وصل إلى غاية استهوته غايات، حتى يصل إلى أعلى الدرجات.

وهكذا كان ابن هشام محللاً في الأجواء جاداً في أثر الجوزاء، فكان له ما

(١) الدرر الكامنة ص ٤٠٧ فقد جاء فيها إن ابن المرحل تصدر بالجامع الحامى، ومعلوم أن ابن هشام كان ملازماً له.

(٢) حسن المحاضرة ١ : ١٦٥ .

(٣) ولد بتلمسان سنة ٧١١ وتوفى سنة ٦٧٦ هجرية، بغية الوعاة ص ١٩ .

(٤) بغية الوعاة ص ١٢١ .

أراد، وكان للعربية منه أبر الأبناء، ومؤلفاته - وإن شئت فقل معجزاته - آيات بينات تنطق بما تمتع به من مواهب، وتدل على أن اطلاعه كان جده عظيم: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

هذا وإن ابن هشام لم يكن وحده مقتصدًا في عدد الشيوخ، بل لقد سبقه ابن مالك.

قال السيوطي وهو يترجم له (١) : قال أبو حيان : بحثت عن شيوخه فلم أجد له شيخًا مشهورًا يعتمد عليه ، ويرجع في حل المشكلات إليه ، إلا أن بعض تلامذته ذكر أنه قال : قرأت على ثابت بن حيان بجيان وجلست في حلقة أبي على «الشلوبين» نحوًا من ثلاثة عشر يومًا، ولم يكن ثابت بن حيان من الأئمة النحويين وإنما كان من أئمة المقرئين، ثم قال: وكان ابن مالك لا يحتمل المباحثة ولا يثبت للمناقشة (٢) لأنه إنما أخذ هذا العلم بالنظر فيه بخاصة نفسه، هذا مع كثرة ما اجتنأه من ثمرة غرسه.. انتهى.

قال السيوطي: قلت: وله شيخ جليل وهو «ابن يعيش الحلبي» ذكر ابن إيار في أوائل شرح التصريف أنه أخذ عنه.

(١) بغية الوعاة ص ٥٣ .

(٢) المناقشة كما في الأصل.

سر تحامل ابن هشام على أبي حيان

إن الإنسان ليحار في تعليل تحامل ابن هشام على أبي حيان وانحرافه عنه ومخالفته له، وأبو حيان بالمكان الذي ترنو إليه الأبصار في هذا المضممار، وابن هشام جلس بين يديه وتلمذ عليه وسمع منه ديوان صاحب الحوليات، وقد أجمع المؤرخون على اتصافه بالبر والشفقة ودماثة الأخلاق، أفلا يكون برّاً بشيخه الذي علمه ديوان زهير؟!

لقد عنيت بتتبع ما عرض من آراء أبي حيان في «المغنى» وابن هشام له بالمرصاد لم يهادنه مرة واحدة ولم يترك له قولاً دون تزييف له ونبذ به دون هوادة، ثم بحث عن الباعث على هذه الحملات التي من شأنها أن يقوم بها كل متعطش لإرواء نهمه من خصمه، فلم أجد في النحلة من أماط اللثام عن هذا السر الغامض، فعولت على كتب التراجم، فوجدت العلامة الشوكاني قد انبرى من بينهم للحديث في هذا الموضوع، وإليك كلامه:

«وكان كثير المخالفة لأبي حيان شديد الانحراف عنه، ولعل ذلك - والله أعلم - لكون أبي حيان كان منفرداً بهذا الفن في ذلك العصر غير مدافع عن سبق فيه، ثم كان المنفرد بعده هو صاحب الترجمة «ابن هشام»، وكثيراً ما ينافس الرجل من كان قبله في رتبته التي صار إليها، إظهاراً لفضل نفسه بالاقتدار على مزاحمته لمن كان قبله، أو بالتمكن من البلوغ إلى ما لم يبلغ إليه وإلا فأبو حيان هو من التمكن من هذا الفن بمكان، ولم يكن للمتأخرين مثله ومثل صاحب الترجمة، وهكذا نافس أبو حيان «الزمخشري» فأكثر من الاعتراض عليه في النحو «والنهر الماد» لكون الزمخشري ممن تفرد بهذا الشأن، وإن لم يكن عصره متصلاً بعصره».

ثم قال الشوكاني: «وهذه دقيقة ينبغي لمن أراد إخلاص العمل أن يتنبه لها فإنها كثيرة الوقوع بعيدة الإخلاص».

وكأنى بالعلامة الشوكاني يريد أن يثبت أن ابن هشام كان متحرقاً متوثباً، يطمع في الشهرة، ويمد عينيه إلى مكان سام بعيد المنال، وهو الذي رفع الله ذكره وأعلى قدره، وجعله وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين - إن شاء الله - لأنه كما أجمع المؤرخون كان متواضعاً لله متحاباً في الله، ولقد كانت مؤلفاته تسرى كالبرق في الآفاق تعلن عنه، وتنوء به.

ومن كان البر شيمته، والتواضع شرعته، والتحقيق بغيته، فإنه لا يطمح إلى اشتهار قبل أوانه، ولم يؤثر عن ابن هشام أنه تعجل شيئاً قبل أوانه، ولم يقل أحد فيه ما قد قيل لأبى الفتح بن جنى: «ذيت قبل أن تحصرم»^(١) حينما مر عليه شيخه فيما بعد «أبو على الفارسى» ورآه متصديراً للدراسة وهو يافع وسأله فى الصرف فلم يحر جواباً!

على أن أبا الفتح لما بلغ أشده، واستوى وآتاه الله ما آتاه، وعلمه ما علمه، ما كان ليُسَفَّه رأياً لأبى على الفارسى، وإنما يسوق آراءه فى مقام الاستدلال بأدب وإجلال.

والذى أراه وقد طالعت ترجمة أبى حيان وتراجم تلاميذه، أنه رأى صنيع الله بابن هشام، وما أصفاه به من مواهب، ولم يشهد له ولم يشد به على حين أنه - كما جاء فى ترجمته - كان عنده تعظيم للطلبة الأذكياء، وله إقبال عليهم، وأثر عنه أنه كان يفخر بالبخل كما يفخر الناس بالكرم.

ومن تلاميذه الذين ظفروا بتقديره، وانتزعوا منه الإعجاب، العلامة ابن عقيل إذ كان سخياً متلاقاً، يعرف من أين تؤكل الكتف، فكان أبو حيان يطريه، ويقول فيه: «ابن عقيل أسخى النحويين» وهذه شهادة لا تحفظ ابن هشام، ولكن الذى لا يحتمل أن يبالغ الرجل، فيقول: «ما تحت أديم السماء أنحى من ابن عقيل»^(٢) أفترى هذا القول مقبولاً منه، أم مردوداً عليه، وراداً لشهادته، وداعياً إلى القيل والقال فى حقه، على فضله، وقديماً قيل:

ومن دعوا الناس إلى ذمه

ذمّوه بالحق وبالباطل

ولكن حاش لله أن يكون ابن هشام قد ذمه، أو نفس عليه وبخسه علمه، ولكن أبا حيان أَلَفَ ومن أَلَفَ فقد استهدف، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وابن هشام لم يطب له المقام بين يدي أبى حيان وفى حلقة بعد أن سمع منه ديوان زهير، وأجمع المؤرخون على أنه لم يلزمه ولا قرأ عليه غيره.

ثم أعرنى سمعك وأصنع إلى قلبك، وخبرنى عن مغزى قول أبى حيان:

(١) بغية الرعاة ص ٢٢٣ .

(٢) البدر الطالع ص ٢ : ٢٦٧ .

يظنّ الفمّر أن الكتب تهدي
 أخـا ذهن لأدراك العلوم
 وما يدري الجهول بأنّ فيها
 غوامض حيرت عقل الفهيم
 إذا رُمّت العلوم بغير شيخ
 ضللت عن الطريق المستقيم
 وتلبس الأمور عليك حتى
 تصير أضلّ من توما الحكيم^(١)

أتراه يعرض بمثل ابن هشام الذي اشتهر بفرط الاطلاع، وكاد يستقل بتكوين نفسه، أم ماذا يريد!

ثم إن ابن هشام محقق، والحق أحب إليه من غيره، ويعنيه ألا يؤخذ كلام أبي حيان لشهرته حجة مسلمة، فليس غريباً إذن أن يتناول آراءه بالنقد وأقواله بالرد، ما دامت عن القوة أو الصواب بمعزل، وسيأتى عرض كثير من آرائه، ودفع ابن هشام لها، وتبيان خطئها، على وجه لا يخفى على أحد مما جعل العلماء يحكمون لابن هشام، وينحازون إلى جانبه في كثير.

الكتب التي تأثر بها ابن هشام

إذا علمنا أن ابن هشام امتاز بالاطلاع الواسع، والتحقيق البارع، ومؤلفاته ولاسيما «المغنى» مرآة انعكست فيها صور الكتب التي طالعها، ساغ لنا أن نقول: إن الرجل لم يدع كتاباً في عهده وصلت إليه يده، من كتب القدامى والمحدثين إلا استوعبه بحثاً وتمحيصاً، ناهيك بمؤلفات رجالات الأندلس الذين جلوا من بلادهم بين يدي الفتن التي جلجلتهم، وأوضعت خلالهم، فوجدوا في مصر حرماً آمناً من بغى نصارى الأندلس عليهم، وتنكيلهم بهم، وقد حدا حذوهم وإن تأخر في الزمن عنهم علماء الشام حينما لاح لهم شبح التار.

أفادت اللغة العربية عامة والنحو خاصة من هؤلاء وأولئك، وكانت مؤلفاتهم مناهل الناشئين، إليها يردون، ومنها يمتحون، وعلى منوالها ينسجون، وكان ابن هشام فتى مصر في هذا العصر، جم النشاط، مشتعل الذكاء، جذع

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٧ : ٣٥ .

الإقدام، قارح البصيرة، مُعَوَّلًا إلى حد ما على نفسه، معتمدًا عليها في بحثه؛ يدل على هذا اقتصاده في عدد الشيوخ الذين تخيرهم وتلمذ عليهم، ولم يكن لحطام الدنيا سلطان عليه، فلا ريب أن يهب نفسه للعلم يدرسه في كتب السابقين.

ولقد كان لمدرسة ابن مالك المثلة في مؤلفاته تأثير فيه وتوجيه له، فيما اختطه لنفسه وسار عليه، شأنه في ذلك شأن قرينه ابن عقيل.

وكان لأبي حيان معلم الزمان ومعلمهما في هذا الأوان فضل الإشادة بمؤلفات ابن مالك، فهو أول من تعصب لها ونوه بها ودعا إليها، وحببها إلى قلوب الباحثين، وزينها في عيون الناظرين.

قال السيوطي: «وهو الذي جسر الناس على مؤلفات ابن مالك ورغبهم في قراءتها، وشرح لهم غامضها، وخاض بهم لججها»^(١).

ومدرسة ابن الحاجب لا تقل تأثيرا عن مدرسة ابن مالك في ابن هشام بل لعله بها آنس، واليها أقرب.

وإن الإنسان ليسائل نفسه عن السر في أن يغفل ابن هشام إمامًا له في النحو رفيع المقام، ذلك هو الإمام الرضى، وشرحاه على الكافية والشافية لابن الحاجب كفاء وشفاء، مع قرب بينهما سمح للرضى أن يشرح مؤلفات ابن الحاجب.

فكيف لا يسمح باطلاع ابن هشام على ما جاش به صدر الرضى من تحقيق وما وصل إليه من تجديد.

أغلب الظن أن ما كتبه الرضى لم يصل إلى يد ابن هشام، حينما ألف ما بأيدينا من كتب، وقد يكون اطلع عليهما وأفاد منهما وأشاد بهما فيما لم يصل إلينا من مؤلفاته.

وإن كنت أرجح أنه لم يرهما أبدًا، يؤيد هذا أن الرضى فرغ من شرح «الكافية» في شوال سنة ٦٨٦ هجرية، على حين أن ابن الحاجب مؤلف الكافية توفي سنة ٦٤٦ هجرية، وطبعي أن يسبق تأليفه «الكافية» وفاته بزمان غير قصير؛ لأنه بعد أن أتم «الكافية» تداولها الناس، ثم شرحها، ثم نظم الكافية، وسمى نظمها «الرواية»، ثم شرحها، وله «الشافية» وشرحها، على ما في نسبة الأخير إليه من مقال.

(١) بنية الوعاة ص ١٢١.

وكلام الله وما صح من حديث مصطفاه ﷺ هما نعم الظهير وأكبر نصير على النبوغ لمن رام تثبيت القواعد، ونشد حسن العبارة، وجودة السليقة، أثر عن حفيد ابن هشام أنه قال:

«لما تمهرة فى العربية بقراءة البخارى وتنزلى ما أقرأه على الاصطلاح»^(١).
وقيل لابن هشام يوماً: هلا فسرت القرآن، أو أعربت؟ فقال: «أغنانى المغنى»
أرأيت تورية أبلغ من هذه التورية؟!!

وعبارة ابن هشام تدل على تمكنه من القراءات، وعلى رسوخ قدمه فى فهم أى الذكر الحكيم، وأنه لو أراد أن يفرد لكل منهما مؤلفات لواتاه استعداداً، وأسعفه اطلاعه، ولكن «المغنى» جمع فأوعى.

أما مكانة الرجل فى الفقه فتفصح عنها المجالس النحوية التى كان يغشاها والتى كانت تفيض بالألغاز الفقهية فى ألفاظ الطلاق، والتعليق.

وفى «الأشباه والنظائر» للسيوطى من ذلك شئ كثير، ولابن هشام فيه نصيب كبير، ولقد كان شافعى المذهب جل حياته، ثم صار حنبلياً، وفى عمره بقية لينال منصب التدريس فى المدرسة الحنبلية^(٢).

ولو أتيج لابن هشام أن يؤلف فى الفقه لآتى فيه بالعجب العجائب، ولأعانة نبوغه فى النحو على المهارة فى الفقه، ألا ترى إلى الكسائى حينما سئل عن حكم السهو فى سجود السهو: أيجبر بالسجود؟ فقال: لا، فقل له: لماذا، فقال: لأن المصغر لا يصغر، فقد اشتق الجواب من الصرف، وجاء بقياس هدى إليه العقل، ولا يتأباه النقل، فإذا كان هذا الجواب قد صدر من الصرفى الصرف، فما بال ما يصدر من صرفى ونجوى، درس الفقهاء، وفقه المذهبين، ثم هو إلى ذلك ذو لسان قوأل، وقلم سيال، أزمة البيان رهن لسانه، وأعنة الكلام طوع بنانه، إنه يكون شافياً وافياً.

ولا غرو فالرجل أديب ممتاز، غذاؤه الأدبى ديوان الحكيم العربى «زهير بن أبى سلمى» صاحب الحوليات، تلقاه ووعاه عن الأديب المطبوع أبى حيان، وقد أكسبه ذلك أسلوباً أدبياً رائعاً، يتجلى فى خطب كتبه، حيث صاغها فى أسلوب رقيق الحواشى، حسن الرواء، كالدر المنشور، والروض الممطور، يبدو فيه الطابع الصحيح، والبيان الفصيح.

أما شرحه: لـ «بانت سعاد» فتغلب عليه مسحة النحو واللغة وأبنية التصريف.

(١) الضوء اللامع ٥ : ٥٦ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية.

أشهر معاصريه من العلماء

عاصر ابن هشام جماعة من كبار العلماء، لكنهم كانوا معه كالكواكب مع الشمس «إذا ظهرت لم يبد منهن كوكب». وسأذكر بعضهم على ترتيب وفاتهم.

١ - «ابن قدامة المقدسى» وهو محمد بن أحمد بن عبد الهادى بن عبد الحميد بن عبد الهادى بن يوسف بن محمد الحنبلى شمس الدين. قال الذهبى: الفقيه البارع المقرئ المجرد النحوى المحدث، الحافظ الحاذق ذو الفنون.

وقال ابن حجر: أحد الأذكياء، ولد فى رجب «سنة خمس وسبعمائة هجرية» صنف شرحاً على التسهيل، فى مجلدين وله كتب أخرى. توفى سنة ٧٤٤ هجرية^(١).

٢ - «الشيخ فخر الدين الجاربردى» وهو أحمد بن الحسن الذى شرح شافية ابن الحاجب، وله «المغنى» فى النحو توفى «سنة ٧٤٦ هجرية»^(٢).

٣ - «المرادى» وهو الحسن بن قاسم بن عبد الله بن على المرادى المصرى اللغوى الفقيه البارع بدر الدين المعروف بابن أم قاسم، وهى جدته أم أبيه، واسمها زهراء، وكانت أول ما جاءت من العرب تعرف بالشيخة، فكانت شهرته تابعة لشهرتها، مات يوم عيد الفطر «سنة ٧٤٩ هجرية»^(٣).

٤ - «ابن الفخار» وهو محمد بن على بن أحمد الخولانى أبو عبد الله النحوى، قال فى تاريخ غرناطة: أستاذ الجماعة، وعلم الصناعة، وسيبويه العصر، يتفجر بالعربية تفجر البحر، ويترسل استرسال القطر، توفى بغرناطة «سنة ٧٥٤ هجرية»^(٤).

٥ - «النشابى» وهو محمد بن أحمد بن مكى صدر الدين الحنفى، ولد «سنة تسع عشرة وسبعمائة هجرية»، وبرع فى الفقه والأصول والنحو، وشارك فى الحديث، توفى بالقاهرة «سنة ٧٦٠ هجرية»^(٥).

(١) بغية الوعاة ص ١٢ .

(٢) بغية الوعاة ص ١٣ .

(٣) بغية الوعاة ص ٧٤٦ .

(٤) بغية الوعاة ص ٧٤ .

(٥) بغية الوعاة ص ٢١ .

٦ - «بهاء الدين بن عقيل» وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عقيل القرشى الهاشمى العقيلى الهمدانى الأصل، ثم المصرى، قاضى القضاة، الشافعى، نحوى الديار المصرية، قال الصفدى وابن حجر: ولد يوم الجمعة تساع محرم «سنة ٦٩٨ هجرية»، وناب فى الحكم عن العز ابن جماعة بالقاهرة، ودرس بـ «القطبية» و«الحشائية» والجامع الناصرى بالقلعة، وتوفى «سنة ٧٦٩ هجرية» (١).

٧ - «الأسنوى» وهو أبو محمد عبد الرحيم جمال الدين بن الحسن بن على بن عمر بن على بن إبراهيم القرشى الأموى، المصرى الشافعى، الإمام العلامة ولد بأسنا فى رجب «سنة ٧٠٤ هجرية»، وقدم القاهرة «سنة ٧٢١ هجرية»، وهو فقيه أصولى نحوى مشهور، توفى «سنة ٧٧٢ هجرية» (٢).

٨ - «ابن الصائغ» وهو محمد بن عبد الرحمن بن على بن أبى الحسن الزمردى الشيخ شمس الدين الحنفى النحوى، قال ابن حجر: ولد قبل سنة عشر وسبعمائة، واشتغل بالعلم وبرع فى اللغة والنحو والفقه، وأخذ عن الشهاب ابن المرحل وأبى حيان وغيرهم، وله عدة تصانيف، منها حاشيته على مغنى ابن هشام وصل فيها إلى حرف الباء، مات «سنة ٧٧٦ هجرية» (٣).

٩ - «أبو البقاء السبكى» وهو محمد بن عبد البر بن يحيى بن على بن تمام بهاء الدين الفقيه الشافعى النحوى المتفنن شيخ الإسلام وبهاؤه، كان حجة فى التفسير، واللغة، والنحو، والأدب، انتقل إلى دمشق وناب عن قريبه الشيخ تقى الدين فى الحكم، ثم وليه استقلالاً بعد صرف ابنه تاج الدين صاحب الطبقات، ثم ولى قضاء طرابلس، ثم رجع إلى القاهرة فولى قضاء العسكر ووكالة بيت المال، والقضاء الكبير بعد ابن جماعة، ولد «سنة ٧٠٨ هجرية»، وتوفى «سنة ٧٧٧ هجرية» (٤).

١٠ - «الأعمى والبصير» أما الأعمى: فهو محمد بن أحمد بن على بن جابر الأندلسى الهوارى المالكى النحوى، ولد «سنة ٦٩٨ هجرية»، وقرأ القرآن والنحو على ابن يعيش، ثم رحل إلى مصر ومعه البصير، وهو أحمد بن يوسف الرعينى، فكان الأعمى يؤلف وينظم والرعينى يكتب، ولم يزل هكذا على

(١) بغية الوعاة ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٢) بغية الوعاة ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٣) بغية الوعاة ص ٦٥.

(٤) بغية الوعاة ص ٦٣ - ٦٤.

طول عمرهما، وسمعا بمصر من أبي حيان، ودخلا الشام وسمعا الحديث من المزدي والجزري، ولهما مؤلفات مشهورة، مات البصير «سنة ٧٧٩ هجرية»، ومات الأعمى «سنة ٧٨٠ هجرية» (١).

أشهر تلاميذ ابن هشام

١ - «التباني» وهو جلال بن أحمد بن يوسف المعروف بالتباني لنزوله بالتبانة، أخذ العربية عن ابن هشام، وابن عقيل، وابن أم قاسم، توفي «سنة ٧٩٣ هجرية» (٢).

٢ - «الدمشقي» وهو محمد بن نصر الله بدر الدين الدمشقي النحوي، قال ابن حجر: لزم الجمال ابن هشام، ومهر في العربية، توفي في رمضان «سنة ٧٩٤ هجرية» (٣).

٣ - «اللخمي» وهو إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن يحيى بن أحمد اللخمي الشافعي الشيخ جمال الدين.

قال ابن حجر ولد «سنة ٧١٥ هجرية» وأخذ العربية عن ابن هشام النحوي الحنبلي، وتوفي «سنة ٧٩٦ هجرية» (٤).

٤ - «الدجوي» وهو إبراهيم بن محمد بن عثمان بن إسحاق الدجوي المصري النحوي، قال ابن حجر: أخذ عن الشهاب بن المرحل والجمال ابن هشام وغيرهما، ومهر في العربية، عمر، وتوفي «سنة ٨٣٠ هجرية» (٥).

٥ - «مجد الدين البليسي» وهو محمد بن محمد بن إبراهيم البليسي، إسكندراني الأصل، أخذ عن ابن هشام (٦).

٦ - «النويري» وهو محمد بن أحمد بن عبد العزيز جمال الدين أبو الفضل النويري، نسبة إلى نويرة من أعمال القاهرة، الشافعي المكي، كان ينسب إلى عقيل بن أبي طالب. أخذ العربية عن الجمال بن هشام (٧).

(١) بغية الرعاة ص ١٤ .

(٢) بغية الرعاة ص ٢١٣ .

(٣) بغية الرعاة ص ١٠٩ .

(٤) بغية الرعاة ص ١٨٧ .

(٥) بغية الرعاة ص ١٨٧ .

(٦) شذرات الذهب ٦ : ٢٦٢ .

(٧) شذرات الذهب ٦ : ٢٩٢ .

- ٧ - «جلال الدين بن طوع» وهو أحمد بن يوسف بن طوع التبانى الحنفى، قدم القاهرة فى آخر دولة الناصر، وتلمذ لابن هشام وابن عقيل^(١).
- ٨ - «ابن الفرات المالكى» وهو عبد الخالق بن على بن الحسين بن الفرات المالكى، جاء فى «شذرات الذهب»: أنه حمل عن الشيخ جمال الدين بن هشام^(٢).
- ٩ - «ابن الملقن» وهو عمر بن على بن أحمد بن عبد الله السراج الأنصارى الأندلسى المصرى المشهور بابن الملقن، قال العلامة القاضى الشوكانى: بلغت تصانيفه ثلاثمائة مجلد، أخذ فى العربية عن أبى حيان وابن هشام^(٣).
- ١٠ - «السبكى» وهو محمد بن أحمد بن على بن عبد الكافى السبكى ابن شيخ الإسلام بهاء الدين شقيق تاج الدين عبد الوهاب السبكى صاحب طبقات الشافعية الكبرى^(٤).
- هذا وقد تلمذ على ابن هشام كثير غير هؤلاء منهم ابنه محمد مجد الدين كما جاء فى «شذرات الذهب»^(٥).

(١) شذرات الذهب ٦ : ٣٢٧

(٢) شذرات الذهب ٦ : ٣٣٣ .

(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ص ٥٠٨ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٥ : ٣٣٦

(٥) شذرات الذهب ٦ : ٣٦١

انجازات ابن هشام

سبق القول أن ابن هشام استقبلته مدرستان نحويان: إحداهما: مدرسة ابن الحاجب «٥٧٠ أو ٥٧١ - ٦٤٦ هجرية». والأخرى: مدرسة ابن مالك «٦٠٠ - ٦٧٢ هجرية».

أما مدرسة ابن الحاجب: فكان اعتمادها على الفلسفة والمنطق، وكان عميدها من أذكى العالم، بارعاً في الأصول والعربية، وكان الأغلب عليه النحو، ولحذقه في فنه خالف النحاة في مواضع، وأورد عليهم إشكالات وإلزامات مفحمة يعسر الجواب عنها، وهو فقيه مالكي، أصولي، مقرئ بالسبع، أخذ عن الشاطبي وغيره، فهو لذلك بالبصريين أشبه، ومدرسته إلى مدرستهم أقرب، وتصانيفه منقحة.

قال ابن خلكان: «كان أحسن خلق الله ذهنًا، وجاءني مرارًا بسبب أداء شهادات، وسألته عن مواضع في العربية مشكلة فأجاب أبلغ جواب، بسكون كثير، وثبت تام»^(١).

وأما مدرسة ابن مالك: فقد كاد يكون تعويلها على مجرد الرواية، وكان عميدها إماماً في القراءات وتعليلها، وكان أمةً في الاطلاع على الحديث. وأما أشعار العرب التي يستشهد بها على اللغة والنحو فكان الأئمة الأعلام يتحIRON منه ويتعجبون من أين يأتي بها، وكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريب اللغة، والاطلاع على وحشيتها.

فإذا رجعنا لحكم أبي حيان عليه، وهو ما سبقت الإشارة إليه بأنه «كان لا يحتمل المباحثة ولا يثبت للمناقشة» ساغ لنا أن نقول إن مدرسة ابن مالك أقرب شبهاً بمدرسة الكوفيين، وكان إلى ذلك شافعي المذهب.

وقد قال عن الشيخ جمال الدين ابن الحاجب: إنه أخذ نحوه عن صاحب «المفصل» وصاحب «المفصل» نحوي صغير^(٢).

وكانت مصر في عهد المدرستين قبلة أنظار العلماء ومحط رحالهم، عاذ بها المشاركة راهبين، كما هبطها ووفد عليها المغاربة من قبل راغبين، ولكل وجهة هو موليا وجهه في النحو.

(١) بغية الوعاة ص ٣٢٣.

(٢) بغية الوعاة ص ٢٥.

أما المشاركة: الذين أعجلهم التتار على الفرار فكان على نحوهم مسحة المذهب البغدادى الذى انفرط عقده، ولم يتقلص ظله.

وأما طلائع الأندلسيين: فقد دلفوا إلى مصر قبل حوادثهم بسنين وبعد نضجهم فى بلادهم «والنحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة حتى إنهم فى هذا العصر - وهو القرن السابع - كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكنًا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتميز، ولا سالم من الازدراء» (١).

وعلى كثر الأيام كثرت مسائل مذهب المغاربة الجديد، وذاعت قواعده، وامتدت حياته، حتى أخذ عنهم المشاركة بعدما ضعف شأنهم، إذ قد نزع كثير من المغاربة إلى المشرق إما للحج، أو للإقامة، ودرسوا فى مساجده ومدارسه ومعهم مؤلفاتهم، كابن خروف المتوفى «سنة ٦٠٣ هجرية» وغيره.

وبعد نكبة بغداد وانقطاع مدد العراق إلى القطرين: «مصر والشام» كثر تدفق المغاربة إليها، كالأندلسى الذى ورد مصر ثم دمشق وتوفى «سنة ٦٦١ هجرية»؛ فنحوا القطرين نفحة طيبة سجلها التاريخ.

ولما كانت جالية الأندلس أسبق من جالية المشاركة إلى مصر فقد تشبع العلماء من روح المغاربة وتغلب المذهب الأندلسى على المذهب البغدادى، وتغلغل فى الدراسة والتصنيف.

فهل كان ابن هشام كوفى النزعة يركض فى أعقاب الكسائى ويردد معه:

إِنَّمَا النُّحْوُ قِيَاسٌ يُتَّبَعُ

وَبِهِ فِى كُلِّ أَمْرٍ يُنْتَفَعُ

ويركن إلى التساهل فى الروايات التى قد تكون منحولة، أو شاذة، أو تحصل الوهن والضعف، أم كانت عباراته فى مؤلفاته تحمل مصطلحات القوم العلمية كما نمت عبارات ابن أجروم عن مذهبه فى مقدمته؟!

قال السيوطى: «وهنا شيء آخر، وهو أنا استفدنا من مقدمته أنه كان على مذهب الكوفيين فى النحو؛ لأنه عبر بالخفض، وهو عبارتهم، وقال: الأمر مجزوم وهو ظاهر فى أنه معرب، وهو رأيهم، وذكر فى الجوارم «كيفما» والجزم

(١) من نفع الطيب للمقرئ ١ : ١٠٣ .

بها رأيهم، وأنكره البصريون، فتفطن، وكانت وفاته «سنة ٧٢٣ هجرية» (١).
 كلا لم يكن ابن هشام هذا الذى يعول على القياس المطلق الذى يتردد سنده
 بين الشاهد الواحد ممثلاً فى بيت، أو نصفه، ولو لشاعر مجهول مثل:

* ولكننى من حبها لعميد (٢) *

وبين الشواهد المستفيضة التى تحمل الدَّخَنَ والوهن والشاذ والمنحول، فهو إذن
 ليس كوفياً قحاً، ولا متشبهاً بأستار الكوفيين فى مصطلحاتهم، ولا مقتفياً أثر من
 أوشك أن يترسم خطاهم كابن مالك الذى كان بحراً لا يجارى فى الشواهد،
 وحبراً لا يبارى فى المرويات.

وإذا لم يكن للكوفيين من التابعين، فهل كان ينزع فى قوس البصريين
 المحافظين الذين كانوا يتزمتون ويتشددون ويرفضون الشاهد؟ إلا إذا ألفوا له
 نظائر متواترة، أو كان التأويل يدخله فى القواعد التى قطع بصحتها أكثر من
 دليل، ولذلك اتسع بساط الضرورة وامتد سباط الشاذ لدى البصريين.

لا، ما كان ابن هشام ضيق العطن جامد القريحة محدود الأفق يقف مغلول
 اليدين بسلاسل البصريين، رهن دائرة ضيقة لا يروم فيها شططا، ولا يبغى عنها
 حولا، بل كان خصب التفكير، حر الضمير، تحامى أسر البصريين، وجانب
 إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، فما كان معهم ضربة لأرب، بل له فى
 مؤلفاته سجاجة تفكير، ورجاحة تقدير، مما سأذكره بعد.

بقى المذهب البغدادى، وهو فى عمومه ملفق من المذهبيين، وإن كان تارة
 يجنح إلى مذهب البصريين، وطورا يسأرر إلى مذهب الكوفيين، وحيث لا إلى
 هؤلاء ولا إلى هؤلاء وإنما يستقل بقواعد هدى إليها استنباط البغداديين.

وبعرض هذا المذهب على ابن هشام، نراه قد صدف عنه، ومن قواعد
 البغداديين التى رفضها ورد عليها تجويزهم اتباع محل المعطوف عليه مع عدم
 أصالته.

قال ابن هشام: فى باب العطف على المحل بعد أن ذكر الشرط الأول لصحة
 العطف عليه من كتابه «المغنى».

الثانى: أن يكون الموضع بحق الأصالة، فلا يجوز هذا ضارب زيدا وأخيه؛
 لأن الوصف المستوفى لشروط العمل الأصل إعماله لا إضافته لالتحاقه بالفعل،

(١) بغية الوعاة ص ١٠٢٣ .

(٢) صدره: يلوموتى فى حب ليلى عواذ لى.

وأجازه البغداديون، وستأتي أمثلة أخرى ذكر فيها آراء القوم، ثم كرّ عليها ودفعها.

فلم يبق أمام الباحث إلا مدرسة الأندلسيين النارحين إلى مصر، ولقد سبق القول أن مدرسة ابن مالك - وهو منهم - أشبه بمدرسة الكوفيين، أما أبو حيان فبينه وبين ابن هشام ما بين الضب والنون.

وغير هذين الإمامين ممن هبطوا مصر لم يكونوا له قدوة ولم تكن له فيهم أسوة، ألا تراه يحكى أقوالهم، ثم لا يبدو عليه ما يقطع بأنه قد أطمأن إليهم، وقد ذكر في «المغنى» في باب التعليق من الجمل التي لها محل من الإعراب قولاً لهم، ثم عارضه قول غيرهم، وإليك عبارته:

قال جماعة من المغاربة: إذا قلت علمت ريذاً لأبوه قائم، أو ما أبوه قائم فالعامل معلق عن الجملة، وهو عامل في محلها النصب على أنه مفعول ثان، وخالف في ذلك بعضهم؛ لأن الجملة حكمها في مثل هذا أن تكون في موضع نصب، وألا يؤثر العامل في لفظها وإن لم يوجد، نحو: علمت ريذاً أبوه قائم. وهنالك رأى لابن خلدون أرى من الأمانة أن أذكره، ولدى تعقيب عليه:

قال: «وكان ينحو في طريقته منحة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه^(١)».

ولقد هممت بادئ الأمر بدراسة طريقة أهل الموصل، وهم من العراق بمكان قصي إذ ربما تكون لهم مدرسة مستقلة، ولكن ابن خلدون حكى أنهم اقتفوا أثر ابن جني فكفاني مؤنة السعي إليهم والبحث في نحوهم ما دام ابن جني مثلهم الأعلى، الذي كانوا إليه يهدفون، وعلى آثاره يقتدون، فنحو ابن جني وطريقته في البحث تلقى ضوءاً على نحوهم وطريقتهم، وعلى نحو ابن هشام وطريقته واتجاهه إذا صح أنه أتبعهم ونحا نحوهم.

وبأيدينا كتاب «الخصائص»، وهو يمثل نحو أبي الفتح ويرى شرعته ومنهاجه ولقد رجعت إليه، ولم أكتف بدراستي فيه من قبل فألفيته كتاباً قيماً، ومؤلفاً نفيساً، لصاحبه فيه جولات، هو موفق فيها كل التوفيق، ومواقف تنم عن البحث الحر وسلامة الفكر، وحسن العرض، وأصالة الرأي، ودقة التحقيق، والحجة البالغة.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٣ .

فإذا كان هذا هو ما يريده ابن خلدون ويرمى إليه فإننى أوافقه فيه وأقره عليه وأرتضيه رأياً وقرّ فى نفسى من أمد بعيد؛ لأننى وجدت بين الرجلين شبهة قوياً فى تجلية الحقائق العلمية وبحثها بحثاً ينير السبيل، ويشفى الغليل، ودعمها بما صبح من النقل وبما هدى إليه العقل.

ولكن ابن جنى له فى «الخصائص» نهج آخر يغاير ما سار عليه ابن هشام فى مؤلفاته التى بأيدينا، فإنه فيها - ما عدا المغنى - نحوى خالص يتحدث عن النحو الصرف فى موطنه، أما الصرف فإنه قد نحاه إلى محله وتحدث عنه مستقلاً فى مواضعه.

وهو فى «المغنى» محقق للبناء والبنية على وجه لا أراه قريباً عما توخاه ابن جنى فى «الخصائص» إذ جعل ابن جنى كتابه مزيجاً من النحو والصرف، والأدب واللغة، فبينما يستهل كلامه بالتحقيق اللغوى إذا هو يقصد إلى الصرف ويوغل فى بحث الأبنية، ثم يسلمك إلى البحث النحوى، ثم يأخذك بسحر بيانه فتلقى نفسك على الصراط المستقيم بين البصريين والكوفيين.

وقصارى القول أن كتاب «الخصائص» بفقه اللغة أشبه وإليه أقرب، أما كتب ابن هشام فإنه قد اتجه فيها إلى النحو اتجاهاً كلياً دون أن يتناول فيها سواء من مسائل الصرف التى أفرد لها أبواباً خاصة بها وقاصرة عليها كما فعل فى «أوضح المسالك»، وما جاء من بحث فى البنية أثناء الكلام على النحو إنما هو استطراد مست إلى الحاجة.

والذى أراه أن ابن هشام كان عبقرياً ألمعياً ماهراً موهوباً، وأنه شغف بدراسة العلوم العربية أيما شغف فعكف على تحصيلها ودأب على تفهمها حتى تطامن له مركبها، وصفا مشربها، فعل من أمثال العرب ونهل من شواهد أشعارهم حتى امتلأ فهمًا لأساليبهم، وفقهاً لتراكيبهم، وصارت له ملكة تامة وذوق سليم يدرك به كلام العرب كأنه نشأ بينهم، أو شافهم.

ثم كان للنحو من باحث فيه، منقب فى نواحيه، مستوعب لمذاهبه، متبّع له فى كل مكان انحار إليه، أو طور كان له تأثير فيه.

ثم هو بعد ذلك مستقل الرأى لا يتزع إلا عن قوسه، ولا يتبع أحداً فى رأيه، ويخطئ من يقول: إنه بصرى صرف خطأ من يزعم أنه كوفى قح.

وليست مدرسة البغداديين، أو رصيفتها عند المغاربة والأندلسيين بأسعد حظاً لدى ابن هشام من مدرستى البصريين والكوفيين، بل هو تجاه تلك المدارس

المختلفة المشارب المتباينة المذاهب، كأنه تتلمذ فيها، ودرت عليه أخلاقها، فلما، استحکم منه الفتل، وصار في عداد البزل، عاد إليها أستاذًا بها فمفتشًا عليها وقد أحاط بما لديها، وأحصى كل شيء فيها، ثم صحت عزيمته على أن يخرج للناس صورًا مما انطبع في ذهنه بعد طول تجاربه، فجاءت كتبه تحمل آراءه وتبين أنه عالم ضليع يقول فصلاً، وقاض نزيه يحكم عدلاً، ومعلم ألمع يحكى أقوال السابقين، فما رآه منها حسناً أقره وأطراه، وما ألفاه قد جانف جادة الصواب ريفه ونفاه.

ثم لا يعجز أن يطل على الباحثين برأى طريف لم يسبق إليه يتوج به الكلام ويجعله مسلك الختام، وهذا طابع المجددين، وطالع سعد المجتهدين، هدم وبناء، وإماتة وإحياء.

أما الهدم والإماتة: فللضعيف الوهنان، وأما الإحياء والبناء: فللذي الدليل والبرهان: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ [الرعد: ١٧].

فابن هشام صاحب مدرسة حديثة، يباهى بها المتأخرون مدارس السابقين الأولين؛ لأنه قد استدرك عليهم، وأتى بشيء عجيب لم تصل إليه قدرهم. «وكم ترك الأول للأخر؟» فهو إذن من المجتهدين، ولدينا مزيد يذكر عند الكلام على مدى ما أفاد النحو من ابن هشام.

الفصل الرابع

مؤلفات ابن هشام

لقد كان ابن هشام مباركاً أينما كان، فهو وإن لم يُنسأ فى أجله، قد بُورك له فى عمره، وليس أدل على ذلك من أنه عاش ثلاثاً وخمسين سنة، وأخرج لقراء العربية مؤلفات لا تقل فى بابها نضجاً عن الحوليات.

فإذا كان قد أدرك واستوى فى سن الثالثة والعشرين، فإنه يكون قد نفع الناطقين بالضاد فى كل عام بكتاب، مما وصل إليه العلم، دون ما طواه الزمن. وإنى مورد هنا ما وقع فى يديّ وما رأيته مذكوراً فى مؤلفاته وفى بطون الفهارس والتراجم مرتباً على حسب حروف المعجم وهى:

١ - «الإعراب عن قواعد الأعراب»، وهو كتيب صغير فى الحجم، غزير فى العلم، يشبه فى الإيجاز مقدمة «ابن أجروم» وقد قسمه إلى أربعة أبواب:

الباب الأول: فى الجملة وأحكامها.

الباب الثانى: فى الجار والمجرور.

الباب الثالث: فى تفسير كلمات يحتاج إليها العرب، وهى عشرون كلمة على ثمانية أنواع:

النوع الأول: ما جاء على وجه واحد، وهو قط، وعوض، وأجل، وبلى.

النوع الثانى: ما جاء على وجهين، وهو «إذا» فتارة يقال: فيها إنها ظرف مستقبل خافض لشرطه منصوب بجوابه، وتارة يقال فيها: حرف مفاجأة.

النوع الثالث: ما جاء على ثلاثة أوجه، وهى سبع:

أحدها: «إذا» فتارة تكون ظرف زمان، وتارة تكون حرف مفاجأة، وتارة تكون تعليلاً.

الثانية: لما.

الثالثة: نعم.

الرابعة: أى.

الخامسة: حتى.

السادسة: كلا.

السابعة: لا.

النوع الرابع: ما يأتى على أربعة أوجه: وهو أربعة: لولا، وأن، وإن، ومن الشرطية.

النوع الخامس: ما يأتى على خمسة أوجه، وهو: أى، ولو.

النوع السادس: ما يأتى على سبعة أوجه، وهو «قد».

النوع السابع: ما يأتى على ثمانية أوجه، وهو الواو.

النوع الثامن: ما يأتى على اثني عشر وجهًا، وهو «ما».

الباب الرابع: فى الإشارة إلى أمور محررة مستوفاة موجزة:

بداها بقوله: ينبغى أن تقول فى نحو ضُربَ، من «ضرب زيد» إنه فعل ماض لم يسم فاعله، ولا تقل مبنى لما لم يسم فاعله، لما فيه من التطويل والخفاء، وأن تقول فى نحو زيد نائب عن الفاعل، ولا تقل مفعول ما لم يسم فاعله لخفائه وطوله وصدقه على نحو درهما «من أعطى زيد درهما».

ثم قال: واعلم أنه يعاب على الناشئ فى صناعة الإعراب أن يذكر فعلا ولا يبحث عن فاعله، أو مبتدأ ولا يتفحص عن خبره، أو ظرفًا، أو مجرورًا ولا ينبه على متعلقه.

وهذا الكتيب على ضغطه حافل بالشواهد من آى الذكر الحكيم وجيد الشعر القديم ولقد كان بحق نواة لكتابه «المغنى» كما قال المترجم له عنه، ولقد طبع، وترجم إلى الفرنسية، وللشيخ خالد الأزهرى شرح عليه.

٢ - «الألغاز»، وهو كتاب فى مسائل نحوية، يشتمل على النكت الأدبية والألغاز النحوية، ألفه لخزانة السلطان الكامل، وهو مطبوع.

٣ - «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك»، وقد شرحه الشيخ خالد الأزهرى وسمى شرحه: «التصريح بمضمون التوضيح» كما شرحه الشيخ أبو بكر الوفائى، وعليه حواشى كثيرة اشتهر من بينها:

حاشية «يس»، وحاشية السيوطى وسمّاها «التوشيح»، وحاشية عز الدين محمد بن شرف الدين أبى بكر بن جماعة المتوفى سنة ٨١٩ هجرية، وحاشية جمال الدين أحمد بن عبد الله بن هشام النحوى المتوفى سنة ٨٣٥ هجرية،

وحاشية بدر الدين محمود بن أحمد العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هجرية، وحاشية برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن الكركى المتوفى حدود سنة ٨٩٠ هجرية، وحاشية محبى الدين عبد القادر بن أبى القاسم السعدى المالكى والمكى المتوفى سنة ٨٨٠ هجرية سماه: «رفع الستور والأرائك عن مخبآت أوضح المسالك»، وحاشية سيف الدين محمد بن محمد البكرى المتوفى فى حدود سنة ٨٧٠ هجرية، وحاشية الشيخ محمد بن إبراهيم بن أبى الصفا من تلامذة ابن الهمام، وحاشية الشنوانى.

ونظم التوضيح: القاضى شهاب الدين محمد بن أحمد الخولى، ولابن الحاج أبى عبد الله محمد بن حمدون المسلمى المرداسى حاشية على نظمه لأوضح المسالك.

وأوضح المسالك له كلام سياتى فى الموازنة بينه وبين وصيفيه «شرح الأشمونى» و «شرح ابن عقيل».

٤ - «التذكرة» نوه بها العلامة السيوطى وقال عنها فى «بغية الوعاة»: إنه كتاب يقع فى خمسة عشر مجلداً، كما نوه بها ابن حجر فى «الدرر».

٥ - «التحصيل والتفصيل لكتاب التذيل والتكميل» ذكره السيوطى وقال: إنه يقع فى عدة مجلدات، وذكره العلامة ابن حجر فى كتاب «الدرر».

٦ - «تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد»، وهو مختصر فى تفسير شواهد شرح الألفية لابن مالك، بين فيه كل شاهد منها مع ذكر القصيدة التى ذكر فيها البيت المستشهد به، وما اشتمل عليه الشاهد المذكور من حكم نحوى، أو شاهد لغوى، وما جاء فيه من حكمة، أو مثل، أو تشبيه، أو نحو ذلك، وبهامشه بعض تقايد، وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية، وفى أوله ثلاث ورقات بها قصائد لبعض شعراء العرب، وفى آخره ما نصه.. انتهى. الموجود من نسخة بخط الإمام بدر الدين الزركشى الشافعى تلميذ المؤلف ابن هشام، ولا يعلم إن كان المؤلف أتم هذا الكتاب أم وقف قلمه إلى هنا «١٨ ش».

٧ - «الجامع الصغير» فى النحو، يوجد فى المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٥٩ (*)

٨ - «الجامع الكبير» نسبه السيوطى إليه، ويفهم من ذكره بعد «الجامع الصغير» أنه فى النحو أيضاً.

٩ - «رسالة صغيرة» في استعمال المنادى في تسع آيات من القرآن، توجد في برلين رقم ٦٨٨٤ .

١٠ - «رفع الخصاصة عن قراء الخلاصة» نسبة السيوطي إليه، وقال: إنه أربعة مجلدات، وجاء مثل ذلك في «الدرر» لابن حجر صفحة ٣٠٩ ج ٢ .

١١ - «الروضة الأدبية» في شواهد علوم العربية، وهو شرح للشواهد الشعرية التي أوردها ابن جنى في كتابه «اللمع» يوجد ببرلين رقم ٧٦٥٢ .

١٢ - «شذور الذهب في معرفة كلام العرب» وأبلغ دليل على قيمته من بين كتبه منحه هذا اللقب، ولكل مسمى من اسمه نصيب.

١٣ - «شرح البردة» ذكره السيوطي، وجاء ذكره في «دائرة المعارف الإسلامية» وقال صاحب «كشف الظنون»: إن ابن هشام من شراح البردة، ولكنى لم أعره عليه رغم طول البحث والسؤال عنه.

١٤ - «شرح شذور الذهب»، وهو شرح جد نافع، لما اشتمل عليه من تحقيق وتحليل، وما جاء فيه من بحث وتعليل، وما امتاز به من إيضاح وتفصيل، فهو كما قال عنه مصنفه في مقدمته.

«فهذا كتاب شرحت به مختصرى المسمى «شذور الذهب» في معرفة كلام العرب تمت به شواهد وجمعت به شوارده، ومكنت من اقتناص أو ابداه رائده، قصدت فيه إلى إيضاح العبارة، لا إلى إخفاء الإشارة، وعمدت فيه إلى لف المباني والأقسام، لا إلى نثر القواعد والأحكام، والتزمت فيه أننى كلما مررت ببيت من شواهد الأصل ذكرت إعرابه، وكلما أتيت على لفظ مستغرب، أردفته بما يزيل استغرابه، وكلما أنهيت مسألة ختمتها بآية تتعلق بها من آى التنزيل، وأتبعها بما تحتاج إليه من إعراب وتفسير وتأويل، وقصدى بذلك تدريب الطالب وتعريفه السلوك إلى أمثال هذا الطالب» (*) .

ولو حاول محاول أن يصور ما حواه الكتاب لما أتى بمثل هذا البيان الخلاب، وقديماً قيل:

اسمعه من قاله تزدد به

حسناً فحسن الورد فى أغصانه

فابن هشام مجدد فى هذا الشرح، وآية تجديده ما أشار إليه وأتى به من

(*) شرح شذور الذهب ص ١١ دار الأنصار.

تفقيته على أثر كل مسألة بآية تتعلق بها من آى التنزيل، وإردافها بما تحتاج إليه من إعراب وتفسير وتأويل، أثم لا تراه قد استبق الباب فيما أتى به من تدريب للطلاب، وهو الطريقة المثلى لتربية الملكة فيهم، وتبسيط النحو أمامهم وسهولة فهمه عليهم، وقد حرص على تلك الطريقة المتأخرون، وعابوا بسبب إغفالها على المتقدمين.

قابن هشام بعد النظر فى كتب معاصريه وسابقيه وخلوها من حلية «شذور الذهب»، هو فى نظرى صاحب هذا النهج ومبدعه، وإن لم يكن مخترعة فهو مجدده وناشره، وفضل الإذاعة والإظهار يدانى فضل الابتكار. ويعجبني فى هذا المقام كلام للعلامة «حبنى بك ناصف»، قاله يهنىء به ناشراً لمخترع.

«ولعل حاسداً يقول: إن هذا عمل منقول وجماعة أوربا سبقت إليه، وعولت فيما تقول عليه، فقل لهذا الأعشى، واصفع قفاه ولا تخشى إن فضيلة النشر فى البقاع، لا تقل عن فضيلة الاختراع».

وابن هشام قد أرسى أصول الأدب فى الإعراب، لجماعة الطلاب إذا تصدوا لشاهد من كتاب الله بالإعراب، وإليك ما قاله فى إعراب قول الله سبحانه: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» [البقرة: ٢٥١].

«لولا» حرف يدل على امتناع الشئ لوجود غيره، تقول: «لولا زيد لأكرمتك» تريد بذلك أن الإكرام امتنع لوجود زيد.

و «دفع» مبتدأ مرفوع بالضممة و «الله» اسم الله مضاف إليه، ولفظه مجرور بالكسرة، ومحلّه مرفوع؛ لأنه فاعل الدفع، و «الناس» مفعول منصوب بالفتحة والناصب له الدفع؛ لأنه مصدر حال محل إن والفعل، وكل مصدر كان كذلك فإنه يعمل عمل الفعل، أى: ولولا أن دفع الله الناس.

و«بعضهم» بدل بعض من كل، وهو منصوب بالفتحة، وخبر المبتدأ محذوف وجوباً، وكذا كل مبتدأ وقع بعد لولا، والتقدير: ولولا دفع الله الناس موجود. والمعنى: ولولا أن يدفع الله بعض الناس ببعض لغلّب المفسدون وبطلت مصالح الأرض.

أبعد هذا أدب وبيان أم وراءه جمال عبارة وجودة تمثيل وحسن تعليل، اللهم لا؛ ولكن وقف دون إتمام الإعراب ولعله قد نسيه، أو تركه لوضوحه، وكان الخير لو ذكره.

ومما يذكر فيشكر أنه أتى في هذا المختصر بما أغفل التنبيه عليه جميع النحويين، وهو الحال المؤكدة لصاحبها كقوله تعالى: ﴿لَأَمِّنَ مِنْ فِى الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] وكما يقال: جاء الناس قاطبة، أو كافة، أو طراً. وقد استدرك على ابن مالك تمثيله بالآية للحال المؤكدة لعاملها وقال: أنه سهو، والقول ما قالت حذام.

وفي حاشية عبادة صفحة ٥٤ ج ٢ تحمل لصحة التمثيل على وجه سريان العموم من المعمول إلى العامل، والمراد بابن مالك ابنه «بدر الدين» ابن الناظم لا والده محمد بن مالك.

وهو في تمثيله يعنيه أن يضبط ما يأتى به من أمثلة، وأن يذكر المراجع اللغوية التى اعتمد عليها إذا تصدى للرد على مخالفيه، فقد ضبط الزرافة بفتح الفاء «الزأى» ورمى بالجهل من عاب عليه الجزم بفتحها.

قال: فى التمثيل للحال اللازمة وربما جاءت دالة على وصف ثابت كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤] أى: مبيناً، وقول العرب: «خلق الله الزرافة يديها أطول من رجلها» فالزرافة بفتح الزأى مفعول لخلق، ويديها بدل منها: بدل بعض من كل، وأطول حال من الزرافة، ولو قال: حال من يديها لكن أوزن، بل لعله يريد ذلك، ومن رجلها متعلق بأطول، وقد عاب بعض الجهال ما جزم به من فتح الزأى، وقال: فيها الفتح والضم فبينت له أن هذه اللفظة ذكرها أبو منصور موهوب ابن الجواليقى فى كتابه فيما تغلط فيه العامة، فقال فى باب: «ما جاء مفتوحاً والعامة تضمه» ما نصه: «وهى الزرافة - بفتح الزأى - لهذه الدابة التى جمعت فيها خلق شتى، مأخوذة من قولهم للجمع من الناس: «زرافة» بالفتح وهو الوجه والعامة تضمه.. انتهى كلامه.

واللغات الشاذة لا تخصى وإنما يعمل على ما عليه الفصحاء الموثوق بلغتهم، وقد رأيت الوجهين فى «القاموس»^(١) - وفى «مختار الصحاح»^(٢) دون ترجيح. وقال: الشيخ عبادة: ^(٣) «وحكى النووى فى تحريره الضم عن الجوهري». ثم قال فى الكلام على «حرى» التى من أخوات كاد: «ولا أعرف من ذكر

(١) حاشية الشيخ عبادة ٣ : ١٤٧ .

(٢) حاشية الشيخ عبادة ٢ : ٢٧١ .

(٣) حاشية الشيخ عباده ٢ : ٥٥ .

حرى من النحويين غير ابن مالك، وتوهم أبو حيان أنه وهم فيها، وإنما هي حرى بالتنوين اسمًا لا فعلًا، وأبو حيان هو الواهم، بل ذكره أصحاب كتب الأفعال من اللغويين كالسرقطي وابن طريف وأنشدوا عليها شعرًا، وهو قول الأعشى:

أن يقل هن من بنى عبد شمس
فحسرى أن يكون ذاك وكانا

وابن هشام في تعقيبه هنا على أبي حيان يكشف عن ناحية من نواحيه التي سبقت الإشارة إليها، وهو هنا يقيم الدليل عليها، تلك الناحية هي تبخره في اللغة والاستعانة بها وبما أصفاه الله منها على تصحيح ما ذكره ابن مالك ولولا ما قيل: من أن هذا البيت غير موجود في ديوان الأعشى ميمون الذي شرحه أبو العباس ثعلب وما يمكن أن يتطرق إليه من احتمال حذف تنوين «حرى» على نية الوقف لكان لابن هشام الحجة البالغة على إثبات هذا الفعل.

وفي هذا المؤلف ظاهرة أخرى هي محاولة ابن هشام رد من ند عن الجماعة إليها معتمدًا على سلامة ذوقه، وإليك ما ختم به الكلام على باب التوكيد، تحت عنوان «مسألة»: قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ [الحجر: ٣٠] قائدة ذكر «كل» رفع وهم من يتوهم أن الساجد البعض، وفائدة ذكر «أجمعون» رفع وهم من يتوهم أنهم لم يسجدوا في وقت واحد، بل سجدوا في وقتين مختلفين، والأول صحيح، والثاني باطل؛ بدليل قوله تعالى: ﴿لأغوينهم أجمعين﴾ [ص: ٨٢] لأن إغواء الشيطان لهم ليس في وقت واحد، فدل على أن «أجمعين» لا تعرض فيه لاتحاد الوقت، وإنما معناه كمعنى: «كل» سواء، وهو قول جمهور النحويين، وإنما ذكر في الآية تأكيدًا على تأكيد كما قال تعالى: ﴿فمهل الكافرين أمهلهم وريدا﴾ [الطارق: ١٧] ولعل هذا البعض هو الفراء.

ثم هو قد تعقب ابن مالك في إبدال المضمر من مثله، وفي إبداله من الظاهر، فقال: وإبدال المضمر من المضمر نحو «ضربت إياه» فإياه بدل، أو توكيد، وأوجب ابن مالك الثاني، وأسقط هذا القسم من أقسام البدل.

وإني أفسح المجال هنا قليلاً للعلامة الشيخ عبادة، وأرتضى ما نقله وذكره رأيًا لى في الرد على ابن مالك.

قال - رحمه الله^(١) - في حاشيته: «الحاصل أن: قمت أنت ورأيت أنت ومررت بك أنت تأكيد بالاتفاق من البصرى والكوفى، ورأيتك إياك تأكيد عند الكوفى، وابن مالك، لا بدل، خلافاً للبصريين.

قال ابن مالك فى شرح التسهيل: وقول الكوفيين عندى أصح؛ لأن نسبة المنصوب المنفصل من المنصوب المتصل كنسبة المرفوع المنفصل من المرفوع المتصل، نحو: فعلت أنت، والمرفوع تأكيد بالإجماع، فليكن المنصوب تأكيداً، فالفرق بينهما تحكم.

قال الشاطبى: والظاهر مذهب البصريين لما ثبت عند العرب أنها إذا أرادت التوكيد أتت بالضمير المرفوع فقالت: جئت أنت ورأيتك أنت ومررت بك أنت، وإذا أرادت البدلية وافقت بين التابع والمتبوع فقال: جئت أنت ورأيتك إياك ومررت به إياه فيتحد لفظ التوكيد، والبدل فى المرفوع ويختلف فى غيره، هكذا نقل عن سيويه، و تلقاه عنه غيره بالقبول، وهم المؤتمنون على ما يتلقون، فهم شافهوا العرب وعرفوا مقاصدها، فلا يعارض هذا بقياس بأن يقال: إن نسبة المنفصل إلى المتصل... إلى آخر مقالة ابن مالك السابقة.

ثم قال ابن هشام: وإبدال المضم من الظاهر نحو: ضربت زيداً إياه، وأسقط ابن مالك هذا القسم أيضاً من البدل وزعم أنه ليس بمسموع؛ قال: ولو سمع لأعرب توكيداً لا بدلاً وفيما ذكره نظره؛ لأنه لا يؤكد القوى بالضعيف، وقد قالت العرب: زيد هو الفاضل، وجور النحويون فى «هو» أن يكون بدلاً، وأن يكون مبتدأ، وأن يكون فصلاً.

١٥ - شرح الشواهد الصغرى.

١٦ - شرح الشواهد الكبرى.

وهذان الكتابان لم أرهما، ولكن السيوطى - رحمه الله - نوه بهما ونسبهما إلى ابن هشام، وذكرهما من قبله العلامة ابن حجر فى كتابه «الدرر»^(٢).

١٧ - «شرح قصيدة بانث سعاد» لكعب بن زهير فى مدح الرسول ﷺ، وهو شرح ذائع مطبوع، تغلب عليه النزعة النحوية والصرفية، وهو إلى الناحية اللغوية أقرب منه إلى الناحية الأدبية.

(١) حاشية الشيخ عبادة ٢ : ١٨٩ .

(٢) حاشية الشيخ عبادة ٢ : ٣٠٩ .

ومن يطلع عليه يجد فيه كثيراً من آرائه وآراء العلماء التي أودعها مؤلفاته النحوية، وقصارى القول: أن القارىء في هذا الشرح يعزوه لابن هشام إذا هو نظر فيه قبل أن يعلم أنه له، إذا كان قد قرأ في كتبه من قبل؛ لأن روحه تتجلى فيه، وقلمه يشف عنه.

وهذه القصيدة قد شرحها غيره، ولكل شرح طابعه الأدبي الخاص، وإنى ذاكر على سبيل المثال ما خطته يمينه في شرح البيت الأول:

بَانتُ سَعَادُ فقلبي اليوم متبولٌ
متسليمٌ إثرها لم يُفدَ مكبولٌ

قال رضى الله عنه: قوله: «بانت» معنى «بان» فارق، وله مصدران: البين وسيأتى فى البيت الثانى، واليينونة، ووزنه عند البصريين فيلولة، وأصله بينونة بيائين الأولى رائدة، والثانية عين، ثم أدغمت الأولى فى الثانية فصار بينونة، ثم خفف بحذف الثانية كما فعل بسيد وميت، فصار بينونة على وزن فيلولة، والتزم فيه التخفيف لطوله.

ومذهب الكوفيين أنه فعلولة بالضم كعصفورة، ثم كسرت الفاء لتسلم الياء، ثم فتحت لثقل كسرة وضمة ليس بينهما حاجز حصين، ثم فعلوا ذلك فى ديمومة ونحوه حملاً لذوات الواو على ذوات الياء؛ لأن ذوات الواو فى هذا الباب أقل، والتاء حرف تانيث لا اسم للمؤنث كالياء فى «قومى»؛ بدليل أنها تجماع الضمير بخلاف الياء، تقول فى «قامت» قامتاً إذا أردت الاثنين ولا تقول فى «قومى» قومياً.

قوله: «سعاد» هو علم مرتجل يريد به امرأة يهواها حقيقة، أو ادعاء، وكونه حقيقى التانيث موجب للحاق التاء للفعل بخلاف نحو طلعت الشمس ففيه الوجهان وزيادته على الثلاثة موجب لمنع صرفه، بخلاف نحو هند ففيه الوجهان، ومانع من لحاق التاء إذا صغر بخلاف نحو هند وشمس وقدم فتجد فيهن التاء، والجملة مستأنفة فلا محل لها.

قوله: «فقلبي» أعلم أن للفاء ثلاث حالات:

أحدها: أن تأتى لمجرد السببية والربط، نحو: إن جئتنى فانا أكرمك؛ إذ لو كانت عاطفة كان ما بعدها شرطاً واحتيج للجواب، ونحو: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ فصلٌ لربك وانحر ﴿[الكوثر ١، ٢] لأنه لا يعطف الإنشاء على الخبر

ولا الخبر على الإنشاء، هذا قول الأكثرين، وهو الصحيح، واستدل من أجاز ذلك بقوله:

تُناغى غزالاً عند باب ابن عامر
وكحل ماقيك الحسان بأمدٍ

وقوله:

وإن شفائي عبرة إن سفحتها

وهل عند رسم دارس من مسمول

ولا دليل في هذا؛ لأن الاستفهام مراد به الإنكار فهو مثله في: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» [الرحمن: ٦٠] فهو خبر لا إنشاء.

وأما الأول: فلا نسلّمه إلا بعد الوقوف على ما قبله من الأبيات.

والثانية: «أن» تأتي لمحض العطف، نحو: جاء زيد فعمرو، وقوله تعالى: «والذي أخرج المرعى فجعله غثاءً أخوياً» [الأعلى: ٥].

والثالثة: «أن» تأتي لهما كقوله تعالى: «فوكزه موسى فقضى عليه» [القصص: ١٥]، «فتلقى آدم من ربه كلمات فتآب عليه» [البقرة: ٣٧] وهذا هو الغالب على الفاء المتوسطة بين الجمل المتعاطفة ومنها الفاء في هذا البيت.

وعطف الاسمية على الفعلية جائز عند الجمهور مطلقاً؛ بدليل قولهم في نحو: «قام زيد، وعمراً أكرمته» أن نصب عمرو أرجح من رفعهما وتعليقهم ذلك بأن تناسب الجملتين المتعاطفتين أولى من تخالفهما.

وقيل: ممتنع مطلقاً وإن ارتفاع الضرس من قوله:

عاضها الله غلاماً بعد ما

شابت الأصداغ والضررس نقد

على إضمار فعل يفسره نقد.

وذهب «الفارسي» إلى جوازه إذا كان العاطف الواو خاصة، نقله عنه تلميذه أبو الفتح في «سر الصناعة» وعلى هذين المذهبين فالفاء لمحض السببية لا للعطف.

وللقلب أربعة معان:

أحدها: الفؤاد: ومنه: «ختم الله على سمعه وقلبه» [الجاثية: ٢٣] وهو المراد

هنا، وإنما سمي قلباً لتقلبه، وقيل: القلب أخص من الفؤاد، ومنه الحديث: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق قلوباً، وألين أفئدة، الإيمان يمان، والحكمة يمانية»، فوصف القلوب بالركة، والأفئدة باللين.

والثاني: العقل: ومنه: «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب» [ق: ٣٧].
والثالث: خالص كل شيء ومحضه، ومنه الحديث: «كل شيء قلب وقلب القرآن يس».

والرابع: مصدر قلبه.

وجمع القلب قلوب عن اللحياني.

قوله: «اليوم» فيه مسألتان:

أحدهما: أنه يطلق على أربعة أمور:

أحدها: مقابل الليلة، ومنه: «سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام» [الحاقة: ٧].

الثاني: مطلق الزمان كقوله تعالى: «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال» [الأنفال: ١٦] الآية، «وأتوا حقه يوم حصاده» [الأنعام: ١٤١]، «إلى ربك يومئذ المساق» [القيامة: ٣٠] المراد: ساعة الاحتضار، تقول فلان اليوم يعمل كذا.

قال الشاعر:

* إذا جاء يوماً وارثي يطلب الغنى *

ومنه بيت كعب هذا، ويستعمل هذا الاستعمال الساعة.

ومنه قوله تعالى: «الذين أتبعوه في ساعة العسرة» [التوبة: ١١٧] المراد به: زمن غزوة تبوك، وكذلك الغداة وسيأتي في البيت بعد هذا.

والثالث: مدة القتال نحو: يوم حنين، ويوم بعاث، وهو يوم للأوس والخزرج، وهو بضم الباء الموحدة، وبالعين المهملة وبالتاء المثناة.

والرابع: الدولة: ومنه: «وتلك الأيام نداولها بين الناس» [آل عمران: ١٤٠].

المسألة الثانية: أنه ظرف لما بعده، وهو متبول، لا لمتيم؛ لأنه لم يجمع حتى استوفاه الأول، ولئلا يلزم فصل الغامل من معموله بالأجنبي.

ومن جوز تنازع العاملين المتأخرين وجعل منه: «بالمؤمنين رءوف رحيم»

[التوبة: ١٢٨] جاز ذلك عنده هنا؛ لأن التنازع يجوز فيه ما لا يجوز في غيره من الفصل.

وإذا قيل بذلك فيترجح إعمال الأول عند الجميع لاجتماع صفتي القرب والسبق فيه، ولا يجوز فيه أن يتعلق بكون محذوف على أن يكون خبراً؛ لأن الزمان إنما يكون خبراً عن الأعراض دون الجواهر.

وقوله: «متبول» خبر، يقال: تبلهم الدهر أى: أثناهم.

وتبلهم الحب: أى: أسقمهم وأضناهم.

ومن الأول قول الأعشى:

أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْشَى أَضْرَبَهُ

ريب الزمان ودهر مفسد تبل

ودهر متبل مفن للأهل والمال.

ومن الثانى بيت كعب، ويقال من معنى الإفناء: أتبلهم أيضاً، وعليه يروى: ودهر متبل خبل.

وقوله: «متيم» خبر ثان عند من أجاز تعدد الخبر، أما من منعه فهو عنده خبر عن هو محذوفاً، أو صفة لمتبول عند من جوز وصف الصفة، وحجة المانع أنها كالفعل، وهو لا يوصف، ولو صح هذا لم يصح التصغير، وهو جائز بلا خلاف نعلمه، ويقال: تيمه الحب وتامه بمعنى استعبده وأذله.

ومن الثانى: تيم اللات سموا بالمصدر، وقول الشاعر:

تامت فؤادك لو يحزنك ما صنعت

إحدى نساء بنى ذهل بن شيبانا

استشهد به «ابن الشجرى» (*) على أن «لو» قد تجزم حملاً على إن، ولا دليل فيه لاحتمال أنه سكنه تخفيفاً لتوالى الحركات، كقراءة أبى عمرو: ﴿وما يشعركم﴾ [الأنعام: ١٠٩] بإسكان الراء، أو للضرورة كقول امرئ القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب

إثماً من الله ولا واغل

(*) هو هبة الله بن على بن حمزة، أبو السعادات «شذرات الذهب» ٦: ٢١٥.

وقوله: «إثرها» فيه مسألتان:

الأولى: الإثر بالكسر والسكون، أو بفتحتين، ونظيره مما جاء على فعل وفعل قيد رمح وقاده، وقيب قوس وقابه، وقلت قىلاً وقالاً، وكبح وكاح لعرض الجبل، وحاؤه مهملة، وقد عقد يعقوب(*) لذلك فى كتاب الإصلاح باباً.

ويقال لفرند السيف: أثر بفتح الهمزة وضمها كلاهما مع سكون العين قال:

جلاها الصيقلون فأخلصوها

صفاء كلها يتقى بأثر

أى: كل يستقبلك بفرنده.

ويقال: اتقاء يتقيه بالتشديد، وتقاء يتقيه بالتخفيف كما فى البيت، وكقوله:

زيارتنا نعمنان لا ننسينها

تق الله فينا والكتاب الذى تتلو

المسألة الثانية: أنه إما ظرف لتسيم متعلق به، وإما حال من ضميره فيتعلق بكون محذوف، ولا يحسن أن يكون متعلقاً بمتبول، ولا كونه حالاً من ضميره للبعد اللفظى والمعنى، وليس بممتنع.

وعلى تقديره ظرفاً له، فيكون الوصفان قد تنازعا كما تنازع «مطول» ومعنى الغريم فى قوله:

قضى كل ذى دين فوفى غريمه

وعزة مطول معنى غريمها

فى قول بعضهم، ولا يصح ذلك على تقدير الحالية؛ لأنهما حيثئذ إنما يطلبان الكون المطلق الذى تعلق به؛ لأنه الحال بالحقيقة، ولم يثبت التنازع فى المحذوف ولأننا إذا أعملنا الأول أضمرنا فى الثانى والضمير لا يعمل، والحال لا يضمّر؛ لأنها واجبة التنكير، وجوز ابن معط وقوع التنازع فى الحال فى نحو زرنى أزرك راغباً قال: وإذا أعملت الأول قلت زرنى أزرك فى هذه الحالة راغباً، ويروى عندها بدل إثرها، وعند اسم لمكان حاضر، أو قريب، فالأول نحو: «فلما رآه مستقراً عنده»، والثانى نحو: «ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى» وقد يكون الحضور والقرب معنويين.

(*) هو يعقوب بن السكيت، النحوى البغدادى، أبو يوسف «شذرات الذهب» ٣: ٢٠٣.

نحو «قال الذى عنده علم من الكتاب» ونحو «رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة» وقد تفتح فاؤها وقد تضم ولا تقع عند إلا منصوبة على الظرفية، أو مخفوضة بمن، وفيها الغز الحريرى بقوله: «وما اسم منصوب أبدا على الظرف، ولا يخفضه سوى حرف» وقول: العامة ذهبت إلى عنده لحن.

وقوله: «لم» هى حرف جزم لنفى المضارع وقلب زمنه ماضيا، وقيل حرف جزم لنفى الماضى وقلب لفظه مضارعا.

وقوله: «يفد» مضارع قدى الأسير إذا أعطى فداءه واستنقذه، وكذلك معنى: فاداه وقال: قوم إنَّما يقال: فاداه بالالف إذا كان الفداء أسيرا أيضا لا مالا، فإن ضعفت عين فداه صار معناه: جعلت فداءك، وجعلت لم يفد إما خبر آخر إن قلنا بجواز تعدد الخبر مختلفا بالإفراد والجملة، وهو ظاهر إطلاق كثير منهم، وصرح بضعهم بتجويزه فى قوله تعالى: «فإذا هم فريقان يختصمون» [النمل: ٤٩].

«فإذا هى حية تسعى» [طه: ٢٠] ولكن أبا على صرح بالمنع، وإما صفة لم يتم كما يقول أبو على: فى الجملة من هاتين الآيتين، وإما حال، إما من ضمير متم وهو الظاهر، أو من ضمير متبول، وعلى هذا التجويز فيمتنع أن تكون المسألة من التنازع لتعذر الإضمار من وجهين، كون الحال واجبة التنكير، وكون الجملة لا تضمير، ويروى لم يشف.

قوله: «مكبول» يقال كبله كضربه، وكبله مشددا ومعناهما: وضع فى رجله الكبل بفتح الكاف وقد تكسر، وهو القيد فقيل مطلقا، وقيل أعظم ما يكون من الأقياد، فهو مكبول ومكبل ويقال فى المكبل مكلب على القلب. قال أفيل:

أبانا بقتلانا من القوم ضعفهم

وما لا يعد من أسير مكلب

ومعنى: أبانا قتلنا ويقال: أيضا كبله بالتخفيف بمعنى: حبسه فى سجن، أو غيره، وفى الحديث: «إذا وقعت السهمان فلا مكابلة» أى: فلا يحبس أحد عن حقه وقال:

إذا كنت فى دار يهينك أهلها

ولم تك مكبولا بها فتحول

ووافق الفراغ من شرح هذه القصيدة كما ذكر الشارح - رحمه الله - فى

آخرها: الثامن عشر من رجب الفرد سنة ست وخمسين وسبعمائة هجرية. ويلاحظ أنه حج فى هذا العام للمرة الثانية، ووفق يؤولف كتابه «المغنى» بعد ما أصيب بأصوله فى إيباه من الرحلة الحجازية الأولى سنة تسع وأربعين وسبعمائة هجرية.

١٨ - «شرح القصيدة اللغزية فى المسائل النحوية» يوجد فى مكتبة ليدن [ب هولندا] وقد طبع ضمن كتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطى، كما طبعت القصيدة اللغزية فى هذا الكتاب^(١).

١٩ - «شرح قطر الندى وبل الصدى» وهذا الشرح له فضل كبير على الناشئين؛ لأنه يجمع إلى الإيجاز سهولة العبارة، ووضوح الإشارة، فلا يجد الطالب فيه تعقداً لفظياً، أو معنى مستعصياً، بل لا يحتاج فى دراسته إلى شيخ يأخذ بيده، أو يساعده، ثم هو يقطع فى الزمن القصير منه المقدار الكبير مع تعليق الفوائد، وتحصيل الفرائد.

وابن هشام فى هذا المختصر قد أحسن العرض، وذكر كثيراً من أقوال النحاة ووقف نفسه موقف الحكم، فطوراً يرجح قول البصريين، وتارة يجنح إلى رأى الكوفيين، وحيناً يناصر سواهم، وقد يرد على الجميع، ويذكر ما يعن له أنه فصل الخطاب.

وهذا الشرح حافل بالشواهد العربية من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية التى بلغت تسعة وأربعين ومائة بيت من جيد الشعر العربى بيد أن كثيراً من الأبيات لا يعرف لها قائل تُنسب إليه، وعذره أنه تبع فيها غيره ممن سبقه، أو عاصره، وجاء بعضها فى كتاب سيبويه، وقد لاحظت عليه أنه ذكر بيتاً للمتنبى عند الكلام على الندبة وهو قوله:

واحر قلباه من قلبه شـبـم

ومن بجسمى وحالى عنده سقم

ولكن ذلك لا يؤخذ عليه؛ لأن الظاهر من كلامه أنه ساقه مثلاً لا شاهداً، ويرجح ذلك التنصيص عليه، حيث قال: والثانى: يعنى المنادى المتوجع منه كقول المتنبى، فلعل تصريحه بذكر لفظ المتنبى ليفهم أنه يريد مجرد التمثيل، ولو أنه أراد الاستشهاد بهذا البيت لطوى اسم قائله كما طواه فى البيت الذى

(١) الأشباه والنظائر ص ٣٥٢ .

قبله، حيث قال: فالأول؛ يعنى المنادى المتفجع عليه كقول الشاعر: (١) يرثى
عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه:

حُمِلْتَ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبِرْتَ لَهُ

وَقُمْتَ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا

وهذا دأبه فى أكثر ما استشهد به من أبيات فتراه يصدر البيت بقوله: كقول
الشاعر، أو يقدم له بقوله: قال الشاعر، وإنى مورد هنا بعض الشواهد التى
ذكرها فى هذا الكتاب مع مقدماتها.

قال عند الكلام على ترخيم المنادى المحذوف للترخيم على ثلاثة أقسام:

أحدها: أن يكون حرفًا واحدًا وهو الغالب كما مثلنا.

والثانى: أن يكون حرفين وذلك فيما اجتمعت فيه أربعة شروط.

أحدها: أن يكون ما قبل الحرف الأخير زائدا.

الثانى: أن يكون معتلاً.

الثالث: أن يكون ساكنا.

الرابع: أن يكون قبله ثلاثة أحرف فما فوقها وذلك نحو: سليمان، ومنصور
ومسكين علما، تقول: يا سلم ويا منص ويا مسك، قال الشاعر (٢):

يَا مَرُوءَ إِنِّ مَطِيئِي مَحْبُوسَةٌ

تَرْجُو الْحَبَاءَ وَرَبِّهَا لَمْ يَبْسُ

ثم قال فى باب الحال، وشرط صاحب الحال واحد من أربعة:

الأول: التعريف: كقوله تعالى: ﴿خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ﴾ [القمر: ٧]

فخشعًا حال من الضمير فى قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ﴾ [القمر: ٧] والضمير أعرف
المعارف.

والثانى: التخصيص: كقوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِلْإِنْسَانِ﴾

[فصلت: ١٠] فسواء حال من أربعة، وهى وإن كانت نكرة لكنها مخصصة
بالإضافة إلى أيام.

والثالث: التعميم: كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾

(١) هو جرير.

(٢) هو الفرزدق.

[الشعراء: ٢٠٨] فجملة «لها منذرون» حال من قرية، وهى نكرة عامة لوقوعها فى سياق النفى.

والرابع: التأخير عن الحال: كقول الشاعر^(١):

لمية مسحشاً طلل

يلوح كأنه خلل

وغير ذلك كثير، وإنما آثرت أن أذكر مع الشاهدين ما سبقهما من كلام ليكون ذلك دليلاً ملموساً، وشاهداً محسوساً على ما امتاز به ابن هشام من فصاحة فى الكلام، وروعة فى البيان، وسهولة فى التركيب والتعبير، وتأخير للأمثلة التى يأتى بها لإيضاح القواعد قبل دعمها بالشواهد.

قال طيب الله ثراه: تراه فى الاسم الذى لا ينصرف «ص» وما لا ينصرف فيجر بالفتحة نحو مررت بأفضل منه إلا مع «أل» نحو: بالأفضل، أو الإضافة نحو: بأفضلكم.

ثم قال فى الشرح: الباب الخامس مما خرج عن الأصل ما لا ينصرف وهو ما فيه علتان فرعيتان من علل تسع، أو واحدة منها تقوم مقامهما.

فالأول: كفاطمة فإن فيه التعريف والتأنيث وهما علتان فرعيتان عن التذكير والتذكير.

والثانى: نحو مساجد ومصاييح فإنهما جمعان والجمع فرع عن المفرد، وصيغتهما صيغة منتهى الجموع، ومعنى هذا أن مفاعل ومفاعيل وقفت الجموع عندهما، وانتهت إليهما، فلا تتجاوزهما، فلا يجمعان مرة أخرى، بخلاف غيرهما من الجموع فإنه قد يجمع، تقول كلب وأكلب كفلس وأفلس، ثم تقول: أكلب وأكالب، ولا يجوز فى أكالب أن يجمع بعده، وكذا أعرب وأعارب فلا يجوز فى أعارب أن يجمع كما يجمع أكلب على أكالب وأصال على أصائل، فكان الجمع قد تكرر فيهما فتزلاً لذلك منزلة جمعين، إلى أن قال: وحكمه أن يجر بالفتحة نيابة عن الكسرة وحملوا جره على نصبه كما عكسوا ذلك فى الباب السابق «يعنى ما جمع بألف وتاء مزيدتين».

تقول: مررت بفاطمة ومساجد ومصاييح وصحراء، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحِينَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقال تعالى:

(١) هو كثير عزة.

﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل﴾ [سبا: ١٣] ويستثنى من ذلك صورتان:

إحدهما: أن تدخل عليه «أل».

والثانية: أن يضاف، فإنه يجر فيهما بالكسرة على الأصل، فالأولى نحو: «وأنتم عاكفون في المساجد» [البقرة: ١٨٧] والثانية نحو: «في أحسن تقويم» [التين: ٤] وتمثيلي في الأصل بقولي: «بأفضلكم» أولى من تمثيل بعضهم بقوله: مررت بعثماناً؛ فإن الأعلام لا تضاف حتى تنكر، فإذا صار نحو عثمان نكرة زال منه أحد السبيين المانعين له من الصرف، وهو العلمية فدخل في باب ما ينصرف وليس الكلام فيه بخلاف «أفضل» فإن مانعه من الصرف الصفة ووزن الفعل وهما موجودان فيه أضفته أم لم تضفه، وكذلك تمثيلي بالأفضل أولى من تمثيل بعضهم بقوله:

رأيت الوليد بن يزيد مباركاً

شديداً بأعباء الخلافة كاهله

لأنه يحتمل أن يكون قدر في «يزيد» الشيعاء فصار نكرة، ثم أدخل عليه «أل» للتعريف فعلى هذا ليس فيه إلا وزن الفعل خاصة، ويحتمل أن يكون باقياً على علميته، وأل زائدة فيه كما زعم من مثل به، وهذا البيت لابن ميادة «وهو الرماح بن أبرد بن ثوبان»، وميادة اسم أمه، وهو من الشعراء المقدمين الذين يحتج بشعرهم.

ولولا استشهاد ابن هشام بهذا البيت في «أوضح المسالك» وفي غيره من كتبه على أن أل في «اليزيد» زائدة ضرورة، وعدم قيام الدليل القاطع بقصد التنكير الذي أشار إليه لاستقامت عبارته، ولكن الكمال لله وحده، وحسبه عبارته السهلة وما أودع فيها من جيد الشواهد وصحيح الأمثلة، وقد ذكر كل ذلك عرضاً ووفاه حقه في مكان آخر من عجز هذا الكتاب حيث عقد لموانع الصرف باباً كان فيه أطول نفساً، وأوسع باعاً.

وإني مورد بعد هذا لو أننا آخر من تحقيقه ممثلاً في استعراض أقوال النحاة، وذلك بصدد الكلام على «مهما»، قال رحمه الله:

«وأما مهما فزعم الجمهور أنها اسم بدليل قوله تعالى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ [الاعراف: ١٣٢] فالهاء من «به» عائدة عليها والضمير لا يعود إلا على

الأسماء، وزعم السُّهَيْلى وابن يسعون أنها حرف واستدلاً على ذلك بقول زهير:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإنْ

خَالَهَا تَخْـفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ

وتقرير الدليل أنهما أعربا «خليقة» اسماً لتكن ومن رائدة فتعين خلو الفعل من الضمير وكون «مهما» لا موضع لها من الإعراب إذا لا يليق بها هاهنا لو كان لها محل أن تكون إلا مبتدأ والابتداء هنا متعذر لعدم رابط يربط الجملة الواقعة خبراً له، وإذا ثبت أن لا موضع لها من الإعراب تعين كونها حرفاً، والتحقيق: أن اسم تكن مستتر «ومن خليقة» تفسير لهما كما أن «من آية» تفسير لما فى قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية﴾ [البقرة: ١٠٦] ومهما مبتدأ والجملة خبر.

وقال فى رافع الفعل المضارع: أجمع النحويين على أن الفعل المضارع إذا تجرد من الناصب والجازم كان مرفوعاً كقولك: يقوم زيد ويقعد عمرو، وإنما اختلفوا فى تحقيق الرفع له، ما هو؟

فقال الفراء وأصحابه: رافعه نفس تجرده من الناصب والجازم.

وقال الكسائى: حروف المضارعة.

وقال ثعلب: مضارعتة للاسم.

وقال البصريون: حلوله محل الاسم، قالوا: ولهذا إذا دخل عليه نحو «أن» و«لن» و«لم» و«لما» امتنع رفعه لأن الاسم لا يقع بعدها فليس حيثشذ حالا محل الاسم.

وأصح الأقوال الأول، وهو الذى يجرى على السنة المعريين، يقولون: مرفوع لتجرده من الناصب والجازم، ويفسد قول الكسائى: أن جزء الشئ لا يعمل فيه، وقول ثعلب أن المضارعة إنما اقتضت إعرابه من حيث الجملة، ثم يحتاج كل نوع من أنواع الإعراب إلى عامل يقتضيه، ثم يلزم على المذهبيين أن يكون المضارع مرفوعاً دائماً، ولا قائل به.

ويرد قول البصريين: ارتفاعه فى نحو هلا يقوم لأن الاسم لا يقع بعد حروف التحضيض، فنرى أن ابن هشام هنا قد اختار رأى الفراء وأصحابه وعد رأيهم صواباً، وهم من الكوفيين، وزيف رأى البصريين ومن لف لفهم من الكوفيين.

وفى باب العلم صحَّح ابن هشام مذهب الكوفيين وانحاز إليهم إذا اجتمع

الاسم واللقب وكانا مفردين حيث قال: وإن كانا مفردين كزيد قفة، وسعيد كرز فالكوفيون والزجاج يجيزون فيه وجهين:

أحدهما: إتباع اللقب للاسم كما تقدم في بقية الأقسام؛ يريد بالإتباع: جعله بدلاً، أو عطف بيان، ويعنى ببقية الأقسام: ما إذا كان الاسم واللقب مضافين، أو كان الأول مفرداً والثاني مضافاً، أو كانا بالعكس.

ثم قال: والثاني إضافة الاسم إلى اللقب وجمهور البصريين يوجبون الإضافة والصحيح الأول، والإتباع أقيس، والإضافة أكثر.

وقد اصطفى قول الكوفيين ومعهم المبرد وابن السراج في عدم جواز تقدم خبر ليس عليها، وقال عنه: وهو الصحيح لأنه لم يسمع مثل «ذاها لست»، ولأنها فعل جامد فاشبهت عسى وخبرها لا يتقدم باتفاق.

ثم قال: وذهب الفارسي وابن جنى إلى الجواز مستدلين بقوله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوقًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨] وذلك لأن يوم متعلق بمصروفاً وقد تقدم على ليس، وتقدم المعمول يؤذن بجواز تقدم العامل، والجواب: أنهم توسعوا في الظروف ما لم يتوسعوا في غيرها، ونقل عن سيبويه القول بالجواز والقول بالمنع.

ولا يفهم مما ذكرت الآن أن ابن هشام في هذا الكتاب ساير الكوفيين ونأى بجانبه عن البصريين، فما إلى هذا قصدت، وإنما أردت أن أبرهن على أنه كان حر الرأي يحبذ ما يراه حسناً وينفى ما يلفيه متهافتاً، غير عابىء بمصدره، أو معول على صاحبه، وهو في هذا الكتاب وفي غيره يدنو في تحقيقه من البصريين ويأوى معهم إلى ربه ذات قرار ومعين.

وتبذره في هذا المختصر لأراء الكوفيين كثيراً لا يحتاج إلى تدليل، وإن احتاج النهار إلى دليل فإني أسوق ما ذكره في إعمال المصدر، قال بعد أن ذكر شرطين لإعماله:

الثالث: ألا يكون مضمراً، فلا تقول: ضربني زيد حسن وهو عمراً قبيح؛ لأنه ليس فيه لفظ الفعل، وأجار ذلك الكوفيون واستدلوا بقوله^(١):

وما الحربُ إلا ما علمتم ودُّقُّمُ

وما هو عنها بالحديث المَرَجَّم

(١) هو زهير بن أبي سلمى.

أى : وما الحديث عنها بالحديث المرجم، قالوا: فعنها متعلق بالضمير، وهذا البيت نادر وقابل للتأويل فلا تبني عليه قاعدة.

ثم رده عليهم في عدم جواز إعمال أمثلة المبالغة حيث قال: ولم يجز الكوفيون إعمال شيء منها لمخالفتها لأوزان المضارع ولمعناه، وحملوا نصب الاسم الذي بعدها على تقدير فعل ومنعوا تقديمه عليها، ويرد عليهم قول العرب: «أما العسل فأنا شراب».

وصفوة القول: بأن هذا الكتاب على إيجازه حافل بالفوائد النحوية والتحقيقات العلمية واستيفاء البحث في حدود الدائرة التي رسمها لنفسه وتوخاها في هذا المختصر، بيد أنه إنسان يجوز عليه النسيان كما وقع له في الكلام على النعت. قال حيال موافقته للمنعوت: «ولا يجوز في شيء من الغوت أن يخالف منعوته في الإعراب، ولا أن يخالفه في التعريف والتنكير، فإن قلت هذا متقصد بقولهم: هذا جحر ضبٌ خرب، فوصفوا المرفوع، وهو الجحر بالخفوض، وهو خرب».

وبقوله تعالى: «ويلٌ لكلٌ همزةٌ لمزة الذي جمعَ مالا وعدده» [الهمزة: ١]، وبقوله تعالى: «حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول» [غافر: ٢، ٣] فوصف المعرفة، وهو اسم الله تعالى بالنكرة وهي شديد العقاب، وإنما قلنا أنه نكرة؛ لأنه من باب الصفة المشبهة ولا تكون إضافتها إلا في تقدير الانفصال، ألا ترى أن المعنى: شديد عقابه لا ينفك في المعنى عن ذلك.

قلت: أما قولهم: «هذا جحر ضبٌ خرب» فأكثر العرب ترفع خرباً، ولا إشكال فيه، ومنهم من يخفضه بمجاورته للمخفوض كما قال الشاعر:

* قَدْ يُوْخَذُ الْجَارُ بِجَرْمِ الْجَارِ *

ومرادهم بذلك أن يناسبوا بين المتجاورين في اللفظ، وإن كان المعنى على خلاف ذلك.

وعلى هذا الوجه ففي خرب ضمةٌ مقدرةٌ منع من ظهورها اشتغال الآخر بحركة المجاورة، وليس ذلك بمخرج له عما ذكرناه من أنه تابع لمنعوته في الإعراب كما نقول: إن المبتدا والخبر مرفوعان، ولا يمنع من ذلك قراءة الحسن البصري «الحمد لله» بكسر الدال إتباعاً لكسرة اللام، ولا يمنع أيضاً قبوله في الحكاية: «من زيداً» بالنصب، أو «من زيد» بالخفض إذا سألت من قال: رأيت

زيداً، أو مررت بزيد، وأردت أن تربط كلامك بكلامه بحكاية الإعراب، وقد تبين بهذا صحة قولنا إن النعت لا بد أن يتبع منعوته في إعرابه وتعريفه وتنكيره. وإننى أسمح لنفسى أن أقول بعد كلام ابن هشام: أما تبعية النعت لمنعوته فى إعرابه فقد تبينت صحتها، وصارت حتماً مقضياً من كلامه، وأما تبعية النعت للمنعوت فى التعريف والتنكير فقد بقيت دون تمحيص بعد أن أورد عليها ما ظاهره أنه ينقضها من الآيتين الكريميتين.

٢٠ - «شرح اللوحة البدرية فى علم العربية» لأثير الدين أبى حيان، وهو مؤلف من مؤلفات ابن هشام المخطوطة، ويوجد بدار الكتب المصرية «١٢٢٢» (*).

٢١ - «عمدة الطالب فى تحقيق تصريف ابن الحاجب» ذكره السيوطى، وذكر أنه فى مجلدين، كما ذكره العلامة ابن حجر فى «الدرر»^(١).

٢٢ - «فوح الشذا فى مسألة كذا» وهو شرح للكتاب المسمى بـ «الشذا فى مسألة كذا» تأليف أبى حيان، وهو مطبوع ضمن كتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطى^(٢).

٢٣ - «قطر الندى وبل الصدى» سبقت الإشارة إليه فى الكلام على شرحه.

٢٤ - القواعد الصغرى.

٢٥ - القواعد الكبرى.

ذكر هذين الكتابين السيوطى ونسبهما إليه.

٢٦ - «مختصر الانتصاف من الكشاف والانتصاف من الكشاف» تأليف الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الأسكندرى^(٣) بين فيه ما تضمنه كتاب «الكشاف» للزمخشرى من آراء المعتزلة ورد عليها وناقشه فى أعاريب وأحسن فيها الجدل، وتلاه الإمام علم الدين عبد الكريم بن على العراقى^(٤) فى كتاب «الإنصاف» جعله حكماً بين الإنصاف والانتصاف، ولخصهما الإمام جمال

(*) طبع بتحقيق هادى نهر، بغداد، مطبعة الجامعة ١٩٧٧م، ويتحقق صلاح رواى، القاهرة، مطبعة المدنى ١٩٨٢م.

(١) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٢ : ٣٠٩ .

(٢) الأشباه والنظائر ٤ : ١٢٠ - ١٣١ .

(٣) توفى ابن المنير سنة ٦٨٣ هجرية.

(٤) توفى سنة ٧٠٤ هجرية.

الدين بن هشام فى مختصر لطيف مع يسير زيادة^(١)، ويوجد هذا الكتاب فى برلين رقم ٧٩١.

٢٧ - «المسائل السفرية» وهو كتاب فى النحو ذكره السيوطى (*).

٢٨ - «المغنى» وسيأتى الكلام عليه.

٢٩ - «موقد الأذهان وموقف الوسنان»، وهو فى الألفاظ النحوية والفكاهات الأدبية، وقد رأيتُه ضمن مجموعة مخطوطة فى ست وستين ورقة بدار الكتب المصرية فى المجموعة رقم ٤ «٧٣٠ مجاميع» (**).

٣٠ - «المباحث المرضية المتعلقة بمن الشرطية» وهى مخطوطة أيضاً بدار الكتب المصرية، أولها: هذه ثلاث مسائل متعلقة بمن الشرطية وغيرها من أسماء الشرط، وتليها فوائد مختلفة، وهى ضمن مجموعة مخطوطة «٤٥٩» مجاميع، وله «نبذة الإعراب» المشهورة بجمل جمال الدين بن هشام، وهو كتيب مخطوط استهله بقوله: هذه نكتة يسيرة اختصرتها من قواعد الإعراب تسهيلاً على الطلاب، وقد جعلها المؤلف على ثلاثة أبواب، الباب الأول: فى الجملة، والباب الثانى: فى الظرف، والباب الثالث: فيما يقال عند أدوات يكثر استعمالها فى الكلام، وقد فرغ الكاتب من كتابته فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة «١٢٧٢» هجرية، وشرحه العلامة محمد سعيد بن على بن أحمد الأسطوانى وسمى شرحه «لب الألباب بشرح نبذة الإعراب» «١٥٧٣» بدار الكتب، وللعلامة السيد محمد أمين بن عمر المعروف بابن عابدين (٢) حاشية على هذا الشرح أسماها «فتح رب الأرباب بحواشى لب الألباب» «١٥٧٤» بدار الكتب المصرية (*).

(١) توفى سنة ١٢٥٤ هجرية.

(*) طبع بتحقيق أحمد مطلوب، مجلة كلية الآداب، بغداد، ١٩٦٣ م.

(**) طبع بتحقيق حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

(***) طبع أكثر من مرة انظر: المعجم الشامل للتراث العربى المطبوع ٥: ٣٠٢.

(****) وله أيضاً «مسألة الحكمة فى تذكير قريب فى قوله تعالى: ﴿إن رحمت الله قريب من

المحسنين﴾» طبع بتحقيق عبد الفتاح الحمر، عمان، دار عمار ١٤٠٥ هـ.

أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك

لقد سائر ابن هشام في «أوضح المسالك» ألفية ابن مالك، فجلى ما اشتملت عليه من معان، وفتح ما استغلق من آياتها، وأوضح ما أبهم من أشاراتها، وجعل محتوياتها سهلة سائغة، يحس هذا ويلمسه من قرأ فصلاً من هذا الكتاب، ثم قفى على أثره بمراجعة ما نظمه ابن مالك في هذا المعنى.

«وأوضح المسالك» أحد ثلاثة من الكتب المشهورة التي محورها ألفية ابن مالك، وهو أوسطها، ويدنو منه شرح ابن عقيل، ويكبره شرح أبى الحسن الأشموني.

وهذه الكتب الثلاثة كانت ولا تزال تدرس في الأزهر مهد النحو الوثير في هذه العصور، وسيأتى الكلام عليها في موطن آخر من هذه الكتب.

والذى أريد أن أثبتة الآن أن «أوضح المسالك» سهل المباني دقيق المعانى يشف لفظه عن معناه، ويدرك الناظر فيه ما رمى إليه مؤلفه دون أن يلتبس عليه غرض، أو تخفى عليه خافية، وهو إلى الألفية أهدي سبيل، وللناشئ نعم الدليل، ولا يجد الباحث في معاجم اللغة العربية لهذا الكتاب عنواناً أكثر مطابقة أو اسماً أتم موافقة مما خلعه عليه مؤلفه، فهو بحق «أوضح المسالك» إلى ألفية ابن مالك، ولعل تمامه في الإيضاح وكماله في الإفصاح وما اشتمل عليه من تفريع وتنويع وحكاية لأقوال العلماء، وذكر للمذاهب والآراء، مع بيان الفاضل والمفضول، والصحيح والمدخول، وتعقيب المؤلف ببيان ما ارتضاه رأياً له، وحجة على من سبقه، كل أولئك حداً بابن هشام إلى جعله هذا الكتاب وحدة قائمة بذاتها وتركه دون شرح له، أو تعليق عليه، على حين أنه شرح كتابيه «قطر الندى» و «شذور الذهب» وأنى وإن لم أعثر في المراجع التي اطلعت عليها على تاريخ تأليف ابن هشام لهذا الكتاب أكاد أحكم بأنه ألفه بعد كتابيه السالفين آنفاً؛ لأن سنة التدرج تقضى بالانتقال من الصغير إلى الكبير، وأوضح المسالك كمتن يكبر الشذور حجماً، ويفوقه علماً، والشذور أحفل وأجمع من القطر.

وإنى مسورد هنا بعض عباراته التى تُرى الباحث لوّنًا من اتجاهاته فى هذا المؤلف، وسأكتفى بأمثلة أربعة:

١ - قال - أضاء الله مثواه - فى باب العلم بعد أن قسّمه إلى اسم وكنية ولقب وعرف كل واحد، ثم إن كان اللقب وما قبله مضافين كعبد الله وزين العابدين، أو كان الأول مفردًا والثانى مضافًا كزيد زين العابدين، أو كانا بالعكس كعبد الله كرر، أتبعث الثانى للأول، إما بدلًا أو عطف بيان، أو قطعته عن التبعية إما برفعه خبرًا لمبتدأ محذوف، أو بنصبه مفعولًا لفعل محذوف، وإن كانا مفردين كسعيد كرر، جار ذلك. ووجه آخر؛ وهو إضافة الأول إلى الثانى، وجمهور البصريين يوجب هذا الوجه، ويرده النظر، وقولهم: هذا يحيى عيان «بضم النون».

ولعمرى إن هذا الكلام لدقيق واضح، وآية دقته أمران:

الأول: فى اختياره الاسم وقصده إليه وعود الضمير عليه فى قوله: فإن كان اللقب وما قبله، إذ هو الذى تتأتى معه الأقسام الأربعة، وهى كون الاسم مع اللقب مضافين، أو مفردين، أو الاسم مضافًا واللقب مفردًا، أو الاسم مفردًا واللقب مضافًا، وقد مثل لها وبين حكمها.

أما إذا سبق اللقب بالكنية فاللقب له حالتان؛ الأولى: الإفراد، والأخرى: الإضافة، وعلى كلتا الحالتين فالكنية مضافة لا محالة كأبى القاسم الأمين، وأبى محمد جمال الدين، ومثل هذا إذا سبق الاسم بالكنية فتارة يكونان مضافين كأبى محمد عبد الله، وتارة أخرى يكون الاسم مفردًا والكنية لا تنفك عن الإضافة ضرورة مثل أبى الحسن على، والحال لا تتغير، والأمثلة لا تنكر إذا سبق الاسم الكنية، فهما إما أن يكونا مضافين نحو: سعد الدين أبى رافع، أو يكون الاسم وحده مفردًا مثاله: محمد أبو القاسم عليه السلام، ألا تراه قد طوى هذه الأقسام وأمثلتها وأغناها عنها ما تكلم عنه ومثّل له، لما كانت هذه الأقسام لا تختلف عما ذكره فى الأحكام إذ إن جميعها داخلٌ تحت قوله: «أتبعث الثانى للأول، إما بدلًا، أو عطف بيان، أو قطعته عن التبعية».

ولا يشذ واحد منها عن هذا الحكم، فأغناه ما اختاره عن ذكر هذا ما دام حكمه معلوماً وأمره مفهوماً.

وليس كذلك لو أنه أثر بالذكر قسمًا آخر من الأقسام التي طواها وهي في نفسه قائمة وأمام عين المتأمل ماثلة؛ لأنها غير جامعة للأنواع الأربعة، وتلك دقة ومقدرة زمامها بيد ابن هشام، مكنا له من الإيجاز والإيضاح مجتمعين، وجعلنا الفصاحة والبلاغة تأتيا له طائعين.

الثاني: قوله: «وإن كانا مفردين كسعيد كرز جاز ذلك، ووجه آخر، وهو إضافة الأول إلى الثاني، وجمهور البصريين يوجب هذا الوجه، ويرده النظر، وقولهم: هذا يحيى عينان» بضم النون.

ألا تراه قد ارتضى مذهب الكوفيين، ودل على ذلك مقابله بما رآه جمهور البصريين، وقد نفى ما ذهب إليه هذا الجمهور من البصريين بدليلين:

الدليل الأول: عقلى، وهو ما يلزم عليه من إضافة الشيء إلى نفسه، وذلك معيب في الصناعة النحوية، ولا مفر منه إلا بتأويل الأول بالمسمى، وتأويل الثاني بالاسم حتى تكون مغايرة فتستقيم الإضافة، ومما هو مسلم أن ما لا يحوج إلى تأويل أولى مما يحوج إلى ذلك التأويل، وهذا معنى قوله: «ويرده النظر» إنه إيجاز يشبه الإعجاز!

والدليل الآخر: نقلى، وهو ما نطقت به العرب وتلقاه القوم بالقبول، وهو قولهم في رجل ضخم العينين: «هذا يحيى عينان» بضم النون، فلو أنه كان مضاعفاً لقالوا على اللغة الفصحى: عينين، ولكنهم لم يقولوه، بل لم يقولوا عينان بكسر النون على لغة من يلزم المثنى الألف في الأحوال الثلاثة، كما أنهم لم يقولوا عينان بفتح النون حتى يقال أنه جاء على لغة من يلزم المثنى الألف في جميع أحواله ويعربه إعراب ما لا ينصرف، فاستبان من هذا دقة المؤلف وسلامة عبارته، وقوة حجته، والله يزيد في الخلق ما يشاء.

٢ - وقال في المستثنى: فصل:

والمستثنى بسوى كالمستثنى بغير في وجوب الخفض، ثم قال الزجاج وابن

مالك: سوى كغير معنى وإعراباً ويؤيدهما حكاية الفراء «أتانى سواك» قالوا:
ولا تخرج عن النصب على الظرفية إلا فى الشعر كقوله:

ولم يبق سوى العـدوا

ن دناهم كـمـا دانوا

وقال الرمانى والعبرى: «تستعمل ظرفاً غالباً وكغير قليلاً، وإلى هذا أذهب»
ألا تراه قد حكى أقوال العلماء وذكر أدلتهم واختار مذهب بعضهم، ومن
عجب أن ما اصطفاه وذهب إليه لم يدل عليه، ولم يعلل له، وإن كانت العلة
واضحة؛ وهى سلامته من تكلف التأويل.

وقال فى مسوغات مجيء صاحب الحال نكرة: فصل:

وأصل صاحب الحال التعريف، ويقع نكرة بمسوغ، كأن يتقدم عليه الحال
نحو: فى الدار جالساً رجل، وقوله:

* لمية موحشاً طلل *

أو يكون مخصوصاً إما بوصف كقراءة بعضهم: «ولما جاءهم كتابٌ من عند
الله مصداقاً» [البقرة: ٨٩].

وقول الشاعر:

نجيت يا ربّ نوحاً واستنجبت له

فى فلك ماخر فى اليمّ مشحوناً

وليس منه: «فيها يُفَرَّق كل أمر حكيم أمراً من هـندنا» [الدخان: ٤] خلافاً
للناظم وابنه، فقد أعرب الناظم «أمراً» الثانية حالاً من «أمر» الأولى فى
التسهيل، كما أعربه ابنه بدر الدين فى شرح النظم، والذى حملهما على هذا
الإعراب كون أمر المجرور مختصاً بالوصف «حكيم»، وقد نفى ابن هشام ما
ذهب إليه، وله الحجة البالغة عليهما من كلامهما حيث قال ابن مالك:

ولا تجز حالاً من المضاف له

إلا إذا اقتضى المضاف ممله

أو كان جزء ماله أضيفا

أو مثل جزئه فلا تحيفا

ووافق ابنه، وأعانه عليه النحاة السابقون واللاحقون، و «أمر» الأولى هنا مضاف إلى «كل»، وليس كل بعض الأمر، أو مثل بعضه، أو عاملاً للنصب في «أمر» الثانية، فالحق مع ابن هشام، والحق أحق أن يتبع.

وكان على ابن هشام أن يبين لنا وجه النصب ولعله تركه لوضوحه، وهو أنه منصوب بأخص محذوقاً، أو مفعول لأجله، أو حال من «كل»، أو حال من فاعل «أنزلنا»، أو من مفعوله في قوله الله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣].

هذا وقد استدرك ابن هشام على ابن مالك وابنه بدر الدين الذي شرح ألفية والده في أكثر من موضع، منها: الحال المؤكدة لصاحبها فقد أغفلها على حين أن ابن هشام أثبتتها ومثل لها في هذا الكتاب، وفي غيره من مؤلفاته.

٤ - ثم انظر إلى براعته حيث انحاز إلى مذهب الكوفيين واختار رأيهم في مجيء «من» لابتداء الغاية الزمانية لما رأى أن الحق معهم والشواهد تؤيدهم.

قال رضى الله عنه: «الثالث: ابتداء الغاية المكانية باتفاق نحو: ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ [الإسراء: ١] والزمانية خلافاً لأكثر البصريين» ولنا قوله تعالى: ﴿من أول يوم﴾ [التوبة: ١٠٨] والحديث: «فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة» (*).

وقول الشاعر:

تخيرن من أزمان يوم حليلة

إلى اليوم قد جربن كل التجارب

وتبدو دقة ابن هشام ولباقته إذا وزنت عبارته بعبارة ابن مالك في هذا المعنى: قال جمال الدين الطائي في ألفيته رحمه الله:

(*) أخرجه البخارى في الجمعة ٩٦٠، مسلم في الاستسقاء ١٤٩٠، النسائي في الكسوف ١٤٨٦.

بَعْضُ وَبَيْنَ وَابْتَدَى فى الأمكنه

بمن وقد تأتى لبسده الأزمنه

فإن بيت ابن مالك لم يدل صراحة على رأيه، ولم يشر إلى مذهب البصريين أو الكوفيين.

وقد عنى العلماء بالتعليق على «أوضح المسالك»، فشرحه الشيخ خالد بن عبد الله الأزهرى وسمى شرحه «التصريح بمضمون التوضيح» فرغ من كتابته سنة ٨٩٠ هجرية.

ومن الحواشى على التوضيح حاشية العلامة السيوطى سماها التوشيح، وحاشية عز الدين محمد بن شرف الدين أبى بكر بن جماعة ^(١)، وحاشية جمال الدين أحمد بن عبد الله بن هشام النحوى ^(٢)، وحاشية بدر الدين بن محمود بن أحمد العينى ^(٣)، وحاشية برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن الكركى ^(٤)، وحاشية محبى الدين عبد القادر بن أبى القاسم السعدى المالكى ^(٥)، سماه «رفع الستور والأرائك عن مخبآت أوضح المسالك» وحاشية سيف الدين محمد بن البكرى ^(٦)، وقد نظم هذا الكتاب وشرح نظمه ^(٧).

(١) توفى سنة ٨١٩ .

(٢) توفى سنة ٨٣٥ .

(٣) توفى سنة ٥٥٨ .

(٤) توفى سنة ٨٩٠ .

(٥) توفى سنة ٨٨٠ .

(٦) توفى فى حدود سنة ٨٧٠ .

(٧) الذى نظمه وشرحه هو أبو عبد الله محمد بن حمدون السلمى المرداسى المعروف بابن الحاج المتوفى سنة ١٢٧٤ هجرية، وللشيخ يس حاشية على «التصريح مشهورة».

مغنى اللبيب عن كتب الأعراب

لهذا الكتاب من اسمه أوفر حظ وأوفى نصيب، والحق أن ابن هشام كان موقفاً في كل كتاب، ملهماً في تخير الألقاب، وقد تجلّى توفيقه كاملاً في مغنيه الذي هذب فيه النحو، وجمع فيه إلى دقة اللفظ رقة حواشيه، ولم يغادر شاردة لهذا العلم إلا أحصاها، ولا واردة إلا جلاها، وكل شيء له مساس بالنحو فصلّه، وكل حكم بحته وحلّله.

وقد تصدى في هذا السفر الجليل لجميع المسائل فقتلها بالبحث الدقيق، وتعرض لكافة المشاكل فتناولها بالدرس العميق، ثم أخرجت يده الصنّاع عصارة في الفن صافية تسر الناظرين، وخلاصة للعلم شافية تسوغ للشاربين، وليس غريباً على ابن هشام أن يمنح العربية كتاباً «المغنى» مبراً من الهفوات، سليماً من التكرار والزيادات، لا شية فيه مما ألفه المؤلفون السابقون؛ إذ كانوا عن التكرار لا يعدلون، ومن ذكر مسائل ليست في صميم العلم يكثرون، ويأعراب الواضح يولعون ويلهجون، مما وسم كتبهم بالطول والفضول.

ولكن ابن هشام نثر كنانة النحو بين يديه، ونخل هذا العلم أمام عينيه، وجعل «المغنى» في صميمه، لا غناء معه، ولا غبار عليه، ووشّاه بحلية تحبيه إلى قلوب الباحثين، وثبته في نفوس القارئ، هي مسائل التدريب والتمرين، التي استبق فيما اعتقد بابها، وأرسى أصولها وأحكم أسبابها، وجعل متعاطى النحو في مدرسته قادراً على فهم التراكيب، بارعاً في محاكاة الأساليب.

قال رحمه الله في مقدمة هذا الكتاب: «واعلم أنني تأملت كتب الإعراب فإذا السبب الذي اقتضى طولها ثلاثة أمور:

أحدها: كثرة التكرار: فإنها لم توضع لإفادة القوانين الكلية، بل للكلام على الصور الجزئية، فستراهم يتكلمون على التركيب المعين بكلام، ثم حيث جاءت نظائره أعادوا ذلك الكلام، ألا ترى أنهم حيث مر بهم مثل الموصول في قوله تعالى: ﴿هَدَى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢ ، ٣] ذكروا فيه

ثلاثة أوجه، وحيث جاءهم مثل الضمير المنفصل من قوله تعالى: ﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾ [المائدة: ١١٧] ذكروا فيه وجهين، ويكررون ذكر الخلاف فيه إذا أعرب فصلاً، أله محل باعتبار ما قبله، أما باعتبار ما بعده أم لا محل له، والخلاف فى كون المرفوع فعلاً، أو مبتدأ إذا وقع بعد «إذا» فى نحو: ﴿إذا السماء انشقت﴾ [الانشقاق: ١]، أو «أن» نحو: ﴿وإن امرأة خافت﴾ [النساء: ١٢٨] إلى أن قال: وكذلك يكررون الخلاف فى جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الخافض، وعلى الضمير المتصل المرفوع من غير وجود الفاصل، وغير ذلك مما إذا استقصى أمل القلم، وأعقب السام، فجمعت هذه المسائل ونحوها مقررة محررة فى الباب الرابع من هذا الكتاب فعليك بمراجعته فإنك تجد فيه كنزاً واسعاً تنفق منه، ومنهلاً سائغاً تردده وتصدر عنه.

الامر الثانى: إيراد ما لا يتعلق بالإعراب، كالكلام فى اشتقاق «اسم» أهو من السمة كما يقول الكوفيون، أم من السمو كما يقول البصريون، والاحتجاج لكل من الفريقين، وترجيح الراجح من القولين، وكالكلام على «ألفه» لم حذف من البسمة خطأ، وعلى باء الجر ولامه لم كسرتا، وكالكلام على ألف «ذا» الإشارية، أزائدة هى كما يقول الكوفيون، أم منقلبة عن ياء هى عين واللام ياء أخرى محذوفة كما يقول البصريون، والعجب من «مكى بن أبى طالب» إذ أورد مثل هذا فى كتابه «الموضوع لبيان مشكل الإعراب» مع أن هذا ليس من الإعراب فى شيء، وبعضهم إذا ذكر الكلمة ذكر تكسيرها وتصغيرها، وتأنيثها وتذكيرها، وما ورد فيها من اللغات، وما روى من القراءات وإن لم ينبئ على ذلك شيء من الإعراب.

والثالث: إعراب الواضحات: كالمبتدأ وخبره، والفاعل ونائبه، والجار والمجرور، والعاطف والمعطوف، وأكثر الناس استقصاء لذلك «الحوفى» وقد تجنبت هذين الأمرين وأتيت مكانهما بما يتبصر به الناظر ويتمرن به الخاطر، ومن إيراد النظائر القرآنية والشواهد الشعرية، وبعض ما اتفق فى المجالس النحوية.

فجزاه الله كفاء ما مرّن عن خواطر وبصر من نواظر، وأقدر الناشئين على

صناعة الإنشاء بعد أن كان العاكف على النحو سنين عدداً يعجز عن إنشاء كتاب كريم من الخطأ النحوى سليم.

وابن هشام أبدع فى هذا الكتاب على غير مثال سابق يحتذ به، وليس غريباً على إمام فى قمة حياته العلمية أن يفتح فتحاً مبيناً فى المؤلفات النحوية، وقد تطامنت له اللغة العربية وصارت مسائل النحو أمامه كدُرٍّ مختلف حجمه، ولولؤ لم يرقه نظمه، فأعمل ذوقه السليم فى رصفه، وضم الإلف إلى إلفه، بعد نفى خزفه وزيفه، مما طفحت به كتب النحو، وهو منه براء، ثم أضفى عليه من فصاحة لسانه وسحر بيانه ما جعله كالدر فى العقد، أو كالعقد فى الجيد، وتوجه بالإشارة إلى نكت إعراب القرآن كلها، وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرهما؛ فجاء روضاً معطوراً، وكتاباً مسطوراً، سواء العاكف فيه والباد:

كالبحر يقذفُ للقريب جواهرها

جوداً ويرسل للبعيد سحائبها

كالشمس فى كبد السماء وضؤها

يفشى البلاد مشارقاً ومغاربها

متى واين ألف هذا الكتاب؟

لقد كفانا ابن هشام مؤنة البحث عن الزمان والمكان اللذين دبج فيهما هذا الكتاب؛ قال فى مقدمته: «وقد كنت فى عام تسعة وأربعين وسبعمائة أنشأت بمكة - رادها الله شرقاً - كتاباً فى ذلك منوراً من أرجاء قواعده كل حالك، ثم إننى أصبت به وبغيره فى منصرفى إلى مصر، ولما من الله علىّ فى عام ستة وخمسين بمعاودة حرم الله والمجاورة فى خير بلاد الله، شمّرت من ساعد الاجتهاد ثانية، واستأنفت العمل لا كسلاً ولا متوانياً، ووضعت هذا التصنيف على أحسن إحكام وترصيف، وتتبع فيه مقفلات مسائل الإعراب فافتتحتها، ومعضلات يستشكلها الطلاب فأوضححتها ونقحتها، وأغلاطاً وقعت لجماعة من المعريين وغيرهم فنبهت عليها وأصلحتها، فدونت كتاباً تُشد الرحال فيما دونه، وتقف عنده فحول الرجال ولا يعدونه، إذ كان الوضع فى هذا الغرض لم تسمح قريحة بمثاله، ولم ينسج ناسج على منواله.

السبب فى هذا الكتاب

قال رحمه الله: «ومما حثنى على وضعه أننى لما أنشأت فى معناه: المقدمة الصغرى المسماة بالإعراب عن قواعد الإعراب، حسن وقعها عند أولى الألباب، وصار نفعها فى جماعة الطلاب، مع أن الذى أودعته فيها بالنسبة لما ادخرته عنها كشذرة من عقد نحر، بل كقطرة من قطرات بحر».

متى فرغ منه؟

قال رحمه الله في ختامه: «وأسأل الله الذي منَّ علىَّ بإنشائه وإتمامه في البلد الحرام في شهر ذي القعدة الحرام، ويسر علىَّ إتمام ما ألحقت به من زوائد في شهر رجب الحرام أن يحرم وجهي على النار».

هل المغنى متحل لابن هشام؟

دفع هذه الفرية

مما تقدم نعلم ونجزم بأن «المغنى» من صنع ابن هشام، كيف لا، وقد ألف كتاباً بهذا المعنى في رحلته الحجازية الأولى عام الوباء الفتاك بالديار المصرية وبغيرها من بقاع الأرض، وبأن الدافع له على إخراجه هذا المؤلف تهافت الناس على نواته التي ألفها من قبل وهي الإعراب عن قواعد الإعراب، ومما يتفق احتمال انتحاله ما اتصف به المؤلف من طيب أعراق، وما أجمع عليه الكرام الكاتبون من أن ابن هشام كان معدن أخلاق، وما يقال من أن المؤلف انتحله ونسبه إلى نفسه فهو محض افتراء، بل هو حسد واجتراء، «وقديماً كان في الناس الحسد»، «وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً» [الفرقان: ٥].

هل فى النحو مغنى لغير ابن هشام؟

أجل: أن فى النحو وفى غيره كتباً أخرى تحمل لقب «المغنى» والذى يعيننا هنا إنما هو ما أطلق عليه هذا الاسم من كتب النحو، وهى ثلاثة، وواضح أن الذى أطلق على كل واحد منها لفظ المغنى وحده، على حين أن مؤلف ابن هشام اسمه فى الأصل «مغنى اللبيب عن كتب الأعراب».

وأول الثلاثة: مغنى محمد^(١) بن إسحق بن أسباط الكندى أبى النضر المصرى النحوى، وهو متقدم، أخذ عن الزجاج، وله فى النحو غير المغنى «العيون والنكت»، و «الموقد»، و «البلغتان»، وكان شيخ أهل الأدب، وله تقدم فى المنطق وعلوم الأوائل.

والثانى: مغنى منصور بن فلاح بن محمد بن سليمان بن معمر اليمنى الشيخ تقى الدين أبى الخير المشهور بابن فلاح النحوى^(٢)، له مؤلفات فى العربية منها: «الكافى»، جزء فى غاية الحسن، توفى سنة ثمانين وستمائة هجرية.

والثالث: مغنى أحمد فخر الدين بن الحسن الجاربردى^(٣)، وهو الذى كتب على شافية ابن الحاجب، وقد توفى بتبريز سنة ٧٤٦ هجرية.

وظاهر أن هذه الكتب الثلاثة مجتمعة ومتفرقة لم تبلغ معشار ما بلغه مغنى اللبيب؛ والدليل على ذلك أنها ظلت مغمورة وتوشك أن تكون مقبورة، لم ترزق سعة فى القبول وما بزغ نجمها حتى هدده الأفلو، وإن كان ابن هشام بين اونة وأخرى يشير إلى أحدها، وهو فيما اعتقد مغنى ابن فلاح.

(١) بغية الرعاة ص ٢١ .

(٢) بغية الرعاة ص ٣٩٨ .

(٣) كشف الظنون ٢ : ٢٩٧ .

عود على بدء

أرى مما تقدم أن ابن هشام - وهو الراسخ في علمه الناضج في فنه، الأمين في نقله - لم يتحل هذا الكتاب، ويؤيدني في هذا الرأي أن جمهرة من فحول النحاة كالدمايني، والشُّمْنِي، وابن الصائغ، والدسوقي، والأبياري تناولوا هذا الكتاب بالشرح والتعليق، ولم يقل واحد منهم إن ابن هشام انتحل هذا الكتاب.

وأني لرجل عفيف شريف يأوى إلى بيت الله الحرام في الأشهر الحرم، ثم يسطو على تراث غيره في مهد النبي الصادق، ومبعث الرسول الأمين ﷺ، ومما يزيد في هذا البعد أن كان الفراغ من تأليف هذا العقد في ذى القعدة من أشهر الحج، وإن روح ابن هشام متجلية فيه وطابعه باد عليه، وبحوثه تشف عنه.

مميزات هذا الكتاب إجمالاً

- ١ - الإحاطة بأطراف الموضوعات النحوية إحاطة لم تدع شيئاً دون أن تنص عليه وتبينه.
- ٢ - التعمق في بحث المسائل وتقليبها على جميع وجوهها، ودعمها بالأدلة والبراهين.
- ٣ - الإفاضة في الشواهد العربية الصحيحة التي تؤيد ما ذهب إليه، ولها كلام يأتي.
- ٤ - بسط القول في آراء النحاة وتمحيص الصواب من بينها وتعقيبه عليها ببيان رأيه فيها، أو انحيازه لواحد منها.
- ٥ - كثرة الاحتجاج بالقراءات وتخريجها وفق القواعد العربية السليمة.
- ٦ - إنارة السبيل لدفع اعتراضات تردُّ على كتاب الله تعالى وسنة رسول ﷺ وغريب الشعر.
- ٧ - الدقة في التأليف والإحكام في التصنيف، ووضع كل شيء في مكانه اللائق به والملائم له، ويتجلى ذلك في كل باب من أبوابه الثمانية.
- ٨ - وضع قوانين في إعراب القرآن الكريم تضبط آياته المحكمات.
- ٩ - ذكر أمور يزين المغرب علمها وشينه جهلها، وترك أمور ذكرها في الإعراب فضول.
- ١٠ - فتح باب التدريب على مصراعيه، وهو الذي سبقت الإشارة إليه، وهذا أثر بارز لابن هشام يذكر فيشكر؛ لأنه عبّد به طريق النحو ونخله، فأبقى على اللباب ونفى النفاية، ونقله إلى الناحية الفنية، وهي ناحية الإعراب وأسبغ عليه من عباراته الطلية ما حبه إلى النفوس وقربه من الأفهام، وجعل المتلمذ

على كتابه يتذوق طعم النحو وشيكا، ثم لا يلبث أن يصيب منه ملكة تصير له كالغريزة ويصبح معها يسنّ في النحو ويقطع.

وطريقة ابن هشام في كتبه - ولا سيما المغنى - هي الطريقة المثلى، بل المثل الأعلى الذي سار عليه وهدف إليه من جاء بعده بأمد بعيد، واقتفى أثره بعض المعاصرين ^(١) فأسعفوا الناشئين في الناحية التطبيقية بما جلا عن النحو ما تراكم عليه وشوه من جماله من صداد الحواشى والتقارير التى أوغل فى حشوها بالمصطلحات العلمية من تنكّب طريقة ابن هشام، والتى لا تلائم إلا من قطع مرحلة كبيرة فى دراسة هذا العلم.

أما الطالب الناشئ فإنه يضلّ فى بيدها ويملّ تحصيلها.

فلهذا الإمام فضل تصفية النحو وتنقيته، وتبسيطه وتسهيله، وجعله قنّا يستهوى الناظر فيه، ويأخذ بيده إلى حيث يفقهه وينبغ فيه ويحاكيه، ولم يعد جادة الصواب من حكم بأن «المغنى» أحيّا ثلث النحو، والثلث كثير إذا كان مرتبطاً بالناحية الفنية.

فكتب ابن هشام وفى طليعتها «المغنى» من النحو كالعلاج فى الطب والخطابة فى الأدب والمثقف بها كالطبيب المداوى، والخطيب المداوى، - وسواها إلا قليلا من كتب سابقه ومعاصره ولاحقه - تعوزه فصاحة العبارة، ويزهد فيها ما اشتملت عليه من تعقيد وما غصّت به الشروح والحواشى والتقارير من اصطلاحات لا يمسها الاستطراد من قريب وإنما يتمحل لها المؤلفون، ويتلمسون لها الأسباب، إظهاراً لما تكنه صدورهم فى تلك المواد، ومثل ذلك ما كلفوا به فى مقدمات كتبهم من تقديم الكلم عن مواضعه، وهذا من شأنه أن يشوش على الناشئ ويجعل ذهنه قليلاً، وفهمه للمقصود عليلاً.

إن جل الكتب نأى بها ما جللت به عن أن يستفيد منها الفائدة التامة المرجوة أولئك الناشئون، وكاد يجعلها ما علق بها وفقاً على طبقات خاصة هى التى قطعت مراحل فى العلم وهؤلاء لا يشفون غليلهم منها ولا يحسنون الحديث

(١) أمثال الأساتذة الأعلام «أحمد بك يوسف نخاتى، وعلى بك الجارم» وأولهما أطول باعاً وأبعد مدى وأكثر شبيهاً بابن هشام فى كتابه: التطبيقات العربية.

عنها إلا بعد عكوفهم عليها وكدّ فكرهم فيها، وهذا الطوائف فى أعلى مراتبها من نضج فى العلم لا تبلغ الفن فالخاذاق لها يشبه المسن، وهذا ما صدف عنه ابن هشام فى كتبه على تفاوتها قبضاً وبسطاً، فهو إن أوجز ففى النحو يتكلم ويلقن، وإن أرخى العنان وأطال النفس ففيه يخدم، وعنه يعلن، حتى فتح مجاهله وحل مشاكله وصوره فأحسن صورته، وألبسه حلة زادتة جمالاً وجلالاً، وأكسبته رواجاً وقبولاً.

والنحو علم قديم كالصرح العظيم، تناوله المصلحون بالطلاء والترميم، حتى جاء ابن هشام، فراه يريد أن ينقض فنقضه، ثم أعمل فيه فكره وأنعم نظره، واستلهم الذوق العربى، واستوحى الفن الهندسى، وطفقت يده الصناعات ترفع القواعد من البيت حتى أنشأ خلقاً آخر ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ [المؤمنون: ١٤].

شواهد المغنى

إن «المغنى» من أغنى الكتب بالشواهد، وإذا صح أن الشاهد في علم النحو هو النحو، وهو قول مُسلمٌ مقبول إذا توفر للشاهد ما قرره البغدادى فى مقدمة «خزانة الأدب» فإن المغنى كالنبع الصافى والجدول المتدفق بالصحيح من الشواهد التى تأخذ بنواصى القواعد؛ أما الآيات القرآنية فقد أفاض فيها وكان لها الغلب على سواها من سائر الشواهد.

وأما الأحاديث النبوية فقد حوى الكتاب قدرًا مما صح منها.

وأما جيد الشعر العربى، السليم من الوهن والتجريح، فأحسب أن الكتاب أوفى على الغاية منه، وقد بلغت الآيات فى مجموعها اثنين وتسعمائة شاهد.

وقد وعى الكتاب طائفة من كلام العرب تأتى فى المرتبة الأخيرة، ولم يقت المؤلف أن يشرح شواهد هذا الكتاب، وقد شرحها السيوطى، وكتابه مطبوع مشهور، كما شرحها العلامة البغدادى شرحًا دقيقًا مفصلاً، وهو مخطوط فى مجلدين ضخمين توجد منه نسخة واحدة فى دار الكتب المصرية «رقم ٢ نحو ش خصوصية رقم ٤٢٧٤٧ عمومية».

وقد اطلعت عليها وسأنتقل عنها بعض ما كتبه فيما يأتى:

«شواهد من الآيات القرآنية يتخللها غيرها من حديث وشعر ونثر»

١ - قال رحمه الله فى معانى «عن» الحرفية:

الثانى: البدل نحو: «وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا» [البقرة: ٤٨] وفى الحديث: «صومى عن أمك» (*).

الثالث: الاستعلاء نحو: «فإنما ييخل عن نفسه» [محمد: ٣٨] وقول ذى الأصبع^(١):

(*) أخرجه: مسلم فى الصيام ١٩٣٨، البخارى فى الصوم ١٨١٧.

(١) هو حرثان العدوانى حكيم عربى جاهلى.

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب

عنى ولا أنت ديانى فتخزونى

الرابع: التعليل: نحو: ﴿ما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة﴾ [التوبة: ١١٤] ونحو: ﴿وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك﴾ [مرد: ٥٣]، ﴿وما فعلته عن أمرى﴾ [الكهف: ٨٢].

الخامس: مرادفة بعد نحو: ﴿عمًّا قليل ليصبحن نادمين﴾ [المؤمنون: ٤٠] ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦] بدليل أن فى مكان آخر: ﴿من بعد مواضعه﴾ [النساء: ٤٦]، ونحو: ﴿لتركن طبقًا عن طبق﴾ [الانشقاق: ١٩] أى: حالة بعد حالة.

وقال:

* ومنهل وردته عن منهل *

السادس: الظرفية: كقوله: (١)

وأس سراً الحى حيث لقينهم

ولا تك عن حمل الرباعة وانيا

الرباعة: لحجوم الحملالة، قيل: لأن وفى لا يتعدى إلا بفى بدليل: ﴿ولا تنيا فى ذكرى﴾ [طه: ٤٢] والظاهر أن معنى وفى عن كذا: جاوزه ولم يدخل فيه، وونى فيه: دخل فيه وفتر.

السابع: مرادفة من نحو: ﴿وهو الذى يقبلُ التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات﴾ [الشورى: ٢٥] الشاهد فى الأول: ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ [الاحقاف: ١٦] بدليل: ﴿فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾ [المائدة: ٢٧] ﴿ربنا تقبل منّا﴾ [البقرة: ١٢٧].

الثامن: مرادفة الباء: نحو: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ [النجم: ٣] والظاهر أنها على حقيقتها، وأن المعنى: وما يصدر قوله عن هوى.

(١) هو الأعشى ميمون.

التاسع: الاستعانة: قاله ابن مسالك، ومثله: رميت عن القوس لأنهم يقولون أيضاً رميت بالقوس، حكاهما الفراء، وفيه رد على الحريري في إنكاره أن يقال ذلك إلا إذا كانت القوس هي المرمية، وحكى أيضاً على القوس^(١).

٢ - عند اسم للحضور الحسن نحو: ﴿فلما رآه مستقراً عنده﴾ [النمل: ٤٠] والمعنى نحو: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ [النمل: ٤٠] وللقرب كذلك، ﴿عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى﴾ [النجم: ١٤] ونحو: ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ [ص: ٤٧] وكسر فائها أكثر من ضمها وفتحها، ولا تقع إلا ظرفاً، أو مجرورة بمن.

وقول العامة ذهبت إلى عنده لحن، وقول بعض المولدين

كل عندك عندي

لا يساوى نصف عندي

قال الحريري: لحن وليس كذلك بل كل كلمة ذكرت مراداً بها لفظها فسائغ أن تتصرف فيها تصرف الأسماء، وأن تعرب ويحكى أصلها.

(١) معنى الليب ١ : ١٢٦ : ١٢٧ .

«تبيينان»

الأول: قولنا «عند» اسم للحضور موافق لعبارة ابن مالك، والصواب اسم لمكان الحضور، فإنها ظرف لا مصدر، وتأتي أيضاً لزمانه نحو: «الصبر عند الصدمة الأولى» (١).

الثاني: تعاقب عند كلمتان لدى مطلقاً نحو: «لدى الحناجر» [غافر: ١٨] «لدى الباب» [يوسف: ٢٥] «وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون» [آل عمران: ٤٤]، ولدن إذا كان المحل محل ابتداء غاية نحو جئت من لدنه، وقد اجتمعا في قوله تعالى: «آتيانه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً» [الكهف: ٦٥].

٣ - كل: ذكرت في موطن آخر شواهد شعرية لكل، وإنى مورد هنا بعض الشواهد الثرية من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية:

قال تعالى: «إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدّهم عدداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً» [مريم: ٩٥] وفي الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته» الحديث، وقال عليه الصلاة والسلام: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» «كلكم راع وكلكم مشول عن رعيته» ومن ذلك: «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشلولاً» [الإسراء: ٣٦] (٢).

٤ - قال في الكلام على «بلى»: وتختص بالنفى وتفيد إبطاله سواء أكان مجرداً نحو: «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي» [التغابن: ٧] أم مقروناً بالاستفهام حقيقياً كان نحو: أليس زيد بقائم؟ فتقول: بلى، أو توييحياً نحو: «أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم» [الزخرف: ٨٠] بلى «أيحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه» [القيامة: ٣] بلى، أو تقريرياً نحو: «الم يأتكم نذير قالوا بلى» [الأنعام: ١٣٠] «ألم يأتكم نذير قالوا بلى» [الأعراف: ١٧٢].

(١) معنى الليب ١ : ١٣٢ : ١٣٣ .

(٢) معنى الليب ١ : ١٦٦ .

ثم حكي الاتفاق على أن «بلى» لا يجاب بها عن الإيجاب، واستدرك بما وقع في كتب الحديث مما يقتضى أنها يجاب بها الاستفهام المجرى فذكر ما روى في صحيح البخارى في كتاب الإيمان من أنه عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قالوا بلى»(*).

وفى صحيح مسلم فى كتاب الهبة «أيسرك أن يكونوا لك فى البر سواء؟ قال بلى، قال: فلا آذن»(*).

وفيه أيضاً أنه قال: «أنت الذى لقيتنى بمكة؟ فقال له: بلى»(*).

ثم قال ابن هشام: وليس لهؤلاء أن يحتجوا بذلك؛ لأنه قليل فلا يتخرج عليه التزويل^(١).

٥ - وقال فى «بيد» هو اسم ملازم للإضافة إلى أن وصلتها، وله معنيان: أحدهما: «غير» إلا أنه لا يقع مرفوعاً، ولا مجروراً بل منصوباً، ولا يقع صفة، ولا استثناء متصلاً، وإنما يستثنى به فى الانقطاع خاصة، ومنه الحديث: «نحن الآخرون السابقون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا»(*).

وفى مسند الشافعى رضى الله عنه: «بيد أنهم» وفى الصحاح: «بيد» بمعنى «غير» يقال: إنه كثير المال بيد أنه بخيل.

وفى «المحكم» أن هذا المثال حكاه ابن السكيت، وأن بعضهم قسرها فيه بمعنى: «على» وأن تفسيرها «بغير» أعلى.

والثانى: أن تكون بمعنى «من أجل» ومنه الحديث: «أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أنى من قریش واسترضعت فى بنى سعد بن بكر»^(٢).

(*) أخرجه: البخارى فى الرقاق ٦٠٤٧، مسلم فى الإيمان ٣٢٤، الترمذى فى صفة الجنة ٢٤٧٠.
(**) أخرجه: مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها ١٣٧٤، النسائى فى الطهارة ١٤٧، ابن ماجه فى الطهارة وسنتها ٢٧٩.

(***) أخرجه: البخارى فى الهبة ٢٣٩٧ مسلم فى الهبات ٣٠٥٩، الترمذى فى الاحكام ١٢٨٨.
(١) معنى اللبيب ١ : ١٠٢.

(****) أخرجه: البخارى فى الجمعة ٨٢٧، مسلم فى الجمعة ١٤١٢، النسائى فى الجمعة ١٣٥٠.
(٢) هو التابعة الديانى.

وقال ابن مالك وغيره إنها هنا بمعنى: غير على حد قوله:
 ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
 بهن فلول من قراع الكتائب
 وأنشد أبو عبيدة على مجيئها بمعنى من أجل:
 ممدًا فعلت ذاك بيد أنى
 أخفاف إن هلك أن ترني^(١)

هل يشف المغنى عن ابن هشام؟

لما كان «مغنى اللبيب» كالديوان لابن هشام، وديوان الشاعر يدل عليه وينبىء عنه إذا كانت روحه تبدو فيه فقد وجب علينا أن نبين شخصية ابن هشام من ثنايا هذا الكتاب، ونتتزع منه صورة تنطبق عليه وتضاهيه وتمثله وتحكيه، وتوضح شرعته ومنهاجه، وتكون أمثلة لما سيق النص عليه، وأدلة لما سلفت الإشارة إليه من موقفه بين البصريين والكوفيين، وانحرافه عن بعض السابقين، وهل كان من المجتهدين، أو من المرجحين، وما انفرد به، وما أخذ عليه، ودفع هذه المآخذ إن وجد إلى الدفع سبيل، مع الاستعانة ببعض مؤلفاته الأخرى؛ لأنها تنم عنه وتحمل طابعه.

الباب الثانى

مدرسة ابن هشام النحوية

- ابن هشام بين البصريين والكوفيين -

سبق القول أن ابن هشام لم يكن من التابعين للبصريين ولا من الملتزمين مذهب الكوفيين، وما كان متشددًا تشدد الأولين، ولا متهاونًا تهاون بعض الآخرين، بل كان أمة وسطًا بين الفريقين، وحكمًا عدلًا بين الحزبين، إن أحسن البصريون أطراهم، وارتضى مذهبهم، وأن وفق الكوفيون أقرهم واصطفى رأيهم، بيد أن المسائل التى فضل فيها رأى البصريين أكثر من المسائل التى رجح فيها مذهب الكوفيين؛ لأنه كان بالبصريين أشبه وإلى مدرستهم أقرب.

بعض ما وافق فيه البصريين

١ - إن بكسر الهمزة وسكون النون، وسأنقل كلامه برمته؛ لأن فيه أكثر من مثال لما أشرت إليه عدا ما هو مسوق له من الدلالة على موافقته للبصريين.

قال رحمه الله: إنها تأتي على أربعة أوجه:

أحدها: أن تكون شرطية نحو: ﴿إِنْ يَتَّبِعُوا يُغْفَرْ لَهُمْ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ﴿وإن تعودوا نعد﴾ [الأنفال: ١٩]، وقد تقرن بلا النافية فيظن من لا معرفة له أنها إلا الاستثنائية نحو: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يَعْذِبْكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩]، ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبَبَ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، وقد بلغني أن بعض من يدعى الفضل سأل في ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ [الأنفال: ٧٣] فقال: ما هذا الاستثناء امتصل أم منقطع؟

الثاني: أن تكون نافية، وتدخل على الجملة الإسمية نحو: ﴿إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]، ﴿إِنْ أَمْهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٠].

ومن ذلك: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليومن به قبل موته﴾ [النساء: ١٥٩] أى: وما أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به، حذف المبتدأ وبقيت صفة.

ومثله: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ [مريم: ٧١].

وعلى الجملة الفعلية نحو: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَى﴾ [التوبة: ١٠٧]، ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾ [النساء: ١١٧]، ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]، ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وقول بعضهم: لا تأتي «إن» النافية إلا وبعدها إلا كهذا الآيات، أو لما المشددة التى بمعناها كقراءة بعض السبعة: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] بتشديد الميم، أى: ما كل نفس إلا عليها حافظ مردود بقوله تعالى: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ [يونس: ٦٨].

﴿قل إن أدري أقرب ما توعدون﴾ [الجمعة: ٢٥]، ﴿وإن أدري لعله فتنه لكم﴾ [الأنبياء: ١١١] وخرج جماعة على إن النافية قوله تعالى: ﴿إن كنا فاعلين﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾ [الزخرف: ٨١]، وعلى هذا فالوقف هنا.

وقوله تعالى: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ [الأحقاف: ٢٦] أى: فى الذى ما مكناكم فيه، وقيل: رائدة، ويؤيد الأول: ﴿مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم﴾ [الأنعام: ٦٠]، وكأنه إنما عدل عن «ما» لثلاث تكرار فينقل اللفظ. قيل: ولهذا لما زادوا على «ما» الشرطية «ما» قلبوا ألف «ما» الأولى هاء، فقالوا: مهما.

وقيل: هى فى الآية بمعنى: «قد» وإن من ذلك ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ [الأعلى: ٩] وقيل فى هذه الآية: إن التقدير: وإن لم تنفع، مثل ﴿سراييل تقيمكم الحر﴾ [النحل: ٨١] أى: والبرد.

وقيل: إنما قيل ذلك بعد أن عمهم بالتذكير ولزمتهم الحجة.

وقيل: ظاهره الشرطية، ومعناه: ذمهم واستبعاد لنفع التذكير فيهم كقولك «عظ الظالمين إن سمعوا منك»، تريد بذلك الاستبعاد لا الشرط.

وقد اجتمعت الشرطية والنافية فى قوله تعالى: ﴿ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾ [فاطر: ٤١]، الأولى: شرطية، والثانية: نافية جواب للقسم الذى أذنت به اللام الداخلة على الأولى وجواب الشرط محذوف وجوباً.

وإذا دخلت على الجملة الاسمية لم تعمل عند سيبويه والقراء، وأجاز الكسائي والمبرد أعمالها عمل ليس، وقرأ سعيد بن جبير: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم﴾ [الأعراف: ١٩٤]، بنون مخففة مكسورة لالتقاء الساكنين ونصب عباداً وأمثالكم.

وسمع من أهل العالية أن أحد خيراً من أحد إلا بالعافية، وإن ذلك نافعك، ولا ضارك «بنصب نافع وضار».

ومما يتخرج على الإهمال الذى هو لغة الأكثرين قول بعضهم: «إن قائم»

وأصله أن أنا قائم فحذفت همزة أنا اعتباراً وأدغمت نون «إن» في نونها وحذفت ألفها في الوصل، وسمع إن قائماً على الإعمال.

وقول بعضهم نقلت حركة الهمزة إلى النون ثم أسقطت على القياس في التخفيف بالنقل، ثم سكنت النون وأدغمت مردود؛ لأن المحذوف لعلة كالثابت، ولهذا تقول: هذا قاض بالكسر لا بالرفع؛ لأن حذف الياء لالتقاء الساكنين، فهي مقدرة الثبوت، وحيشذ فيمتنع الإدغام؛ لأن الهمزة فاصلة في التقدير، ومثل هذا البحث في قوله تعالى: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: ٣٨].

والثالث: أن تكون مخففة من الثقيلة فتدخل على الجملتين، فإن دخلت على الاسمية جاز إعمالها خلافاً للكوفيين، ولنا قراءة الحرمين^(١) وأبى بكر: ﴿وإن كلاً لما ليوفينهم﴾ [هود: ١١١]، وحكاية سيويه: إن عمراً لمنطلق^(٢).

وقد كان الوجه الثالث يكفي للتدليل على أنه اختار مذهب البصريين، وأنه لأبلغ دليل حيث سلك نفسه في سماتهم وأضاف شخصه إليهم حيث قال: ولنا.

ولكني ذكرت الوجهين الأولين لاشتغالهما على الألوان التي اصطبغ بها كلام ابن هشام من سبك في العبارة وقوة في الحجة واستعراض لآراء النحاة وإفاضة في الاستشهاد بالقرآن وبالحديث، وهذا دأبه، وأكثر ما يتجلى في هذا الكتاب حيث يطالع القارئ بالشواهد القرآنية يأخذ بعضها بحُجَز بعض.

٢ - وقال في الكلام على «أن» بفتح الهمزة وسكون النون: وقد يرفع الفعل بعدها كقراءة ابن محيصن: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ [البقرة: ٢٣٣].
وقول الشاعر^(٣):

أن تقرأن على أسماء ويحكما

منى السلام وألا تُشعراً أحداً

وزعم الكوفيون أن «أن» هذه هي المخففة من الثقيلة شذ اتصالها بالفعل،

(١) هما نافع المدني وابن كثير المكي.

(٢) معنى اللبيب ١ : ٢٠٠ : ٢٢ .

(٣) لم يعلم له قائل .

والصواب قول البصريين؛ لأنها أن الناصبة أهملت حملاً على ما أختها المصدرية^(١).

٣ - من المعانى التى تأتى لها «أن» كونها بمعنى «ثلاثا»، قيل به فى «يبين الله لكم أن تضلوا» [النساء: ١٧٦] وقوله^(٢) :

نزلتم منزل الأضياف منا

فـمـجـلـنا القـرى أن تـشـتمـونا

والصواب أنها مصدرية، والأصل: كراهية أن تضلوا، ومخافة أن تشتمونا، وهو قول البصريين^(٣).

٤ - وقال فى الكلام على «أمين» المختص بالقسم إنه اسم لا حرف - خلافاً للزجاج والرماني - مفرد مشتق من اليمين وهو البركة وهمزته وصل، لا جمع يمين وهمزته قطع خلافاً للكوفيين، ويرده جواز كسر همزته وفتح ميمه، ولا يجوز مثل ذلك فى الجمع من نحو: أفلس وأكلب^(٤).

٥ - قال فى حذف الموصوف: واختلف فى المقدر مع الجملة فى نحو: منا ظعن ومنا أقام، فأصحابنا يقدرون موصوفاً أى: فريق، والكوفيون يقدرون موصولاً أى: الذى، أو من، وما قدرناه أقيس؛ لأن اتصال الموصول بصلته أشد من اتصال الموصوف بصفته، لتلازمهما، ومثله: ما منهما مات حتى لقيته، ن قدره بأحد، ويقدرونه بمن، «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به» [النساء: ١٥٩] أى: إلا إنسان، أو إلا من^(٥).

٦ - قال فى الكلام على «إن» بكسر الهمزة وهى المؤكدة التى تنصب الاسم وترفع الخبر: وقد يرفع بعدها المبتدأ فىكون اسمها ضمير شأن محذوفاً كقوله عليه الصلاة والسلام: «إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون»^(*) الأصل أنه أى الشأن.

(١) معنى اللبيب ١ : ٢٩ .

(٢) هو عمرو بن كلثوم.

(٣) معنى اللبيب ١ : ٢٤ .

(٤) معنى اللبيب ١ : ٩٢ .

(٥) معنى اللبيب ٢ : ١٥٩ .

(*) أخرجه: البخارى فى اللباس ٥٤٩٤، مسلم فى اللباس والزينة ٣٩٤٣، النسائى فى الزينة ٥٢٦٩

كما قال (١):

أن من يدخل الكنيسة يوماً

يلق فيها جاذراً وظياء

وإنما لم تجعل من اسمها لأنها شرطية بدليل جزمها الفعلين، والشرط له الصدر فلا يعمل فيه ما قبله.

وتخريج الكسائي الحديث على زيادة «من» في اسم إنَّ ياباه غير الأخفش من البصريين؛ لأن الكلام إيجاب والمجرور معرفة - على الأصح - والمعنى أيضاً ياباه؛ لأنهم ليسوا أشد عذاباً من سائر الناس (٢).

٧ - قال في المسألة الزنبورية: قالت العرب: قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي، وقالوا أيضاً: فإذا هو إياها، وهذا هو الوجه الذي أنكره سيبويه البصري لما سأل الكسائي إذ قال: فإذا هو هي ولا يجوز النصب، وسأله عن أمثال ذلك نحو: خرجت فإذا عبد الله القائم بالرفع، أو القائم بالنصب، فقال له: كل ذلك بالرفع إلى أن قال: وأما سؤال الكسائي فجوابه ما قاله سيبويه، وهو فإذا هو هي، هذا هو وجه الكلام، مثل: «فإذا هي ييضاء» [الأعراف: ١٠٨]، «فإذا هي حية» [طه: ٢٠].

وأما فإذا هو إياها إن ثبت فخارج عن القياس واستعمال الفصحاء كالجزم بلن والنصب بلم والجر بلعل، وسيبويه وأصحابه لا يلتفتون لمثل ذلك، وإن تكلم بعض العرب به (٣).

٨ - قال في الكلام على: «رب» إنها حرف جر خلافاً للكوفيين في دعوى اسميته، وقولهم أنه أخبر عنه في قوله (٤):

إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن

عاراً عليك ورب قتل عار

(١) هو الأخطل.

(٢) معنى الليب ١ ٣٥٠.

(٣) معنى الليب ١ ٨٢.

(٤) هو ثابت قطنة يرثي المهلب بن أبي صفرة.

ممنوع بل عار خبر لمحدوف، والجملة صفة للمجرور، أو خبر للمجرور إذ هو في موضع مبتدأ^(١).

٩ - قال: في الكلام على «ثم»: ويقال فيها فم كقولهم: في جدث جدف، حرف عطف يقتضى ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، والترتيب، والمهلة، وفي كل منها خلاف، فأما التشريك فزعم الأخفش والكوفيون أنه قد يتخلف وذلك بأن تقع زائدة فلا تكون عاطفة البتة وحملوا على ذلك قوله تعالى: ﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم﴾ [التوبة: ١١٨].

وقول رهير:

أراني إذا أصبحت أصبحت ذا هوى

فثم إذا أمسيت أمسيت غادياً

وخرجت الآية على تقدير الجواب، والبيت على زيادة الفاء^(٢).

١٠ - قال في الكلام على: «لكن»: ولا تدخل اللام في خبرها خلافاً للكوفيين، احتجوا بقوله:

* ولكنني من حبها لعميد *

ولا يعرف له قائل، ولا^(٣) تنمة، ولا نظير، ثم هو محمول على زيادة اللام، أو على أن الأصل لكن إنسى، ثم حذفت الهمزة تخفيفاً ونون لكن للساكين^(٤).

١١ - قال في حذف جواب الشرط: إن سيبويه وغيره من الأئمة نصوا على أنه لا يحذف الجواب إلا وفعل الشرط ماض، تقول: أنت ظالمٌ إن فعلت، ولا تقول: أنت ظالمٌ إن تفعل إلا في الشعر، وأما قول أبي بكر في كتاب

(١) معنى اللبيب ١ : ١١٦ .

(٢) معنى اللبيب ١ : ١٥٥ .

(٣) قيل إن صدره: يلومني في حب ليلى عواظي.

(٤) معنى اللبيب ص ٢٢١ .

«الأصول» إنه يقال: أتيتك إن تأتني فنقله من كتب الكوفيين، وهم يجيزون ذلك لا على الحذف بل على أن المتقدم هو الجواب، وهو خطأ عند أصحابنا لأن الشرط له الصدر^(١).

١٢ - قال في ذكر أحكام ما يشبه الجملة: لا بد من تعلقها بالفعل، أو ما يشبهه، أو ما أول بما يشبهه، أو ما يشير إلى معناه؛ فإن لم يكن شيء من هذه الأربعة موجوداً قدر كما سيأتي، وزعم الكوفيون وأبنا طاهر وخروف أنه لا تقدير في نحو: زيد عندك وعمرو في الدار.

ثم اختلفوا فقال أبنا طاهر وخروف الناصب المبتدأ، وزعموا أنه يرفع الخبر إذا كان عينه نحو: زيد أخوك، وينصبه إذا كان غيره، وأن ذلك مذهب سيبويه. وقال الكوفيون: الناصب أمر معنوي وهو كونهما مخالفين للمبتدأ، ولا معول على هذين المذهبين^(٢).

١٣ قال في الكلام على «حتى»: إنها تستعمل على ثلاثة أوجه: أحدها: أن تكون حرفاً جاراً بمنزلة «إلى» في المعنى والعمل ولكنها تخالفها في ثلاثة أمور:

أحدها: أن لمخفوضها شرطين:

أحدهما: عام، وهو أن يكون ظاهراً لا مضمراً خلافاً للكوفيين والمبرد؛ فاما قوله^(٣):

أنت حناك تقصد كل فج

ترجى منك أنها لا تخيب

فضرورة^(٤).

١٤ - وإنما قلنا إن النصب بعد «حتى» بأن مضمرة لا بنفسها كما يقول

(١) معنى الليب ٢ : ١٢٣

(٢) معنى الليب ٢ : ٧٢ .

(٣) لم أعثر له على قائل.

(٤) معنى الليب ١ : ١٠٩ .

الكوفيون؛ لأن حتى قد ثبت أنها تخفض الأسماء، وما يعمل فى الأسماء لا يعمل فى الأفعال، وكذا العكس^(١).

١٥ - قال فى المبتدأ والخبر: المبتدأ اسم، أو بمنزلة، مجرد عن العوامل اللفظية، أو بمنزلة، مخبر عنه، أو وصف راقع لمكتفى به، ثم قال: ولا بد للوصف المذكور من تقدم نفى أو استفهام نحو:

* خليلي ما واف بعهدى أنتما *

ونحو:

* أقاطن قوم سلمى أم نوا ظعنًا *

خلاقًا للأخفش والكوفيين، ولا حجة لهم فى نحو «خير بنو لهب»، خلاقًا للناظم وابنه؛ لجواز كون الوصف خبراً مقدماً، وإنما صح الإخبار به عن الجمع؛ لأنه على فعيل فهو على حد «والملائكة بعد ذلك ظهير» [التحریم: ٤] (٢).

١٦ - قال فى معمول خبر كان وأخواتها: ويجوز باتفاق أن يلى هذه الأفعال معمول خبرها إن كان ظرفاً، أو مجروراً نحو: كان عندك، أو فى المسجد ريد معتكفاً؛ فإن لم يكن أحدهما فجمهور البصريين بمنعون مطلقاً، والكوفيون يجيزون مطلقاً، وفصل ابن السراج والفارسي وابن عصفور فأجازوه إن تقدم الخبر معه نحو: كان طعامك أكلاً ريد، ومنعوه إن تقدم وحده نحو: كان طعامك ريد أكلاً، واحتج الكوفيون بنحو قوله (٣):

* بما كان إياهم عطية عوداً *

وخرج على زيادة كان، أو إضمار الاسم مراداً به الشأن، أو راجعاً إلى ما، وعليهن، فعطية مبتدأ، وقيل: ضرورة، وهذا متعين فى قوله (٤):

* باتت فؤادى ذات الخال سالية *

(١) معنى اللبيب ص ١٠٩ .

(٢) أوضح المسالك ص ٢٠ .

(٣) لم أعثر له على قائل وصدده: قنا قد هداجون حول بيوتهم.

(٤) لم أعثر له على قائل.

لظهور نصب الخبر^(١).

١٧ - قال فى الإلغاء والتعليق: ولا يجوز الغاء العامل المتقدم خلافاً للكوفيين والأخفش، واستدلوا بقوله^(٢):

*** أنى رأيت ملاك الشمية الأدب ***

وقوله: ^(٣)

*** وما إخال لدينا منك تنويل ***

وأجيب بأن ذلك محتمل لثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون التعليق بلام الابتداء المقدرة والأصل لملاك، وللدينا، ثم حذفت وبقي التعليق.

والثانى: أن يكون من الإلغاء لأن التوسط المبيح للإلغاء ليس التوسط بين المعمولين فقط بل توسط العامل فى الكلام مقتضى أيضاً، نعم الإلغاء للتوسط بين المعمولين قوى والعامل هنا قد سبق بأنى وبما النافية، ونظيره متى ظننت ريذاً قائماً؟ فيجوز فيه الإلغاء.

والثالث: أن يكون من الإهمال على أن المفعول الأول محذوف، وهو ضمير الشأن، والأصل: وجدته، وإخاله، كما حذف فى قولهم: أن بك زيد مأخوذ^(٤).

١٨ - قال فى تأنيث الفعل: يجوز أن تلحق تاء التأنيث الفعل إذا كان مجازى التأنيث، وألا تلحقه، قال ابن هشام: نحو: ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ [القيامة: ٩] ومنه اسم الجنس واسم الجمع والجمع لأنهن فى معنى الجماعة، والجماعة مؤنث مجازى فلذلك جاز التأنيث نحو: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح﴾ [القمر: ٩] و﴿قالت الأعراب﴾ [الحجرات: ١٤] وأورقت الشجر، والتذكير نحو:

(١) أوضح المسالك ص ٢٦.

(٢) هو لبعض بنى فزارة.

(٣) هو لكعب بن زهير.

(٤) أوضح المسالك ص ٤٠.

أورق الشجر ﴿وكذب به قومك﴾ [الأنعام: ٦٦] ﴿وقال نسوة﴾ [يوسف: ٣٠] وقام الرجال وجاء الهنود، إلا أن سلامة نظم الواحد فى جمعى التصحيح أوجبت التذكير فى نحو: قام الزيدون، والتأنيث فى نحو: قامت الهندات، خلافاً للكوفيين فيها وللفارسي فى جمع المؤنث، واحتجوا بنحو: ﴿إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل﴾ [يونس: ٩٠] ﴿إذا جاءك المؤمنات﴾ [المتحنة: ١٢].

وقوله (١) :

* فبكى بناتى شجوهن وزوجتى *

وأجيب بأن البنين والبنات لم يسلم فيهما لفظ الواحد، وبأن التذكير فى جاءت للفصل، أو لأن الأصل: النساء المؤمنات، أو لأن «أل» مقدرة باللاثى وهو اسم جمع (٢).

١٩ - قال بصدد نصب المفعول معه: والناصب للمفعول معه ما سبقه من فعل، أو شبهه لا «الواو» خلافاً للجرجانى، ولا الخلاف خلافاً للكوفيين (٣).

٢٠ - قال فى حكم المستثنيات المكررة بالنظره إلى المعنى: هو نوعان: ما لا يمكن استثناء بعضه من بعض كزيد، وعمرو، وبكر، وما يمكن نحو: له عندى عشرة إلا أربعة إلا اثنين إلا واحد، ففى النوع الأول: إن كان المستثنى الأول داخلاً وذلك إذا كان مستثنى من غير موجب فما بعده داخل، وإن كان خارجاً وذلك إذا كان مستثنى من موجب فما بعده خارج.

وفى النوع الثانى: اختلفوا، فقليل: الحكم كذلك، وإن الجميع مستثنى من أصل العدد، وقال البصريون، والكسائى: كل من الأعداد مستثنى مما يليه، وهو الصحيح؛ لأن الحمل على الأقرب متعين عند التردد (٤).

٢١ - قال فيما يلى: «إن»: وإن ولى «إن» المكسورة المخففة فعل كثر كونه مضارعاً ناسخاً نحو: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك﴾ [القلم: ٥١] ﴿وإن

(١) هو أبو ذئب الهزلى، وتماه: والظاعنون على ثم تصدعوا.

(٢) أوضح المسالك ص ٤٤ .

(٣) أوضح المسالك ص ٥٩ .

(٤) أوضح المسالك ص ٦١ .

نَظَنَّاكَ لِمَن الكاذِبِينَ ﴿ [الشعراء: ١٨٦] وأكثر منه كونه ماضياً ناسخاً نحو: ﴿وإنَّ
كانت لكبيرة﴾ [البقرة: ١٤٣] ﴿إنَّ كُذِّبَ لَتُرْدِينَ﴾ [الصفافات: ٥٦] ، ﴿وإنَّ وجدنا
أكثرهم لفاسقين﴾ [الأعراف: ١٠٢].

وندر كونه ماضياً غير ناسخ كقوله (١):

* شَلَّتْ يَمِينَا إِن قَتَلْتَ مُسْلِمًا *

ولا يقاس عليه «إن» قام لأننا وإن قعد لزيد خلاقاً للكوفيين والأخفش (٢).

(١) هي عاتكة بنت زيد بن عمرو وقيل روجة الزبير؛ لأن الأبيات قيلت في ذم قائله والاول اصح وعجزه: حلت عليك عقوبة التعمد.

(٢) أوضح المسالك ص ٣٥ .

الفصل الثاني

صلة الأخفش بالكوفيين

أطلق الأخفش على أحد عشر كوكباً درياً اشتهر منهم ثلاثة، فما النحو في ضوئهم كما ينمو النبت في نور الهلال.

أولهم: أبو الخطاب شيخ سيويه، وهو الأخفش الأكبر الذي شافه الأعراب وأخذ عنهم^(١)، ويعد من رجال الطبقة الثالثة البصرية التي تقابل الطبقة الأولى من نحاة الكوفة.

ثانيهم: أبو الحسن سعيد بن مسعدة الذي عاصر سيويه، ولم يأنف أن يتلمذ عليه وقد كان أسن منه وكان ألصق به من سواه، وكان معنياً بالكتاب لعظم قيمته حتى لقد ظن به أنه انتحل له نفسه؛ لأن أحداً غيره لم يحظ بقراءته على سيويه، ولما أن رأى بعض تلاميذه مقدار حرصه على الكتاب تأقت نفوسهم إليه لمنعه «وأحب شيء إلى الإنسان ما منعاً» فاحتالوا عليه بالمال «والمال للإنسان فتان».

وكان تلميذه الجرمي أخا ثروة وتلميذه المازني رضيع دهاء فاستلا من بين فكيه كتاب سيويه وقرأه عليه وكان صنيعهما سبباً في بزوغ الكتاب، وهو من رجال الطبقة الخامسة البصرية^(٢).

ثالثهم: أبو الحسن علي بن سليمان، تلميذ المبرد وثعلب اللذين تم على يديهما نضج النحو في دولة المتقدمين من البصريين والكوفيين، وقد ورد مصر، وانتهى به المطاف إلى بغداد وبها توفي^(٣).

فمن ذا الذي آزر الكوفيين منهم وانحاز في كثير من الآراء إليهم، أهو

(١) توفي الأخفش الأكبر سنة ١٧٧ هجرية.

(٢) توفي ببغداد سنة ٢١٠ أو ٢١٥ أو ٢٢١ هجرية.

(٣) توفي سنة ٣١٥ هجرية.

الأخفش الأكبر الذى عاصر الطبقة الأولى منهم وفى عهده شجر الخلاف بينهم؟ أم هو الأخفش الأصغر رضيع الثديين وريب المذهبيين؟ إن العقل لا يمنع من إرادة أحدهما، ولا غضاضة فى أن يحتضن أبو الخطاب مذهباً ناشئاً ويحنو على رجاله «حنو المرضعات على الفطيم» حتى يستحكم قتله ويسير على قدميه، وهل بأبى الخطاب من عار فى أن يشافه الأعراب، ثم يرى مذهباً صنع على عينيه وشب بين يديه فلما بلغ أشده واستوى واقفه فى موطن، إن ذلك لا يقدر فى مشافهته قرب مبلغ أوعى من سامع.

ولا ضمير على الأخفش الأصغر أن يصطفى من أقوال العلماء ما يشاء وقد درس على شيخى الحزبين وشهد إدراك المذهبيين.

أجل أنه جاز للعقل أن يحكم لتردد حكمه بين الأكبر والأصغر من الثلاثة، أما الأوسط بسبب اتصاله الوثيق بسيبويه الذى بزّ بكتابه البصريين أجمعين، وقد كان من ضمن سعيد بالكتاب وحرصه عليه ما أشرت إليه فيبعد بمقتضى حكم العقل أن يكون ذلك الذى وافق الكوفيين، ولكن العقل وحده ليس فيصلاً فى هذا الموضوع؛ لأنه فى أعلى مراتبه محكوم عليه بالعجز مقضى عليه بالإفلاس، وللتاريخ حكمه البالغ، وفيه فصل الخطاب، وهو يقول: إن سيبويه رجع من بغداد غضبان أسفاً لما خذل فى المناظرة المشهورة؛ فعز ذلك على سعيد بن مسعدة وأسرّها فى نفسه للكسائى، ثم يم شطره وصلى وراءه الفجر ببغداد وصمّم على أن يثار لشيخه منه، فأمره وإبلاً من الأسئلة المعضلة المشكلة أمام تلاميذه وخطاه فى أجوبته، مما أحفظ عليه التلاميذ فهموا بالفتك به لولا أن نهاهم الكسائى - الذى تبيته - ثم أكرمه ونعمّه وجعله مؤدب أولاده، فعاش فى كنفه بقية عمره، وأمر إليه قراءة كتاب سيبويه، فتغير مجرى حياته حيثئذ، وانقلبت عداوته للكسائى مودة ورحمة، فوافق الكوفيين فى كثير من آرائهم، فهو المقصود هنا وعند الإطلاق.

بعض ما وافق فيه ابن هشام الكوفيين

الأول: قال فى باب العلم: وإن كانا مفردين كسعيد كرر جاز ذلك ووجه آخر، وهو إضافة الأول إلى الثانى، وجمهور البصريين يوجب هذا الوجه، ويرده النظر، وقولهم: هذا يحبى عينان، والمشار إليه فى قوله: جاز ذلك «الاتباع والقطع»^(١).

الثانى: قال فى حركة: فاء الفعل المبني لما لم يسم فاعله: وأوجب الجمهور ضم فاء الثلاثى المضعف نحو شد ومد، والحق قول بعض الكوفيين أن الكسر جائز، وهى لغة بنى ضبة وبعض تميم، وقرأ علقمه: «ردت إلينا» [يوسف: ٦٥] «ولو ردوا» [الأنعام: ٢٨] بكسر الراء فيهما^(٢).

الثالث: قال فى ذكر معانى الحروف: لمن سبعة معان:

أحدها: التبويض نحو: «حتى تُنفقوا مما تُحبون» [آل عمران: ٩٢].

والثانى: بيان الجنس: نحو: «من أساور من ذهب» [الكهف: ٣١].

والثالث: ابتداء الغاية المكانية باتفاق، نحو: «من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» [الإسراء: ١] والزمانية خلافاً لأكثر البصريين، ولنا قوله تعالى: «من أول يوم» [التوبة: ١٠٨] والحديث: «فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة».

وقول الشاعر^(٣):

* تخيرن من أزمان يوم حليلة^(٤) *

الرابع: قال فى الزمان المحمول على «إذا» أو «إذ»: إنه يجوز فيه الإعراب على الأصل والبناء حملاً عليهما فإن كان ما وليه فعلاً مبنياً فالبناء أرجح

(١) أوضح المسالك ص ١٩ .

(٢) أوضح المسالك ص ٤٧ .

(٣) هو النابغة فى، وصف السيوف عجزه: إلى اليوم قد جربن كل التجارب.

(٤) أوضح المسالك ص ٧٠ .

للتناسب كقوله (١):

* على حين عانت المشيب على الصبا *

وقوله:

* على حين يستصين كل حلیم *

وإن كان فعلاً معرباً، أو جملة اسمية فالإعراب أرجح عند الكوفيين وواجب عند البصريين واعترض عليهم بقراءة نافع ﴿هذا يوم ينفع﴾ [المائدة: ١١٩] بالفتح.

وقوله:

* على حين التواصل غير دائي (٢) *

الخامس: قال في توكيد النكرة: إنه إذا لم يفد لم يجز باتفاق، وإن أفاد جاز عند الكوفيين، وهو الصحيح، وتحصل الفائدة بأن يكون المؤكد محدوداً، والتوكيد من ألفاظ الإحاطة كاعتكفت أسبوعاً كله، وقوله:

* ياليت عدة حول كله رجب (٣) *

السادس: قال في العطف على الضمير المخفوض: إنه لا يكسر إلا باعادة الخافض، حرماً كان أو اسماً، نحو: ﴿فقال لها وللأرض﴾ [فصلت: ١١] ﴿قالوا نعبد إلهك وإله آبائك﴾ [البقرة: ١٣٣]، وليس بلارم وفقاً ليونس والأخفش والكوفيين بدليل قراءة ابن عباس والحسن وغيرهما ﴿تساءلون به والأرحام﴾ [النساء: ١] بالجر، وحكاية قطرب ما فيها غيره وفرسه بجر المعطوف، قيل ومنه: ﴿وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام﴾ [البقرة: ٢١٧] إذ ليس العطف على السبيل؛ لأنه صلة المصدر وقد عطف عليه كفر، ولا يعطف على المصدر حتى تكمل معمولاته (٤).

السابع: قال في منع صرف المنصرف للضرورة: وأجاز الكوفيون والأخفش

(١) النابتة اللياني.

(٢) أوضح المسالك ص ٧٧.

(٣) أوضح المسالك ص ٩٨.

(٤) أوضح المسالك ص ١٠٢.

والفارسي للمضطر أن يمنع صرف المنصرف وأباه سائر البصريين واحتج عليهم بنحو قوله (١):

طلب الأزارق بالكتائب إذ هوت

بشبيب غائلة النفوس غدور (٢)

الثامن: قال فى رافع المضارع: إنه تجرده من الناصب والجازم وفقاً للقراء لا حلوله محل الاسم خلافاً للبصريين لانتقاضه بنحو «هلا تفعل» (٣).

التاسع: قال فى الكلام على «إن»: وقد ذكر؛ لأن معان أربعة أخر: أحدها: الشرطية كإن المكسورة، وإليه ذهب الكوفيون، ويرجحها عندي أمور:

أحدها: توارد المفتوحة والمكسورة على المحل الواحد، والأصل التوافق فقريء بالوجهين قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ أَحَدُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنَ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ [المائدة: ٢] ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُتِبَ قَوْمًا مَّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥].

وقد مضى أنه روى بالوجهين قوله (٤):

* أَغْضِبْ أَنْ أَذْنًا قَتِيبةً حَزَنًا *

الثانى: مجيء الفاء بعدها كثيراً كقوله (٥):

أَبَا خَرَّاشَةَ أَمَّا أَنْتَ ذَا نَفَرٍ

فَلِإِنْ قَوْمِي لِمِ تَأْكُلُهُمُ الضَّيْعُ

الثالث: عطفها على «إن» المكسورة فى قوله:

إِمَّا أَقَمْتُ وَأَمَّا أَنْتَ مَرْتَحِلًا

فَسَاكِلُ يَكْلَأُ مَا تَأْتِي وَمَا تَنْذُرُ

(١) هو الأخطل .

(٢) أَرَضِحَ المسالك ص ١٢١ .

(٣) أَرَضِحَ المسالك ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٤) هو الفرردق .

(٥) هو العباس بن مرداس .

الرواية بكسر إن الأولى وفتح الثانية فلو كانت المفتوحة مصدرية لزم عطف المفرد على الجملة (١).

العاشر: قال فى الكلام على معنى «أم» المنقطعة: ونقل ابن الشجرى عن جميع البصريين أنها أبداً بمعنى: بل والهمزة جميعاً، وأن الكوفيين خالفوهم فى ذلك، والذي يظهر لى قولهم إذ المعنى فى «أم جعلوا لله شركاء» [الرعد: ١٦] ليس على الاستفهام؛ ولأنه يلزم البصريين دعوى التوكيد فى نحو: «أم هل تستوى الظلمات» [الرعد: ١٦] ونحو: «أماذا كنتم تعملون» [النمل: ٨٤] «أم من هذا الذى هو جندٌ لكم» [الملك: ٢٠] وقوله (٢):

أنى جزوا عامراً سوءى بفعلهم

أم كيف يجزوننى السوءى من الحسن

أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به

رثمان أنف إذا ما ضن باللبن (٣)

الحادى عشر: قال التاسع من معانى الباء المجاوزة كعن، فقل تختص بالسؤال نحو: «فاسأل به خبيراً» [الفرقان: ٥٩] بدليل «يسألون عن أنباءكم» [الأحزاب: ٢٠].

وقيل: لا تختص به بدليل قوله تعالى: «يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم» [الحديد: ١٢] «ويوم تشقق السماء بالغمام» [الفرقان: ٢٥].

وجعل الزمخشري هذه الباء بمنزلتها فى شققت السنام بالشفرة على أن الغمام جعل كالآلة التى يشق بها، قال: ونظيره «السماء منقطر به» [المزمل: ١٨].

وتأول البصريون «فاسأل به خبيراً» [الفرقان: ٥٩] على أن الباء للسببية وزعموا أنها لا تكون بمعنى: «عن» أصلاً، وفيه بعد لأنه لا يقتضى قولك سألت بسببه أن المجرور هو المسئول عنه (٤).

(١) معنى الليب ١ : ٣٣ .

(٢) هو أنثون التغلى.

(٣) معنى الليب ١ : ٤٢ : ٤٣ .

(٤) معنى الليب ١ : ٩٦ .

الثانى عشر: قال فى حروف الجر: مذهب البصريين أن أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس كما أن أحرف الجزم وأحرف النصب كذلك، وما أوهم ذلك فهو عندهم إما مؤول تأويلاً يقبله اللفظ كما قيل فى «ولأصلبنكم فى جذوع النخل» [طه: ٧١] إن «فى» ليست بمعنى «على» ولكن شبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحال فى الشيء، وأما على تضمن الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف كما ضمن بعضهم «شربن» فى قوله: «شربن بماء البحر» بمعنى: روين، و «أحسن» فى: «وقد أحسن بى» بمعنى: لطف، وإما على شذوذ إنابة كلمة عن أخرى وهذا الأخير هو محمل الباب كله عند أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين ولا يجعلون ذلك شاذاً، وهو أقل تعسفاً^(١).

الثالث عشر: قال فى لام الطلب: رعم الكوفيون وأبو الحسن أن لام الطلب حذفت حذفاً مستمراً فى نحو: قم واقعد، وأن الأصل لتقم ولتقعد فحذفت اللام للتخفيف وتبعها حرف المضارعة ويقولهم: أقول لأن الأمر معنى حقه أن يؤدى بالحرف؛ ولأنه أخو النهى ولم يدل عليه إلا بالحرف؛ ولأن الفعل إنما وضع لتقييد الحدث بالزمان المحصل، وكونه أمراً أو خبراً خارج عن مقصوده؛ ولأنهم قد نطقوا بذلك الأصل كقوله:

لتقم أنت يا ابن خير قریش

فلتقضى حوائج العالمينا

وكقراءة جماعة «فلتفرحوا» وفى الحديث «لتأخذوا مصافكم» (*) ولأنك تقول أغز واخش وأرم واضربا واضربى كما تقول فى الجزم؛ ولأن البناء لم يعهد كونه بالحذف؛ ولأن المحققين على أن أفعال الإنشاء مجردة عن الزمان كبعت وأقسمت وقبلت، وأجابوا عن كونها مع ذلك أفعالاً بأن تجردها عارض لها عند نقلها عن الخبر، ولا يمكنهم ادعاء ذلك فى نحو قم؛ لأنه ليس له حالة غير هذه، وحيث قد تشكل فعليته، فإذا ادعى أن أصله «لتقم» كان الدال على الإنشاء اللام لا الفعل^(٢).

(١) معنى اللبيب ١ : ١٠٠ - ١٠١ .

(*) مسند أحمد ٥ : ٣٤٢ .

(٢) معنى اللبيب ١ : ١٨٥ .

أمثلة من انحراف ابن هشام عن أبي حيان

سبق القول في تعليل تعقب ابن هشام لأبي حيان وفي انتزاع الدليل من بيئة الإمامين الجليلين وقد يهتدى العقل بقرائن الأحوال فيهلك أستار الغيب ويصيب الحقيقة في اللب إذا أعوزه النقل وعزّت عليه النصوص.

وسأعرض هنا مسائل تعطى صورة صحيحة لما وصلت إليه الحال من حدة الخلاف وشدة الانحراف.

المسألة الأولى: في الكلام على «أن» المصدرية: قال رحمه الله: إنها موصولة حرفي وتوصل بالفعل المتصرف مضارعاً كان كما مر، مثاله: «وأن تصوموا خير لكم» [البقرة: ١٨٤] أو ماضياً نحو: «لولا أن من الله علينا» [القصص: ٨٢] «ولولا أن ثبتناك» [الإسراء: ٧٤] أو أمراً كحكاية سيويه كتبت إليه بأن قم، هذا هو الصحيح، وقد اختلف من ذلك في أمرين:

أحدهما: كون الموصولة بالماضي والأمر هي الموصولة بالمضارع، والمخالف في ذلك ابن طاهر زعم أنها غيرها، ثم قال:

الأمر الثاني: كونها توصل بالأمر والمخالف في ذلك أبو حيان زعم أنها لا توصل به، وأن كل شيء سمع من ذلك «فأن» فيه تفسيرية واستدل بدليلين: أحدهما: أنهما إذا قدرا بالمصدر فأت معنى الأمر.

الثاني أنهما لم يقعاً فاعلاً ولا مفعولاً لا يصح «أعجبني أن قم»، ولا «كرهت أن قم» كما يصح ذلك مع الماضي ومع المضارع.

والجواب عن الأول: أن فوات معنى الأمرية في الموصولة بالأمر عند التقدير بالمصدر كفوات معنى المضي والاستقبال في الموصولة بالماضي والموصولة بالمضارع عند التقدير المذكور، ثم إنه يسلم مصدرية «أن» المخففة من المشددة مع لزوم مثل ذلك فيها في نحو: «والخامسة أن غضب الله عليها» [النور: ٩] إذ لا يفهم الدعاء من المصدر إلا إذا كان مفعولاً مطلقاً نحو: سقيا ورعياً.

وعن الثاني: أنه إنما امتنع ما ذكره؛ لأنه لا معنى لتعليق الإعجاب والكرامية بالإنشاء لا لما ذكر، ثم ينبغي له ألا يسلم مصدرية كي؛ لأنها لا تقع فاعلاً ولا مفعولاً، وإنما تقع مخفوضة بلام التعليل.

ثم مما يقطع به على قوله بالبطلان حكاية سيويه: «كتبت إليه بأن قم» وأجاب عنها بأن الباء محتملة للزيادة مثلها في قوله: ^(١) «لا يقر أن بالسور»، ثم قال: وهذا وهم فاحش؛ لأن حروف الجر زائدة كانت أو غير زائدة لا تدخل إلا على الاسم، أو ما في تأويله ^(٢).

أرأيت كيف كان الغلب لابن هشام وأن فعل الحجة والبرهان معه كفعل الحسام في يد البهمة المقدام، وهذا دأبه في مناقشاته العلمية مع أبي حيان وغيره مما سيأتي ذكره.

ونقل العلامة الأمير عن الإمام السيوطي بأن أبا حيان قد ناقض نفسه فجعل في تفسيره «البحر» أن من قوله تعالى: «وأن احكم بينهم» [المائدة: ٤٥] مصدرية عطفاً على «الكتاب» أو ألحق أو محذوفة الخبر أي: من الواجب حكمك ^(٣).

المسألة الثانية: في الكلام على «أن» الزائدة، قال رحمه الله: لا معنى بأن الزائدة غير التوكيد كسائر الزوائد.

قال أبو حيان: وزعم الزمخشري أنه ينجر مع التوكيد معنى آخر فقال في قوله تعالى: «ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم» [هود: ٧٧] دخلت «أن» في هذه القصة ولم تدخل في قصة إبراهيم في قوله تعالى: «ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً» [العنكبوت: ٣١] تنبيهاً وتأكيذاً على أن الإساءة كانت تعقب المجيء فهي مؤكدة في قصة لوط للاتصال وال لزوم، ولا كذلك في قصة إبراهيم إذ ليس الجواب فيها كالأولى.

(١) قول عبيد الراعي.

هن الحرائر لا ربات أخممة

سود المحاجر لا يقران بالسور

(٢) مغنى اللبيب ١ : ٢٧ - ٢٨ .

(٣) مغنى اللبيب ١ : ٢٧ .

وقال الشلوين: لما كان «أن» للسبب في جئت أن أعطى أى: للإعطاء أفادت هنا أن الإساءات كانت لأجل المجيء وتعقبه.

وكذلك قولهم: أما والله أن لو فعلت لفعلت أكدت «أن» ما بعد لو، وهو السبب في الجواب، وهذا الذي ذكره لا يعرفه كبراء النحويين.. انتهى.

والذي رأيته في كلام الزمخشري في تفسير سورة العنكبوت ما نصه: «أن» صلة أكدت وجود الفعلين مرتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان كأنه قيل لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث.. انتهى.

والريث البطء، وليس في كلامه تعرض للفرق بين القصتين كما نقل عنه ولا كلامه مخالفاً لكلام النحويين لإطباقهم على أن الزائد يؤكد معنى ما جرى به لتوكيده، ولما تقيّد وقوع الفعل الثاني عقب الأول وترتبه عليه فالخرف الزائد يؤكد ذلك، ثم إن قصة الخليل التي فيها «قالوا سلاماً» [هود: ٦٩] ليست في السورة التي فيها «سوء بهم» [هود: ٧٧] بل في سورة هود وليس فيها لما، ثم كيف يتخيل أن التحية تقع بعد المجيء ببطء، وإنما يحسن اعتقادنا تأخر الجواب في سورة العنكبوت إذ الجواب فيها «قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية» [العنكبوت: ٣١] ثم إن التعبير بالإساءة لحن لأن الفعل ثلاثي كما نطق به التنزيل، والصواب المساءة وهي عبارة الزمخشري.

وأما ما نقله عن الشلوين فمعترض من وجهين:

أحدهما: أن المفيد للتعليل في مثاله إنما هو لام العلة المقدرة لا أن.

والثاني: إن «أن» في المثال مصدرية والبحث في الزائدة (١).

المسألة الثالثة: في الكلام على «أن» قال رحمه الله: «أن» المفتوحة المشددة النون على وجهين:

أحدهما: أن تكون حرف توكيد تنصب الاسم، وترفع الخبر، والأصح أنها فرع عن إن المكسورة، ومن هنا صح للزمخشري أن يدعى أن أنما بالفتح تفيد

القصر كأنما بالكسر، وقد اجتمعاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨] فالأولى لقصر الصفة على الموصوف، والثانية بالعكس.

وقول أبي حيان هذا شيء انفرد به ولا يعرف القول بذلك إلا في إنما بالكسر مردود بما ذكرت، وقوله: «إن دعوى الحصر هنا باطلة لاقتضاها أنه لم يوح إليه غير التوحيد» مردود أيضاً بأنه حصر مقيد إذ الخطاب مع المشركين، فالمعنى: ما أوحى إلى في أمر الربوبية إلا التوحيد لا الاشرار، ويسمى ذلك «قصر قلب» لقلب اعتقاد المخاطب، وإلا فما الذي يقوله هو في نحو: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ [آل عمران: ١٤٤] فإن «ما» للنفي «والا» للحصر قطعاً، وليست صفته عليه الصلاة والسلام منحصرة في الرسالة، ولكن لما استعظموا موته جعلوا كأنهم أثبتوا له البقاء الدائم فجاء الحصر باعتبار ذلك ويسمى «قصر أفراد»^(١).

المسألة الرابعة: في جواب «إذا»، قال أبو حيان: ورد مقروناً بما النافية نحو: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم﴾ [الجاثية: ٢٥] .. الآية، «وما» النافية لها الصدارة.. انتهى.

وليس هذا بجواب، وإلا لا تترن بالفاء مثل: ﴿وإن يستعجبوا فما هم من المعتبين﴾ [فصلت: ٢٤] وإنما الجواب محذوف أي: عمدوا إلى الحجج الباطلة^(٢).

المسألة الخامسة: مما ترد له «كل» باعتبار ما قبلها أن تكون توكيداً لمعرفة، قاله الأخفش والكوفيون، أو لنكرة محدودة، وعليهما ففائدتها العموم ويجب إضافتها إلى اسم مضمّر راجع إلى المؤكد نحو: ﴿فسجد الملائكة كلهم﴾ [الحجر: ٣٠].

وقال ابن مالك: وقد يخلفه الظاهر كقوله^(٣):

كم قد ذكرت لك لو أجرى بذكركم

يا أشبه الناس كل الناس بالقمر

(١) معنى اللبيب ١ : ٣٧ - ٣٨ .

(٢) معنى اللبيب ١ : ٨٩ .

(٣) هو عمر بن أبي ربيعة.

وخالفه أبو حيان وزعم أن «كل» في البيت نعت مثلها في «أطعمنا شاة كل شاة» وليست تأكيداً، وليس قوله بشيء لأن التي ينعت بها دالة على الكمال لا على عموم الأفراد^(١).

المسألة السادسة: في اللام غير العاملة، قال رحمه الله: وأنواعها سبع:

أحدها: لام الابتداء وفائدتها أمران، تأكيد مضمون الجملة ولهذا الحقوها في باب إن عن صدر الجملة كراهية ابتداء الكلام بمؤكدتين، وتخليص المضارع للحال، كذا قال الأكثرون، واعترض ابن مالك، الثاني بقوله تعالى: ﴿وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة﴾ [النحل: ١٢٤]، ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ [يوسف: ١٣] فإن الذهاب كان مستقبلاً فلو كان الحزن حالاً لزم تقدم الفعل في الوجود على فاعله مع أنه أثره، والواجب أن الحكم في ذلك اليوم واقع لا محالة فتزل منزلة الحاضر المشاهد وأن التقدير قصد «بضم الدال» أن تذهبوا والقصد حال، وتقدير أبي حيان: «قصدهم أن تذهبوا» مردود بأنه يقتضى حذف الفاعل؛ لأن أن تذهبوا على تقديره منصوب^(٢).

المسألة السابعة: في الكلام على الجملة الاعتراضية، قال: إن للبيانين في الاعتراض اصطلاحات مخالفة لاصطلاح النحويين، والزمخشري يستعمل بعضها كقوله في قوله تعالى: ﴿ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: ١٣٣] يجوز أن يكون حالاً من فاعل نعبد، أو من مفعوله لاشتماله على ضميريهما، وأن تكون معطوفة على نعبد، وأن تكون اعتراضية مؤكدة أى: ومن حالنا أنا مخلصون له التوحيد، ويرد عليه مثل ذلك من لا يعرف هذا العلم كأبي حيان توهمًا منه أنه لا اعتراض إلا ما يقوله النحوى، وهو الاعتراض بين شيئين متطالبين^(٣).

المسألة الثامنة: في الكلام على «حسب» قال ابن هشام رحمه الله: واقتضى كلام ابن مالك أنها تعرب نصباً إذا نكرت كقبل وبعد، قال أبو حيان: ولا وجه لنصبها لأنها غير ظرف إلا إن نقل نصبها عنهم حالاً إذا كانت نكرة.. انتهى.

(١) معنى الليب ١ : ١٦ .

(٢) معنى الليب ١ : ٥١ .

(٣) معنى الليب ٢ : ٥٤ .

فإن أراد بكونها نكرة قطعها عن الإضافة اقتضى أن استعمالها حيثذ منصوبة شائع وأنها كانت مع الإضافة معرفة وكلاهما ممنوع، وإن أراد تنكيرها مع الإضافة فلا وجه لاشتراطه التنكير حيثذ فإنه مشهور حتى إنه مذكور في كتاب الصحاح؛ قال: تقول: هذا رجل حسبك من رجل، وتقول: في المعرفة: هذا عبد الله حسبك من رجل، فتنب حسبك على الحال.. انتهى.

وايضاً فلا وجه للاعتذار عن ابن مالك بذلك بأن مراده التنكير الذي ذكره في «قبل» «وبعد»، وهو أن تقطع عن الإضافة لفظاً وتقديراً (١) :

المسألة التاسعة: في الكلام على «حرى»، قال: ولا أعرف من ذكر «حرى» من النحويين غير ابن مالك: وتوهم أبو حيان أنه وهم فيها وإنما هي هرى بالتنوين اسماً لا فعلاً، وأبو حيان هو الواهم، بل ذكرها أصحاب كتب الأفعال من اللغويين كالسرقسطي وابن طريف وأنشدوا عليها شعراً وهو قول الأعشى:

إن يقل هن من بنى عبيد شمس

فحرى أن يكون ذاك وكانا (٢)

وهناك مسائل أخرى كر فيها ابن هشام على أبي حيان أكتفى عنها بالإشارة إليها لكثرتها، وهي مع هذه الكثرة لا تقدح في مكانة أبي حيان النحوية، ولا تغض من قدره كمؤلف والنقص شامل في كتب المؤلفين حتى يقوم الناس لرب العالمين.

على أن ابن هشام تناول بالنقد آراء كثير من النحاة بل امتد نقده إلى آراء بعض المفسرين، ومن هنا ساغ قوله: «أغنانى المغنى» حينما قيل له: «هلا أعربت القرآن أو فسرته».

وفي الحق أن «المغنى» زاخر بآراء النحاة من مهد النحو إلى عهد ابن هشام، والمؤلف تارة يترفق في مسها وطوراً يقسو في دفعها إن كانت عن الصواب بمعزل.

وهذا دأب المحقق المنصف يزن قيمة الأشياء ويقدرها حق قدرها، فلا يحابي

(١) أوضح المسالك ص ٨٠.

(٢) شلور الذهب ص ٢٣٩.

أحدًا على حساب العلم، ولا يبخس باحثًا حقه إذا أجاد، ألا تراه قد أطرى الزَّجَّاج ونَّوه بحسن تعليله لدخول الباء فى فاعل كفى من قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وكفى بالله شهيدًا﴾ [النساء: ٧٩] إذ جعل العدة تضمن «كفى» معنى اكتف، حيث قال: وهو من الحسن بمكان، ثم قال: ويصححه عندى قولهم: اتقى الله أمرؤ فعل خيرًا يثب عليه، أى: ليتق وليفعل بدليل جزم يثب^(١).

ابن هشام والكسائى

لا غضاضة فى أفراد الكسائى بالذكر، وهو من الكوفيين فى الطليعة، وقد سبق تبيان موقف ابن هشام من الكوفيين؛ لأن لهذه القصة طراقة تدل على مبلغ ابن هشام من العلم وامتلاكه ناصية النحو وأنه مجتهد فى هذا الفن.

قال عطر الله ضريحه: «تنبه» كتب الرشيد ليلة إلى القاضى أبى يوسف يسأله عن قول القائل:

فإن ترفقى يا هند فالرفقُ أَمِنُ
وإن تخرقى يا هند فالخرقُ أَشَامُ
فأنت طلاق والطلاق عزيمة
ثلاث ومن يخرق أعق وأظلم

فقال: ماذا يلزمه إذا رفع الثلاث وإذا نصبها؟

قال أبو يوسف: فقلت: هذه مسألة نحوية فقهية ولا آمن الخطأ إن قلت فيها برأى فأتيت الكسائى، وهو فى فراشه، فسألته فقال: إن رفع ثلاثًا طلقت واحدة؛ لأنه قال: أنت طلاق، ثم أخبر أن الطلاق التام ثلاث، وإن نصبها طلقت ثلاثًا؛ لأن معناه: أنت طالق ثلاثًا، وما بينهما جملة معترضة، فكتبت بذلك إلى الرشيد فأرسل إلى بجواز فوجهت بها إلى الكسائى.. انتهى ملخصًا.

وأقول: إن الصواب أن كلا من الرفع والنصب محتمل لوقوع الثلاث ولوقوع

(١) معنى اليب ١ : ٩٧ .

الواحدة؛ أما الرفع فلأن إلى في الطلاق إما لمجاز الجنس كما تقول: «زيد الرجل» أي: هو الرجل المعتد به.

وأما للعهد الذي مثلها في «فعصى فرعون الرسول» [المزمّل: ١٦] أي: وهذا الطلاق المذكور عزيمة ثلاثاً، ولا تكون للجنس الحقيقي لثلا يلزم الإخبار عن العام بالخاص كما يقال: الحيوان إنسان، وذلك باطل إذ ليس كل حيوان إنساناً ولا كل طلاق عزيمة، ولا ثلاثاً، فعلى العهدية يقع الثلاث، وعلى الجنسية تقع واحدة كما قال الكسائي.

وأما النصب فلأنه محتمل لأن يكون على المفعول المطلق وحيث أن يقتضى وقوع الطلاق الثلاث إذ المعنى: فأنت طالق ثلاثاً، ثم اعترض بينهما بقوله: والطلاق عزيمة؛ ولأن يكون حالاً من الضمير المستتر في عزيمة، وحيث لا يلزم وقوع الثلاث؛ لأن المعنى: والطلاق عزيمة إذا كان ثلاثاً، فإنما يقع ما نواه، هذا ما يقتضيه معنى اللفظ مع قطع النظر عن شيء آخر.

وأما الذي أراده هذا الشاعر المعين فهو الثلاث لقوله بعد:

فَينى بها إن كنت غير رفيقة

وما لا مرى بعد الثلاث مقدم

وقال في المواضع التي يعود الضمير فيها على متأخر لفظاً ورتبة: منها أن يكون الضمير مرفوعاً بنعم، أو بئس، ولا يفسر إلا بالتمييز نحو: نعم رجلاً زيد، وبئس رجلاً عمرو، ويلتحق بهما فعل «بضم العين» الذي يراد به المدح والذم نحو «ساء مثلاً القوم» [الأعراف: ١٧٧] «كبرت كلمة تخرج من أفواههم» [الكهف: ٥] وظرف رجلاً زيد، وعن الفراء والكسائي أن المخصوص هو الفاعل، ولا ضمير في الفعل، ويرده نعم رجلاً كان زيد، ولا يدخل الناسخ على الفاعل، وأنه قد يحذف نحو: «بئس للظالمين بدلاً» [الكهف: ٥٠] (١).

وقال في الكلام على «ما خلا»: وزعم الجرمي، والربعي، والكسائي،

الفارسي، وابن جني أنه قد يجوز الجر على تقدير ما زائدة؛ فإن قالوا ذلك بالقياس ففاسد؛ لأن «ما» لا تزد قبل الجار والمجرور بل بعده «يعنى الجار» نحو: ﴿عما قليل﴾ [المؤمنون: ٤٥] ﴿فيما رحمة﴾ [آل عمران: ١٥٩] وإن قالوه بالسمع فهو من الشذوذ بحيث لا يقاس عليه (١).

وقال في الكلام على الكاف من «أرأيتك» بمعنى: أخبرني نحو: ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت على﴾ [الإسراء: ٦٢]، فالتاء فاعل والكاف حرف خطاب، هذا هو الصحيح، وهو قول سيبويه، وعكس ذلك الفراء فقال: التاء حرف خطاب والكاف فاعل لأنها المطابقة للمسند إليه، ويرده صحة الاستغناء عن الكاف وأنها لم تقع قط مرفوعة.

وقال الكسائي: التاء فاعل، والكاف مفعول، ويلزمه أن يصح الاقتصار على المنصوب، في نحو: رأيتك زيداً ما صنع؛ لأنه المفعول ولكن الفائدة لا تتم عنده (٢).

(١) معنى اللبيب ١ ١١٦ .

(٢) معنى اللبيب ١ ١٥٢ - ١٥٣ .

موقف ابن هشام من نحاة بغداد

لا يخطئ من يقول إن المذهب البغدادى كان مزيجاً من المذهب الكوفى والمذهب البصرى على أساس الترجيح بينهما واختيار أفضلهما، وكان صنب الأول منهما بادية عليه أكثر فى بادىء الأمر بسبب تغلب الكوفيين وبسط نفوذهم فى بغداد.

بيد أن الحال قد تحول بعد حين، وصار لون المذهب البصرى أكثر لمعاً فى المذهب البغدادى من مذهب الكوفيين، ولم يكن عمل البغداديين وفقاً عند المزج والتلفيق من المذهبين، أو قاصراً على المفاضلة والترجيح بينهما، بل لقد أسلمهم طول المراس وموالاتة البحث إلى قواعد أخرى لم يأت بها أحد المذهبين، وهدوا من عند أنفسهم وباجتهادهم إلى قواعد دونوها وأعانهم عليها القياس والسمع الذى لم يجفّ معينه إلى أواسط القرن الرابع الهجرى.

وموقف ابن هشام منهم فى مذهبهم يشبه موقفهم من نحو أسلافهم، فهو معهم إلى البصريين إذا أحسنوا، وعلى الكوفيين إذا ندوا عن الصراط المستقيم، وهذا دأب المجتهدين وديدن المجددين، ثم هو يشير إلى المسائل التى انفردوا بها وقد يخرج عليها.

أمثلة توضيح ذلك

- ١ - قال بصدد الجملة الاعتراضية فى الجمل التى لا محل لها من الإعراب:
أ - وزعم أبو على أنه لا يعترض بأكثر من جملة وذلك لأنه قال فى قول الشاعر:

أرانى ولا كـفـرـان لله آية

لنفسى قد طالبت غير منيل

إن «آية» وهى مصدر أويت له إذا رحمته ورفقت به لا يتنصب بأويت محذوفة لئلا يلزم الاعتراض بجملتين.

قال: وإنما انتصاه باسم لا أى، ولا أكفر لله رحمة منى لنفسى، ولزمه من هذا ترك تنوين الاسم المطول، وهو قول البغداديين: أجازوا لا طالع جبلاً، أجروه فى ذلك مجرى المضاف كما أجرى مجراه فى الإعراب، وعلى قولهم يتخرج الحديث: «لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت» (*).

وأما على قول البصريين فيجب تنوينه، ولكن الرواية إنما جاءت من غير تنوين^(١).

ب - وقال فى تعليق الظروف بما قبلها:

الثالث: تعليق جماعة الظروف من قوله تعالى: ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ [هود: ٤٣] ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ [يوسف: ٩٢] ومن قوله عليه الصلاة والسلام: «لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت» باسم لا، وذلك باطل عند البصريين، بأن اسم لا حينئذ مطول فيجب نصبه وتنوينه، وإنما التعليق فى ذلك بمحذوف إلا عند البغداديين^(٢).

(*) أخرجه: البخارى فى الأذان ٧٩٩، مسلم فى المساجد ومواضع الصلاة ٩٣٣، النسائى فى السهر ١٣٢٤.

(١) معنى اللبيب ٢ : ٥٢ .

(٢) معنى اللبيب ٢ : ١٢١ .

٢ - وقال فى الفرق بين اسم الفاعل والصفة المشبهة:

الحادى عشر: إنه يجوز اتباع مجروره على المحل عند من لا يشترط المحرز، ويحتمل أن يكون منه: ﴿وجاعل الليل سكناً والشمس﴾ [الانعام: ٩٦] ولا يجوز: هو حسن الوجه والبدن، بجر الوجه، ونصب البدن، خلافاً للفراء، وأجاز هو: قوى الرجل واليد برفع المعطوف، وأجاز البغداديون إتباع المنصوب بمجرور فى البابين كقوله ^(١):

فظل طهاة اللحم ما بين منضج

صفيف شواء أو قدیر معجل

القدیر: المطبوخ فى القدر، وهو عندهم عطف على صفيف، وخرج على أن الأصل، أو طابخ قدیر، ثم حذف المضاف، وأبقى جر المضاف إليه كقراءة بعضهم: ﴿والله يريد الآخرة﴾ [الأنفال: ٦٧] بالخفض، أو أنه عطف على صفيف، ولكن خفض على الجوار، أو على توهم أن الصفيف مجرور بالإضافة ^(٢). ومن تنمة هذا الموضع ما قاله فى العطف على المحل: له عند المحققين ثلاثة شروط:

الثانى: أن يكون الموضع بحق الأصالة فلا يجوز: هذا ضارب زيداً وأخيه؛ لأن الوصف المستوفى لشروط العمل الأصل إعماله لا إضافته لالتحاقه بالفعل، وأجازة البغداديون تمسكاً بقوله:

فظل طهاة اللحم ما بين منضج

صفيف شواء أو قدیر معجل ^(٣)

(١) هو امرؤ القيس.

(٢) معنى الليب ٢ : ٨٦ .

(٣) معنى الليب ٢ : ٩٢ - ٩٣ .

موقف ابن هشام من نحاة المغرب والاتدلس

سبقت الإشارة إلى ما وصل إليه النحو على يد علماء الأندلس والمغرب، وما وفقوا له من استدراقات، نتيجة عكوفهم على دراسته وإخلاصهم في خدمته حقبة من الزمن، حتى صار لهم فيه أثر، ونسب إليهم مذهب، وسنين هنا موقف ابن هشام من هذا المذهب الذي يعد خاتمة المذاهب النحوية.

١ - قال في الكلام على «حتى»: وزعم بعض المغاربة أنه لا يجوز: ضربت القوم حتى زيد ضربته، بالخفض ولا بالعطف، بل بالرفع أو بالنصب بإضمار فعل؛ لأنه يمتنع جعل ضربته توكيداً لضربت القوم.

قال: وإنما جاز الخفض في حتى نعله؛ لأن ضمير ألقاها للصحيفة، ولا يجوز أن يقدر على هذا الوجه أنه للنعل، ولا محل للجملة الواقعة بعد حتى الابتدائية خلافاً للزجاج، وابن درستويه، زعماً أنها في محل جر بحتى ويرده أن حروف الجر لا تعلق عن العمل، وإنما تدخل على المفردات، أو ما في تأويل المفردات، وأنهم إذا أوقعوا بعدها أن كسروها فقالوا: مرض زيد حتى إنهم لا يرجونه، والقاعدة أن حرف الجر إذا دخل على أن فتحت همزتها نحو: «ذلك بأن الله هو الحق» [الحج: ٦] (١).

٢ - وقال في الكلام على «غير» وتستعمل غير المضافة لفظاً على وجهين: أحدهما: وهو الأصل أن تكون صفة للنكرة نحو «نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل» [فاطر: ٣٧] أو لمعرفة قريبة منها: نحو «صرط الذين أنعمت عليهم» [الفاتحة: ٧] .. الآية؛ لأن المعرفة الجنسي قريب من النكرة؛ ولأن غيراً إذا وقعت بين ضدين ضعف إيهامها حتى رعم ابن السراج أنها حيثئذ تتعرف، ويرده الآية الأولى.

والثاني: أن تكون استثناء فتعرب بإعراب الاسم التالي إلا في ذلك الكلام فتقول: جاء القوم غير زيد بالنصب، وما جاءني أحد غير زيد بالنصب والرفع،

(١) معنى الليب ١ : ١١٣ - ١١٤ .

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولَى الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] يقرأ برفع «غير» إما على أنه صفة للقاعدون؛ لأنهم جنس، وإما على أنه استثناء، أو بدل على حد ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] ويؤيده قراءة النصب.

وإن حسن الوصف في «غير المغضوب عليهم» [الفاتحة: ٧] إنما كان لاجتماع أمرين: الجنسية والوقوع بين الضدين، والثاني مفقود هنا، ولهذا لم يقرأ بالخفض صفة للمؤمنين إلا خارج السبع؛ لأنه لا وجه لها إلا الوصف، وقرئ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] بالجر صفة على اللفظ، وبالرفع على الموضع، وبالنصب على الاستثناء وهي شاذة، وتحتل قراءة الرفع الاستثناء على أنه إبدال على المحل مثل: لا إله إلا الله، وانتصاب «غير» في الاستثناء عن تمام الكلام عند المغاربة كانتصاب الاسم بعد «إلا» عندهم، واختاره ابن عصفور^(١).

٣ - وقال في باب التعليق: وأما التعليق فهو إبطال عملها في اللفظ دون التقدير لا اعتراض ما له صدر الكلام بينها وبين معموليها، وهو واحد من أمور عشرة.

التاسع: «إن» التي في خبرها اللام نحو: «علمت أن زيدًا لقائم» ذكر ذلك جماعة من المغاربة، والظاهر أن المعلق إنما هو اللام لا إن إلا أن ابن الحبار حكى في بعض كتبه أنه يجوز علمت إن زيدًا قائم بالكسر مع عدم اللام، وأن ذلك مذهب سيويه فعلى هذا المعلق «إن»^(٢).

٤ - وقال في الفرق بين اسم الفاعل والصفة المشبهة:

العاشر: إنه يجوز اتباع معموله بجميع التوابع، ولا يتبع معمولها بصفة، قاله الزجاج ومتأخرو المغاربة، ويشكل عليهم الحديث في صفة الدجال: «أعور عينه اليمنى»^(٣).

هذا ولما كان ابن مالك من نحاة الأندلس وكان صاحب مدرسة لها مكانتها رأيت أن أفرد له كلامًا خاصًا تتجلى فيه مناقشة ابن هشام له وموقفه منه.

(١) معنى الليب ١ : ١٣٤ .

(٢) شلور الذهب ٢ : ٣٢٧ .

(٣) معنى الليب ١ : ٨٦ .

ابن هشام وابن مالك

لقد كان ابن هشام ولوعًا باقتفاء أثر أبي حيان شديد الوطأة عليه، وقد عللت حملاته، وذكرت من بين العلل أن ابن هشام محقق حقيق على ألا يقول إلا الحق.

ولكيلا يصح في الأذهان ما قيل من أن ابن هشام كان منافسًا هدامًا لأبي حيان ساذكر أمثلة تتجلى فيها خطة ابن هشام في تناوله آراء ابن مالك، ومعلوم أن ابن مالك عاش في القرن السابع من «سنة ٦٠٠ إلى سنة ٦٧٢ هجرية».

١ - قال في الكلام على «إلا».

«تنبيه» ليس من أقسام «إلا» التي في نحو: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ [التوبة: ٤٠] وإنما هذه كلمتان إن الشرطية، ولا النافية، ومن العجيب أن ابن مالك على إمامته ذكرها في شرح التسهيل من أقسام «إلا»^(١).

٢ - وقال في الكلام على «بل»:

إنها حرف إضراب فإن تلاها جملة كان معنى الإضراب إما الإبطال نحو: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون﴾ [الأنبياء: ٢٦] أى: بل هم عباد، ونحو: ﴿أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق﴾ [المؤمنون: ٧٠] وإما الانتقال من غرض إلى آخر، ووهم ابن مالك إذ زعم في شرح كافيته أنها لا تقع في التنزيل إلا على هذا الوجه.

ومثاله: ﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾ [الاعلى: ١٤، ١٥] ﴿بل تؤثر الحياة الدنيا﴾ [الاعلى: ١٦] ونحو: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل قلوبهم فى غمرة﴾ [المؤمنون ٦٢، ٦٣] وهى فى ذلك كله حرف ابتداء لا عاطفة على الصحيح^(٢).

(١) معنى اللبيب ١ : ٦٨ .

(٢) معنى اللبيب ١ : ١٠١ .

٣ - وقال فى الكلام على «ثم»:

«مسألة»: أجرى الكوفيون «ثم» مجرى الفاء والواو فى جواز نصب المضارع المقرون بها بعد فعل الشرط، واستدل لهم بقراءة الحسن: «ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله» [النساء: ١٠٠] بنصب يدرك.

وأجراها ابن مالك مجراها بعد الطلب، فأجاز فى قوله ﷺ: «لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم الذى لا يجرى، ثم يغتسل منه» (*) ثلاثة أوجه:

الرفع: بتقدير ثم هو يغتسل، وبه جاءت الرواية.

والجزم: بالعطف على موضع فعل النهى.

والنصب: قال بإعطاء «ثم» حكم واو الجمع، فتوهم تلميذه الإمام أبو زكريا النووى - رحمه الله - أن المراد إعطاؤها حكمها فى إفادة معنى الجمع فقال: لا يجوز النصب؛ لأنه يقتضى أن المنهى عنه الجمع بينهما دون أفراد أحدهما، وهذا لم يقله أحد بل البول منهى عنه سواء أراد الاغتسال فيه، أو منه، أو لا .. انتهى.

ولما أراد ابن مالك إعطاءها حكمها فى النصب لا فى المعية أيضاً، ثم ما أورده إنما جاء من طريق المفهوم لا المنطوق، وقد قام دليل آخر على عدم إرادته ونظيره إجارة الزجاج والزمخشري فى: «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق» [البقرة: ٤٢] كون تكتموا مجزوماً وكونه منصوباً مع أن النصب معناه: النهى عن الجمع (١).

٤ - وقال فى الكلام على: «حاشا» (٢): إنها على ثلاثة أوجه:

أحدها: أن تكون فعلاً متعدياً متصرفاً تقول: حاشيته بمعنى: استثنيته، ومنه الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أسامة أحب الناس إلى ما حاشا فاطمة» «ما» نافية والمعنى: أنه عليه الصلاة والسلام لم يستثن فاطمة، وتوهم ابن مالك

(*) أخرجه: البخارى فى الوضوء ٢٣٢، مسلم فى الطهارة ٤٢٤، الترمذى فى الطهارة ٦٣.

(١) مغنى اللبيب ١: ١٠٦.

(٢) رأيتها تكتب الألف هكذا «حاشا»، وبعضهم يكتبها بالياء هكذا «حشى».

أنها ما المصدرية، وحاشا الاستثنائية بناء على أنه من كلامه عليه الصلاة والسلام
فاستدل به على أنه يقال: قام القوم ما حاشا زيدا، كما قال^(١):

رأيت الناس ما حاشا قريشاً

فلإنا نحن أفضلهم فعلاً

ويردّه أن في معجم الطبراني «ما حاشا فاطمة ولا غيرها»^(*) ودليل تصرفه
قوله^(٢):

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه

ولا أحاشي من الأقوام من أحد

٥ - وقال في الكلام على أوجه: «حتى»:

الثالث: أن تكون حرف ابتداء أى حرفاً تبتدأ بعده الجمل، أى: تستأنف،
فيدخل على الجملة الأسمية كقول جرير:

فما زالت القنلى تمج دمائها

بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وقول الفرزدق:

فواعجباً حتى كليب تسبني

كأن أباهما نهشل أو مجاشع

ولابد من تقدير محذوف قبل «حتى» في هذا البيت يكون ما بعد «حتى» غاية
له أى: فواعجباً يسبني الناس حتى كليب تسبني.

وعلى الفعلية التي فعلها مضارع كقراءة نافع رحمه الله: «حتى يقول
الرسول» [البقرة: ٢١٤] برفع يقول، وكقول حسان:

يفشون حتى ما تهر كلابهم

لا يسألون عن السواد المقبل

(١) هو الأخطل.

(٢) هو النابغة الذبياني.

وعلى الفعلية التي فعلها ماض نحو ﴿حتى عفوا﴾ [الأعراف: ٩٥] وقالوا:
وزعم ابن مالك أن «حتى» هذه جارة، «وأن» بعدها أن مضمرة ولا أعرف له
في ذلك سلفاً، وفيه تكلف إضمار من غير ضرورة، وكذا قال في «حتى»
الداخلية على «إذا» في نحو: ﴿حتى إذا فشلتم وتنازعتم﴾ [آل عمران: ١٥٢] إنها
الجارّة، وأن أن في موضع جر بها، وهذه مقالة سبقه إليها الأخفش وغيره،
والجمهور على خلافها، وأنها حرف ابتداء وأن «إذا» في موضع نصب بشرطها،
أو جوابها، والجواب في الآية محذوف أي: امتحنتم، أو انقسمتم قسمين بدليل:
﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ [آل عمران: ١٥٢] ونظيره حذف
جواب «لما» في قوله تعالى: ﴿فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾ [لقمان: ٣٢]
أي: انقسموا قسمين فمنهم مقتصد، ومنهم غير ذلك.

وأما قول ابن مالك أن ﴿فمنهم مقتصد﴾ [لقمان: ٣٢] هو الجواب فمبنى على
صحة مجيء جواب «لما» مقروناً بالفاء ولم يثبت.

وزعم بعضهم أن الجواب في الآية الأولى مذكور، وهو «عصيتم»، أو
صرفكم، وهذا مبنى على زيادة الواو وثم، ولم يثبت ذلك^(١).

٦ - وقال في الكلام على: «قد»: ولها خمسة معان:

أحدها: التوقع: وذلك مع المضارع واضح كقولك: قد يقدم الغائب اليوم،
إذا كنت تتوقع قدومه.

وأما مع الماضي: فقد أثبتته الأكثرون، قال الخليل: يقال: قد فعل القوم.
ومنه قول المؤذن - يقصد المقيم -: قد قامت الصلاة؛ لأن الجماعة منتظرون
لذلك.

وقال بعضهم: تقول قد ركب الأمير لمن ينتظرون ركوبه.
وفى التنزيل: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك﴾ [المجادلة: ١]؛ لأنها كانت
تتوقع إجابة الله سبحانه وتعالى لدعائها.

وأنكر بعضهم كونها للتوقع مع الماضي، وقال: التوقع انتظار الموقوع، والماضي قد وقع.

وقد تبين بما ذكرنا أن مراد المثبتين لذلك أنها تدل على أن الفعل الماضي كان قبل الإخبار به متوقعاً لا أنه الآن متوقع.

والذى يظهر لى قول ثالث، وهو أنها لا تفيد التوقع أصلاً أما فى المضارع فلأن قولك: يقدم الغائب يفيد التوقع بدون «قد» إذ الظاهر من حال المخبر عن مستقبل أنه متوقع له.

وأما فى الماضى فلأنه لو صح إثبات التوقع لها بمعنى أنها تدخل على ما هو متوقع لصح أن يقال فى لا رجل بالفتح إن «لا» للاستفهام؛ لأنها لا تدخل إلا جواباً لمن قال: هل من رجل ونحوه، فالذى بعد لا مستفهم عنه من جهة شخص آخر كما أن الماضى بعد «قد» متوقع كذلك، وعبرة ابن مالك فى ذلك حسنة فإنه قال: إنها تدخل على ماض متوقع ولم يقل إنها تفيد التوقع، ولم يتعرض للتوقع فى الداخلة على المضارع البتة، وهذا هو الحق^(١).

٧ - وقال فى الكلام على: «كل»

وأجاز الفراء والزمخشري أن يقطع كل المؤكد بها عن الإضافة لفظاً تمسكاً بقراءة بعضهم: «إنا كل فيها» [غافر: ٤٨] وخرجها ابن مالك على أن كلا حال من ضمير الظرف، وفيه بُعدٌ من وجهيهن، تقديم الحال على عامله الظرفى، وقطع «كل» عن الإضافة لفظاً وتقديراً لتصيير نكرة فيصح كونه حالاً، والاجود أن تقدر كلا بدلاً من اسم إن، وإنما جاز إبدال الظاهر من ضمير الحاضر بدل كل؛ لأنه مفيد للإحاطة مثل: قمت ثلاثكم^(٢).

٨ - وقال فى الكلام على اللام غير العاملة: إنها سبع:

إحداها: لام الإبتداء: وفائدتها أمران: تأكيد مضمون الجملة ولهذا رُحِّقوها فى باب إن عن صدر الجملة كراهية إبتداء الكلام بمؤكدتين.

(١) معنى اللبيب ١ : ١٤٥ .

(٢) معنى اللبيب ١ : ١٦١ - ١٦٢ .

وتخليص المضارع للحال، كذا قال الاكثرون، واعترض ابن مالك الثانى بقوله تعالى: ﴿وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة﴾ [النحل: ١٢٤] «أنى ليحزنى أن تذهبوا به» [يوسف: ١٣] فإن الذهاب كان مستقبلاً فلو كان الحزن حالاً لزم تقدم الفعل فى الوجود على فاعله مع أنه أثره.

والجواب: أن الحكم فى ذلك اليوم واقع لا محالة، فتزل منزلة الحاضر، وأن التقدير: قصد أن تذهبوا، والقصد حال^(١).

٩ - وقال فى الكلام على: «لما»

الثانى من أوجه «لما» أن تختص بالماضى فتقتضى جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما نحو «لما جاءنى أكرمته» ويقال فيها حرف وجود لوجود، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وزعم ابن السراج وتبعه الفارسى وتبعهما ابن جنى، وتبعهم جماعة أنها ظرف بمعنى حين.

وقال ابن مالك: بمعنى «إذ» وهو حسن؛ لأنها مختصة بالماضى وبالإضافة إلى الجملة^(٢).

من هذه المناقشات الهادئة نتبين أن ابن هشام كان منصفاً فى نقده، وليس أدل على ذلك من استحسانه ما ذهب إليه ابن مالك فى موضعين من الموضوعات السالفة لما رأى أن الحق معه، وهذا شأن كل محقق يبطىء به الزمان فإن آراء السابقين ومذاهب المتقدمين تكون هدفاً لبحثه وتمحيصه، وفيما ذكرته من مناقشات ابن هشام لآراء الإمامين الجليلين «ابن مالك، وأبى حيان» وهما من أعلام الأندلس ما يغنى عن عرض مناقشاته مع بقية رجالاتهم: «كابن طاهر وابن عصفور وابن هشام الخضرأوى» ومن إليهم ممن لف لفهم فأراؤهم فى الكتاب مسطورة.

وإتماماً للبحث فى موقف ابن هشام من سلفه أرى لزماً على أن أعرض لوئاً من نقاشه العلمى لنحاة المشاركة مكتفياً منهم بالزجاج وابن جنى؛ لأنه كثيراً ما نقل عنهم وعزا إليهم.

(١) معنى اللبيب ١ : ١٨٥ .

(٢) معنى اللبيب ١ : ٢١٤ .

ابن هشام والزجاج

تقدم رأى الزَّجَّاج فى محل الجملة الواقعة بعد « حتى » الابتدائية ورد ابن هشام عليه، وسأعرض هنا ما قاله ابن هشام فى الكلام على: «كان».

قال: إنها حرف مركب عند أكثرهم حتى ادعى ابن هشام وابن الخبار الإجماع عليه وليس كذلك، قالوا: والأصل فى كأن زيداً أسد إن زيداً كآسد، ثم قدم حرف التشبيه اهتماماً به ففتحت همزة إن لدخول الجار، ثم قال الزجاج وابن جنى: ما بعد الكاف جر بها، قال ابن جنى: وهو حرف لا يتعلق بشيء لمفارقتة الموضع الذى تتعلق فيه بالاستقراء، ولا يقدر له عامل غيره لتمام الكلام بدونه، ولا هو زائد لإفادته التشبيه، وليس قوله: بأبعد من قول أبى الحسن إن كاف التشبيه لا تتعلق دائماً، ولما رأى الزجاج أن الجار غير الزائد حقه التعلق قدر الكاف هنا اسماً بمنزلة مثل فلزمه أن يقدر له موضعاً فقدرة مبتدأ فاضطر إلى أن قدر له خبراً لم ينطق به قط، وليس المعنى مفتقراً إليه، فقال معنى كأن زيداً أخوك مثل إخوة زيد إياك كائن.

وقال الأكثرون: لا موضع لأن وما بعدها لأن الكاف وإن صاراً بالتركيب كلمة واحدة، وفيه نظر لأن ذاك فى التركيب الوصفى لا فى التركيب الطارىء فى حال التركيب الإسنادى.

والمخلص عندى من الإشكال أن يدعى أنها بسيطة، وهو قول بعضهم، وفى شرح الإيضاح لابن الخبار، ذهب جماعة إلى أن فتح همزتها لطول الحرف بالتركيب، لا لأنها معمولة للكاف كما قال أبو الفتح، وإلا لكان الكلام غير تام، والإجماع على أنه تام.. انتهى. وقد مضى أن الزجاج يراه ناقصاً^(١).

(١) معنى الليب ١ : ١٥٩ .

ابن هشام وابن جنى

جاء ذكر ابن جنى أكثر من مرة فى مناسبات سبقت، وهنا بعض أمثلة أخرى تزيد فى إيضاح موقف ابن هشام منه.

قال فى الكلام على معنى «فى»: السابغ مرادفة «من» كقوله (١):

ألا عم صبأحاً أيها الطفل البالى

وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وهل يعمن من كان أحدث عهده

ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال

وقال ابن جنى: التقدير فى عقب ثلاثة أحوال، ولا دليل على هذا المضاف، وهذا نظير إجازته جلست زيدا بتقدير جلوس زيد مع احتمال له لأن يكون أصله إلى زيد، وقيل: الأحوال جمع حال لا حول، أى: فى ثلاث حالات: نزول المطر، وتعاقب الرياح، ومرور الدهور، وقيل: إن أحدث عهده خمس سنين ونصف فقى بمعنى مع (٢).

وقال فى الكلام على لام الجواب: وهى ثلاثة أقسام:

لام جواب لو نحو: ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ [الفتح ٢٥]، ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ولام جواب لولا: نحو: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولام جواب القسم: نحو: ﴿تالله لقد آثرك الله علينا﴾ [يوسف ٩١]، ﴿وتالله لا أكيدن أصنامكم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

ورغم أبو الفتح أن اللام بعد لو، ولولا، ولوما، جواب قسم مقدر، وفيه

(١) هو امرؤ القيس .

(٢) معنى اللبيب ١ ١٤٣ .

تعسف، ثم الأولى في : «ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير» [البقرة: ١٠٣] أن تكون اللام لام جواب قسم مقدر، بدليل كون الجملة اسمية. وأما القول بأنها لام جواب «لو» وأن الأسمية استعيرت مكان الفعلية كما في قوله:

وقد جعلت قلو ص بني سهيل

من الأكوار مرتعها قريب

ففيه تعسف، وهذا الموضع مما يدل عندى على ضعف قول أبى الفتح^(١). ولما كان ابن الحاجب إماماً في النحو له مقامه، وهو يمثل نحلة مصر المتأخرين الذين سبقوا ابن هشام بزمان غير بعيد كان لزاماً على أن أبين موقفه منه ومناقشته لأرائه.

ابن هشام وابن الحاجب

١ - قال ابن هشام فى زيادة: «إن» بكسر الهمزة، وزعم ابن الحاجب أنها تزداد بعد لما الإيجابية، وهو سهو وإنما تلك «أن» المفتوحة (١).

٢ - وقال بصدد ترجيح مجيء «أن» بفتح الهمزة شرطية مثل «إن» بكسر الهمزة، الثالث: عطفها على «إن» المكسورة فى قوله:

إما أقمت وأما أنت مرتحلاً

فإله يكلاً ما تأنى وما تذر

الرواية بسكر إن الأولى وفتح الثانية فلو كانت المفتوحة مصدرية لزم عطف المفرد على الجملة، وتَعَسَّفَ ابن الحاجب فى توجيه ذلك فقال: لما كان معنى قولك إن جئتني أكرمتك، وقولك: أكرمك لإتيانك إلى إياى واحداً صح عطف التعليل على الشرط فى البيت، ولذلك تقول إن جئتني وأحسنيت إلى أكرمتك، ثم تقول إن جئتني وإحسانك إلى أكرمتك فتجعل الجواب لهما.. انتهى، وما أظن العرب فاهت بذلك يوماً ما (٢).

٣ - وقال فى الكلام على وجوه «ألا»:

الخامس: العرض والتضيض، ومعناهما: طلب الشيء ولكن العرض طلب بلين والتضيض طلب بحث، وتختص «ألا» هذه بالفعلية نحو: «ألا تحبون أن يغفر الله لكم» [النور: ٢٢]، «ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم» [التوبة: ١٣]، ومنه عند الخليل قوله (٣):

ألا رجلاً جزاه الله خيراً

يدل على محصلة تبيت

والتقدير: عنده ألا ترونى رجلاً هذه صفته، فحذف الفعل مدلولاً عليه

(١) معنى اللبيب ١ : ٢٣ .

(٢) معنى اللبيب ١ : ٣٣ .

(٣) هو لأعرابى ومن أبيات الكتاب.

بالمعنى، وزعم بعضهم أنه محذوف على شريطة التفسير أى: ألا جزى الله رجلاً جزاءه خيراً وألا على هذه للتنبيه، وقال يونس: «ألا» للتمنى ونون اسم لا للضرورة.

وقول الخليل أولى لأنه لا ضرورة فى إضمار الفعل بخلاف التنوين، وإضمار الخليل أولى من إضمار غيره؛ لأنه لم يرد أن يدعو لرجل على هذه الصفة وإنما قصده طلبه وأما قول قول ابن الحاجب فى تضعيف هذا القول إن يدل صفة لرجل فيلزم الفصل بينهما بالجملة المفسرة، وهى أجنبية، فهو مردود بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرُ هَٰذَا هَلْ لَّيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦] ثم الفصل بالجملة لازم وإن لم تقدر مفسرة إذ لا تكون صفة؛ لأنها إنشائية^(١).

٢ - وقال فى الموازنة بين الحال والتمييز:

الرابع من أوجه الافتراق أن الحال يتعدد كقوله:

على إذا ما زرت ليلى بخفية

زيارة بيت الله رجلان حافيا

بخلاف التمييز، ولذلك كان خطأ فى قول بعضهم:

* تبارك رحماناً رحيماً ومؤثلاً *

أنهما تمييزان، والصواب أن رحماناً بإضمار أخص أو أمدح، ورحيماً حال منه لا نعت له؛ لأن الحق قول الأعلام، وابن مالك: أن الرحمن ليس بصفة بل علم وبهذا أيضاً يطل كونه تمييزاً وقول قوم إنه حال.

وأما قول الزمخشري: إذا قلت الله رحمن أتصرفه أم لا؟ وقول ابن الحاجب: إنه اختلف فى صرفه، فخارجٌ عن كلام العرب من وجهين؛ لأنه لم يستعمل صفة، ولا مجرداً من «أل» وإنما حذف فى البيت للضرورة^(٢).

٥ - وقال فى الكلام على المفعول المطلق من الباب السادس: وزعم ابن الحاجب فى شرح «المفصل» وغيره أن المفعول المطلق يكون جملة وجعل من

(١) معنى الليب ١ : ٦٥ .

(٢) معنى الليب ٢ : ٨٦ .

ذلك نحو: قال زيد: عمرو منطلق، وقد مضى رده، وزعم أيضاً في أنباء زيداً عمراً فاضلاً أن الأول مفعول به، والثاني، والثالث مفعول مطلق لأنهما نفس النبا،

قال: بخلاف الثاني، والثالث في أعلمت زيداً عمراً فاضلاً فإنهما متعلقا العلم لا نفسه، وهذا خطأ بل هما أيضاً منبا بهما لا نفس النبا. وهذا الذي قاله لم يقله أحد، ولا يقتضيه النظر الصحيح^(١).

ملاحظة

أكتفى بما قدمت من أمثلة، وهي فيما أعتقد كثيرة تمثل موقف ابن هشام من النحاة السابقين على اختلاف نزعاتهم وألوانهم، وتباين عصورهم، ولقد توخيت في هذه الأمثلة أن يكون كل موضوع وحدة مستقلة غير مفتقرة إلى كلام سابق، أو لاحق، بل لقد جاء بعض الأمثلة فضفاضاً يحمل بين يديه أو يجبر وراءه ما ليس في الظاهر من صميم المسألة، ولكنني آثرت هذا النهج لأنني أقصد ما يجيء تبعاً؛ لأنه قد يحمل خلافاً آخر، أو حجة بالغة.

ولم أشأ أن أعقب على آراء ابن هشام؛ لأنه لم يترك مجالاً للقول حيث دعم أقواله بالحجج وأيدها بالبراهين؛ ولأنه كان يتلمس مواطن الضعف فينفذ منها ويتلمس من أقوال العلماء أوهنها وأوهاها فيكر عليها ويدفعها، أما ما رآه حسناً فقد استمسك به وكشف عن محاسنه وأطراه.

ولما كان كتاب «المغنى» قد أغنى صاحبه عن تفسير القرآن وعن إعرابه فقد وجب التمثيل لهذا اللون من هذا الفن. والذي لا مرء فيه أن ابن هشام كان طويل الباع في إعراب القرآن، عميق الغوص في تفسير آياته، كثير الحاجة لآراء المفسرين، ولا سيما الزمخشري، وابن عطية، بيد أن «جار الله»(*) ناله من النقد شيء كثير.

وإن إمعان ابن هشام في نقد آراء الزمخشري لا يعدله في نظري إلا تتبعه

(١) مغنى اللبيب ٢ : ١٧٥ .

لهفوات أبي حيان، فلم سكت العلماء والمؤرخون عن الإشارة إلى هذه الحملات على حين أنهم ذكروها بصدد أبي حيان، والزمخشري نحوى مثله ١٩.

وعندى أن هذا دليل جديد يضاف إلى ما سلف، وهو أن ناحية التحقيق العلمية كانت غالبية على ابن هشام فجعلت منه ناقداً بصيراً يميز الخبيث من الطيب، ويتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ولقد عثرت في كتاب «المغنى» على كثير من نقد ابن هشام للزمخشري، وها أنا ذا مورد بعضه وبعض ما نال الرضا والاستحسان.

١ - قال في الكلام على «أو»: وزعم ابن مالك أن «أو» التي للإباحة حالة محل «الواو» وهذا أيضاً مردود؛ لأنه لو قيل: جالس الحسن وابن سيرين كان المأمور به مجالستهما معاً ولم يخرج المأمور عن العهدة بمجالسة أحدهما، هذا هو المعروف من كلام التحوين ولكن ذكر الزمخشري عند الكلام على قوله تعالى: ﴿تلك عشرة كاملة﴾ [البقرة: ١٩٦] إن «الواو» تأتي للإباحة نحو: جالس الحسن وابن سيرين، وإنه إنما جرى بالفضلكة دفعاً لتوهم إرادة الإباحة في: ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتن﴾ [البقرة: ١٩٦] وقلده في ذلك صاحب الإيضاح البياني ولا تعرف هذه المقالة لنحوى (١).

٢ - وقال في الكلام على «لن»: ولا تفيد «لن» تأكيد النفي خلافاً للزمخشري في كشافه، ولا تأييده خلافاً له في أنموذجه، وكلاهما دعوى بلا دليل، وقيل: لو كانت للتأييد لم يقيد منفيها باليوم في: ﴿فلن أكرم اليوم إنسياً﴾ [مريم: ٢٦]، ولكان ذكر الأبد في: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ [البقرة: ٩٥] تكراراً، والأصل عدمه (٢).

٣ - قال: وللزمخشري غلطة فإنه جورٌ مصدرية «ما» في «واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه» [هود: ١١٦] مع أنه قد عاد عليها الضمير (٣).

٤ - وقال فيما افرق فيه عطف البيان والبدل: إن البيان لا يخالف متبوعه في

(١) معنى اللبيب ١ : ٦١ .

(٢) معنى اللبيب ١ : ٢١٦ .

(٣) معنى اللبيب ٢ : ٧ .

تعريفه وتنكيره، وأما قول الزمخشري إن ﴿مقام إبراهيم﴾ [آل عمران: ٩٧] عطف على ﴿آيات بينات﴾ فسهو^(١).

وللموضوع الأنف بقية ذكرها فى الجهة السادسة من الجهات التى يدخل الاعتراض على العرب من جهتها حيث قال فى أوهام المعربين: ومن ذلك قول الزمخشري فى ﴿إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله﴾ [سباء: ٤٦] أن تقوموا عطف بيان على واحدة، وفى ﴿مقام إبراهيم﴾ أنه عطف بيان على ﴿آيات بينات﴾ مع اتفاق النحويين على أن البيان والمبين لا يتخالفان تعريفاً وتنكيراً.

وقد يكون عبر عن البديل بعطف البيان لتأخيها ويؤيده قوله فى: ﴿أسكنوهم من حيث سكتتم من وجدكم﴾ [الطلاق: ٦] إن ﴿من وجدكم﴾ عطف بيان لقوله تعالى: ﴿من حيث سكتتم﴾ وتفسير له: قال: «ومن» تبعية حذف بعضها أى: أسكنوهم مكاناً من مساكنكم مما تطيقون.. انتهى.

وإنما يريد البديل؛ لأن الخافض لا يعاد إلا معه، وهذا إمام الصناعة سيبويه يسمى التوكيد صفة وعطف البيان صفة، كما مر^(٢).

٥ - وقال فى الجهة الثانية من الجهات التى يدخل الاعتراض على العرب من جهتها: المثال التاسع قول الزمخشري فى: ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار﴾ [الروم: ٢٣] وهذا يقتضى أن يكون النهار معمولاً للابتغاء مع تقديمه عليه وعطفه على معمولى ﴿منامكم﴾، وهو بالليل، وهذا لا يجوز فى الشعر فكيف فى أفصح الكلام؟^(٣)

٦ - وقال: فى نفس الجهة السابقة:

المثال الثانى عشر: قول الزمخشري فى ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت﴾ [النساء: ٧٨] فيمن رفع يدرك أنه يجوز كون الشرط متصلاً بما قبله أى: ﴿ولا تظلمون فتبلاً أينما تكونوا﴾ [النساء: ٧٦، ٧٧] يعنى فيكون الجواب محذوفاً مدلولاً

(١) معنى اللبيب ٢ : ٨٣ .

(٢) معنى اللبيب ٢ : ١٣٦ .

(٣) معنى اللبيب ٢ : ١٢٢ .

عليه بما قبله، ثم يبدأ بـ «يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة» [النساء: ٧٨] وهذا مردود بأن سيبويه وغيره من الأئمة نصوا على أنه لا يحذف الجواب إلا وفعل الشرط ماض تقول: أنت ظالم إن فعلت، ولا تقول أنت ظالم إن تفعل؛ إلا فى الشعر^(١).

٧ - وقال فى الجهة الخامسة:

من الحال ما يحتمل كونه من الفاعل، وكونه من المفعول نحو: ضربت ريذاً ضاحكاً، ونحو: «وقاتلوا المشركين كافة» [التوبة: ٣٦] وتجويز الزمخشري الوجهين فى «أدخلوا فى السلم كافة» [البقرة: ٢٠٨] وهم لأن كافة مختص بمن يعقل، ووهمه فى قوله تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس» [سبا: ٢٨] إذا قدر «كافة» نعتاً لمصدر محذوف أى: إرسالة كافة أشد؛ لأنه أضاف إلى استعماله فيما لا يعقل إخراجهم عما التزم فيه من الحالية، ووهمه فى خطبة «المفصل» إذ قال: محيط بكافة الأبواب أشد، وأشد بإخراجه إياه عن النصب البتة^(٢).

٨ - وقال: فى الجهة السادسة:

النوع الأول: اشتراطهم الجمود لعطف البيان والاشتقاق للنعت، ومن الوهم فى الأول قول الزمخشري فى: «ملك الناس إله الناس» [الناس: ٣، ٢] إنهما عطفًا بيان، والصواب أنهما نعتان، وقد يجاب بأنهما أجريا مجرى الجوامد إذ يستعملان غير جاريتين على موصوف وتجرى عليهما الصفات نحو قولنا: إله واحد وملك عظيم^(٣).

وقد تبين مما سبق أن ابن هشام وقع على مواطن ضعيفة من الزمخشري نقدتها وجلى ضعفها.

ولتماماً للبحث فإننى أورد أمثلة مما استحسنها لهذا الإمام الجليل.

(١) معنى الليب ٢ : ١٢٣ .

(٢) معنى الليب ٢ : ١٣١ .

(٣) معنى الليب ٢ : ١٣٣ .

٩ - قال بصدد إفادة «أما» التوكيد:

وأما التوكيد فقل من ذكره، ولم أر من أحكم شرحه غير الزمخشري فإنه قال: فائدة «أما» فى الكلام أن تعطيه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت تأكيد ذلك قلت: أما زيد فذاهب، ولذلك قال سيبويه فى تفسيره مهما يكن من شىء فزيد ذاهب، وهذا التفسير مدل بفائدتين: بيان كونه توكيداً، وأنه فى معنى الشرط.. انتهى^(١).

١٠ - وقال فى حرف «السين المهملة»:

والسين المفردة حرف يختص بالمضارع ويخلصه للاستقبال وينزل منه منزلة الجزء، ولهذا لم يعمل فيه مع اختصاصه به، إلى أن قال: ومعنى قول المعربين فيها: حرف تنفيس، حرف توسيع، وذلك أنه يقلب المضارع من الزمن الضيق - وهو الحال - إلى الزمن الواسع - وهو الاستقبال - وأوضح من عبارتهم قول الزمخشري وغيره حرف الاستقبال^(٢).

١١ - وقال: فى معانى «فى»:

الخامس: مرادقة الباء كقوله^(٣):

ويركب يوم الروع منا فـوارس

بصيرون فى طعن الأباهر والكلى

وليس منه قوله تعالى: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١] خلافاً لزاعمه، بل هى للتعليل، أى: يكثر كم بسبب هذا الجعل، والأظهر قول الزمخشري إنها للظرفية المجازية قال: جعل هذا التدبير كالمنبع أو المعدن للبت، والتكسير مثل: ﴿وَلَكُمْ فى القصاص حياة﴾ [البقرة: ١٧٩]^(٤).

(١) معنى اللبيب ١ : ٥٣ - ٥٤ .

(٢) معنى اللبيب ١ : ١١٩ .

(٣) هو زيد الخيل.

(٤) معنى اللبيب ١ : ١٤٣ .

١٢ - وقال فى تقدير متعلق الظرف:

قال الزمخشري فى قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَنْقُذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩] إنهم جعلوا ﴿فِي النَّارِ﴾ الآن لتحقيق الموعود به، ولا يلزم ما ذكره؛ لأنه لا يمتنع تقدير المستقبل، ولكن ما ذكره أبلغ وأحسن^(١).
وانى أنتقل الآن وبهذه المناسبة إلى انتقاده لابن عطية.

(١) معنى الليب ٢ : ٨٠ .

ابن هشام وابن عطية

١ - قال في الكلام على «حاشا»:

والصحيح أنها اسم مرادف للبراءة في مثل «حاشا لله ما هذا بشراً» [يوسف: ٣١] بدليل قراءة بعضهم «حاشاً لله» بالتنوين كما يقال: براءة لله من كذا، وعلى هذا فقراءة ابن مسعود رضى الله عنه حاش الله كعاذ الله وليس جاراً ومجروراً كما توهم ابن عطية؛ لأنها إنما تجر في الاستثناء، ولتنوينها في القراءة الأخرى، ولدخولها على اللام في قراءة السبعة، والجار لا يدخل على الجار، وإنما ترك التنوين في قراءتهم لبناء حاشا لشبهها بحاشا الحرفية^(١).

٢ - وقال في الجهة الثانية من الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها، وهي أن يراعى المعرب معنى صحيحاً، ولا ينظر في صحته من الصناعة:

السادس: قال الحوفي: إن الباء من قوله تعالى: «فناظرة بهم يرجع المرسلون» [النمل: ٣٥] متعلقة بناظرة، ويرده أن الاستفهام له الصدر، ومثله قول ابن عطية في: «قاتلهم الله أنى يؤفكون» [التوبة: ٣٠] أن «أنى» ظرف لقاتلهم الله، وأيضاً فيلزم كون يؤفكون لا موقع لها حينئذ، والصواب تعلقهما بما بعدهما.

ونظيرهما قول المفسرين في: «إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون» [الروم: ٢٥] إن المعنى إذا أنتم تخرجون من الأرض فعلقوا ما قبل «إذا» بما بعدها، حكى ذلك عنهم ابن حاتم في كتاب «الوقف والابتداء» وهذا لا يصح في العربية^(٢).

٣ - وقال: في الجهة الرابعة، وهي أن يخرج الكلام على الأمور البعيدة والأوجه الضعيفة ويترك الوجه القريب والقوى:

العاشر: قول بعضهم في «الرحيم» من البسملة إنه وصل بنية الوقف فالتقى

(١) معنى الليب ١ : ١٠٨ .

(٢) معنى الليب ٢ : ١٢٢ .

ساكتان: الميم ولام الحمد فكسرت الميم للاتقائهما، وممن جور ذلك ابن عطية، ونظير هذا قول جماعة منهم المبرد: إن حركة راء أكبر من قول المؤذن الله أكبر الله أكبر فتحة وإنه وصل بنية الوقف.

ثم اختلفوا، فقليل: هي حركة الساكنين، وإنما لم يكسروا حفظاً لتفخيم اللام كما في ﴿الم الله﴾ [آل عمران: ٢٠١] وقيل: هي حركة الهمزة نقلت، وكل هذا خروج عن الظاهر لغير داع، والصواب أن كسرة الميم إعرابية، وأن حركة الراء ضمة إعرابية، وليس لهمزة الوصل ثبوت في الدرج فتنتقل حركتها إلا في نلور^(١).

وما دامت الأمثلة السابقة - إلا قليلاً - منها متزعة من كتاب «المغنى» فإنني سأنتزع منه لوئاً آخر قد جاء في ثناياه.

المغنى انار السبيل لدفع اعتراضات ترد على الشواهد العربية

وهى كتاب الله تعالى وحديث رسول ﷺ والشعر العربى

أحسن الله إلى ابن هشام فى حياته البرزخية كفاء ما أحسن إلى كتاب ربّه المنزل وحديث نبيه المرسل فى حياته الدنيوية، وجعل روحه الطاهرة فى جنة عالية قطوفها دانية لقاء ما أسدى صاحبها إلى عماد لغة الضاد وجزاء ما أقام على شواهد اللغة العربية من مصابيح تنير السبيل لدفع ما عسى أن يوجه إلى بعض آيات الله وما صح من حديث مصطفاه ﷺ وما حفظ من كلام العرب.

وتلك مكرمة من مكارم كثيرة مستودعها سفره الخالد «مغنى اللبيب» الذى هو للنحو نعم الذخيرة، فهو لم يترك الشاهد هدفاً للاعتراض دون أن يرشد إلى الجواب، ولم يرسل المثال يرتطم بالإشكال بل يقيم على سلامته الدليل، وهذا نهج حرص عليه كلما ساق شاهداً ظاهره يحمل الاعتراض، وإنى مورد هنا بعض ما وقفت عليه مسائراً ترتيب المؤلف.

١ - من ذلك ما يرد على قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرَان﴾ [طه: ٦٣].

وقوله ﷺ: «إِنْ قَعَر جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا» وقوله ﷺ: «إِنْ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَصُورُونَ» (*).

وقول عبد الله بن الزبير: «إِنْ وَحَامِلُهَا» جواباً لفضالة بن شريك إذا قال له: «لَعَنَ اللَّهُ نَاقَةَ حَمَلْتَنِي إِلَيْكَ».

وقول عمر بن أبى ربيعة:

إذا اسود جنح الليل فلتأتى ولتكن

خطاك خفافاً إن حراسنا أسدا

فإذا قيل فى الآية: إن «إِنْ» تنصب الاسم وترفع الخبر فما بال اسمها جاء هكذا، فالجواب: إن «إِنْ» بمعنى: نعم وليست هنا ناصبة رافعة، ومثلها الواقعة فى قول ابن الزبير، وإذا قيل: ما بال خير إن جاء منصوباً فى الحديث الأول.

وفى البيت؟ أجيب بأن المنصوب الثانى فى كل منهما ليس خبراً بل إن القعر فى الحديث مصدر: قعرت البئر إذا بلغت قعرها، و«سبعين» ظرف أى: إن بلوغ قعرها يكون فى سبعين خريفاً، و«أسدا» فى البيت حال والخبر محذوف أى: تلقاهم أسداً، أو نصب الجزئين لغة.

أما الحديث الثانى: فلإن قيل: كيف رفع اسم «إن»، وهو «المصورون» فالجواب: أن اسمها ضمير شأن محذوف تقديره إنه والمصورون مبتدأ سبقه خبره، وهو متعلق من «أشد»، قال ابن هشام: وتخرىج الكسائى الحديث على زيادة «من» فى اسم «إن» ياباه غير الأخفش من البصريين؛ لأن الكلام إيجاب والمجرور معرفة على الأصح، والمعنى أيضاً ياباه؛ لأنهم ليسوا أشد عذاباً من سائر الناس^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يسن: ٨٢] وقول جميل:

ألم تسأل الربع القواء فينطق

وهل يخبرنك اليوم ييذاء سملق؟

وقول الخطيئة:

الشعر صعب طويل سلمه

إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه

زلت به إلى الحضيض قدمه

يريد أن يعر به فيمجمه

يقال: كيف رفع يكون - فى الآية - وينطق ويعجمه فى اليتين، ولو كانت الفاء عاطفة لجزم يكون وينطق، ونصب يعجمه، ولو كانت للسببية لنصب الفعل فى الثلاثة فيقال إن الفاء للاستثناء والتقدير هو والتحقيق أن الفاء للعطف، وأن المعتمد بالعطف الجملة لا الفعل، والمعطوف عليه فى شعر الخطيئة يريد، وتقدير النحويين كلمة «هو» لبيان أن الفعل ليس المعتمد بالعطف^(٢).

(١) معنى الليب ١ : ٣٤ - ٣٥ .

(٢) معنى الليب ١ : ١٤١ .

٣ - وقال فى الكلام على «لو»:

لهجت الطلبة بالسؤال عن قوله تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال: ٢٣].

وتوجيهه أن الجملتين يتركب منهما قياس، وحيثذ فينتج ﴿لو علم الله فيهم خيراً لتولوا﴾ وهذا مستحيل.

والجواب من ثلاثة أوجه، اثنان يرجعان إلى نفي كونه قياساً، وذلك بإثبات اختلاف الوسط.

أحدها: أن التقدير لأسمعهم إسماعاً نافعاً، ولو أسمعهم إسماعاً غير نافع لتولوا.

والثانى: أن تقدر «ولو أسمعهم» على تقدير عدم علم الخير فيهم.

والثالث: بتقدير كونه قياساً متحد الوسط صحيح الإنتاج، والتقدير: ولو علم الله فيهم خيراً وقتاً ما لتولوا بعد ذلك الوقت، إلا أنه قد أتى فى هذا المقام بما يروى الأوام ويدفع الأوهام^(١).

٤ - ومن الآيات التى جلاها وكشف عنها ما يغشاها والتى غص بها كتاب «التطبيقات العربية للعلامة الكبير نجاتى بك»:

لما رأيت أبا يزيد مـقاتلا

أدع القتال وأشهد الهيجاء

والاعتراض على هذا البيت من ثلاث شعب:

الأولى: أين جواب لما؟

الثانية: ما عامل النصب فى أدع؟

الثالثة: كيف يستقيم قوله «لن أدع القتال» مع قوله «لن أشهد الهيجاء»؟

والجواب أن «لما» مركبة من «لن»، و«ما»، ووصلاً خطأ للإلغاز فهى إذن غير

(١) معنى اللبيب ١ : ٢٠٣.

مفتقرة إلى جواب، وأن عامل النصب في أدع هو لن المدغمة في ما المصدرية الظرفية.

وأن أشهد ليس معطوفاً على أدع بل هو منصوب بأن مضمرة، وإن وأشهد في تأويل مصدر عطف على القتال، والتقدير: لن أدع القتال وشهود الهيجاء^(١).

٥ - ومن مشكلات الآيات قول يزيد بن الحكم:

فليت كفافاً كان خيرك كله

وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوى

وإشكاله من ثلاثة أوجه:

الأول: عدم ارتباط خبر لیت باسمها إذا الظاهر أن «كفافاً» اسم لیت، وأن «كان» تامة، وهي مع فاعلها خبر «ليت» مع خلوها من ضمير.

الثاني: تعليق عني بمرتو، وإنما يقال ارتوى من الشراب مثلاً.

الثالث: إيقاعه الماء فاعلاً بارتوى، وإنما يقال ارتوى الشارب.

والجواب عن الأول: أن «كفافاً» ليس اسماً للیت، وإنما هو خبرٌ لكان مقدمٌ عليها، وهو بمعنى كاف، وأما اسم لیت فهو محذوف للضرورة، أي: فليتك، أو فليته، أي: فليت الشأن، ومثله قوله عدی:

فليت دفعت السهم عني ساعة

فبنتنا على ما حيلت ناعماً بالي

وخيرك اسم كان وكله توكيد له، والجملة من كان واسمها وخبرها خبر لیت، وأما «وشرك» فيروى بالرفع عطفاً على خيرك فخبره إما محذوف تقديره: كفافاً، وإما «مرتو» وسكن للضرورة كقول قيس بن الملوح:

ولو أن واشٍ بالي مائة داره

وداري بأعلى حضر موت اهتدى ليأ

(١) معنى الليب ١ : ٢١٥ - ٢١٦.

ويروى بالنصب إما على أنه اسم لليت محذوفة وسوغ حذفها تقدم ذكرها كما ساغ حذف كل وبقاء الخفض في قوله^(١):

أكل أمرىء تحسبين أمرا

ونار توقد بالليل نارا

وإما على العطف على اسم ليت المذكورة، إن قدر ضمير المخاطب، فأما ضمير الشأن فلا يعطف عليه في حال الذكر فكيف يعطف عليه، وهو محذوف، ومرتو على الوجهين مرفوع إما لأنه خبر ليت المحذوفة، أو لأنه عطف على خبر ليت المذكورة.

والجواب عن الثاني: أن «مرتو» ضمن معنى كاف؛ لأن المرتوى يكف عن الشرب كما جاء مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ [النور: ٦٣] لأن يخالفون في معنى يعدلون ويخرجون فعدها بمن.

ويندفع هذا الإشكال أيضاً بجعله متعلقاً بمحذوف تقديره: كفاً إذا رفعنا «الشر».

والجواب عن الثالث: أن رفع الماء إما على حذف مضاف أى: شارب الماء، وإما على جعل الماء مرتوياً مجاز كما جعل صادياً في قوله:
* وَجِبْتُ هَجيراً يترك الماءَ صادياً *

ويروى الماء بالنصب على تقدير «من» كما في قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾ [الأعراف: ١٥٥] ففاعل أرتوى على هذا مرتو، كما تقول ما شرب الماء شارب^(٢).

٦ - وقال في الكلام على معنى «من»:

وفي كتاب «المصاحف» لابن الأنباري إن بعض الزنادقة تمسك بقوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعلموا الصالحات منهم مغفرة﴾ [الفتح: ٢٩] في الطعن على بعض الصحابة.

(١) هو أبو داود بن الحجاج.

(٢) معنى الليب ١ : ٢١٨ - ٢١٩ .

والحق أن «من» فيها للتبيين لا للتبعيض، أى: الذين آمنوا هم هؤلاء، ومثله: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لَهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ» [آل عمران: ١٧٢]، وكلهم حسن ومتق: «وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذابٌ إليم» [المائدة: ٧٣] فالمقول ذلك فيهم كلهم كفار، فاستطاع ابن هشام بجعل «من» للبيان أن يدفع ما يرد على الآيات المحكمات من قدح فى مقام المصطفين الأخيار، أو إبقاء على بعض المجرمين الفجار فى بيان رائع وبراعة ظاهرة^(١).

ابن هشام لا يخرج التنزيل على الشاذ أو القليل

إن ما تمتع به ابن هشام من بسطة فى العلم، وما اتصف به من دقة فى الفهم، وما امتاز به من سعة الأفق، وما وصل إليه من دراسة شاملة بآراء النحاة وفقه لاساليب النحو، كل أولئك كان حافزاً له على منع تخريج بعض آيات الكتاب على القليل أو الشاذ من لغات العرب، ولا يعول على القليل ولا يركن إلى الشاذ إلا كل بكى قليل الحيل ضئيل الزاد والمحصول، فلا بدع إذاً أن عزف ابن هشام عن هذا السبيل، وصدف عن تخريج القرآن على الشاذ، أو القليل ما قامت أمامه السبل «فى لجة البحر ما يغنى عن الوشل»، والأمثلة على ذلك منثورة فى كتبه، وإنى مورد هنا بعضها.

١ - قال فى الكلام على «بلى»:

وتختص بالنفى وتفيد إبطاله سواء أكان مجرداً نحو: «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي» [التغابن: ٧] أم مقروناً بالاستفهام حقيقياً كان نحو: أليس زيد بقاتم؟ فتقول: بلى، أو تويخياً نحو: «أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى» [الزخرف: ٨٠]، «أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه بلى» [القبامة: ٢، ٣]، أو تقريرياً نحو: «ألم يأتكم نذيرٌ قالوا بلى» [الملك: ٨]، «أأست بربكم قالوا بلى» [الأعراف: ١٧٢] أجروا النفى مع التقرير مجرى النفى المجرد

(١) معنى اللبيب ٢ : ١٤ .

فى رده بلى، ولذلك قال ابن عباس وغيره: لو قالوا نعم لكفروا، ووجهه أن نعم تصديق للمخبر بنفى أو إيجاب، ولذلك قال جماعة من الفقهاء: لو قال ليس لى عليك ألف؟ فقال: بلى، لزمته، ولو قال: نعم لم تلزمه، وقال آخرون: يلزمه فيهما، وجروا فى ذلك على مقتضى العرف لا اللغة، ونارح السُّهَيْلى^(*) وغيره فى «المحكى» عن ابن عباس وغيره فى الآية مستمسكين بأن الاستفهام التقريرى خبر موجب، ولذلك امتنع سيويه من جعل أم متصلة فى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢] لأنها لا تقع بعد الإيجاب، وإذا ثبت أنه إيجاب فنعم بعد الإيجاب تصديق له .. انتهى.

ويشكل عليهم أن «بلى» لا إيجاب بها عن الإيجاب، وذلك متفق عليه، ولكن وقع فى كتب الحديث أنه إيجاب بها الاستفهام المجرد، ففى صحيح البخارى فى كتاب «الإيمان» أنه عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قالوا: بلى».

وفى صحيح مسلم فى كتاب «الهيئة»: «أيسرك أن يكونوا لك فى البر سواء؟ قال: بلى، قال: فلا إذن» وفيه أيضاً أنه قال: «أنت الذى لقيتنى بمكة؟ قال له المجيب: بلى» وليس لهؤلاء أن يحتجوا بذلك؛ لأنه قليل فلا يخرج عليه التنزيل^(١).

٢ - وقال فى الكلام على «كل»:

اعلم أن لفظ كل حكمة الأفراد والتذكير، وأن معناها بحسب ما تضاف إليه؛ فإن كانت مضافة إلى منكر وجب مراعاة معناها، فلذلك جاء الضمير مفرداً مذكراً فى نحو: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّيْنِ﴾ [القمر: ٥٢]، ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِّزَمَانِهِ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

وقول أبى بكر، وكعب، وليد:

كل امرئ مصباح فى أهله

والموت أدنى من شراك نعله

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يوماً على آله حدياء محمول
ألا كل شيء ما خلا الله باطل
وكل نعيم لا محالة زائل

وقول السؤال:

إذا المرء لم يندس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

ومفرداً مؤثلاً في قوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [المدثر: ٣٨] ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ثم مثل للمثنى وللجمع مراعيًا حالهما إلى أن قال: إن الجمع في مثل ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [المؤمنون: ٥٣] واجب، وليس من ذلك ﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ [غافر: ٥] لأن القرآن لا يخرج علي الشاذ، وإنما الجمع باعتبار معنى الأمة، ونظيره الجمع في قوله تعالى: ﴿أمة قائمة يتلون﴾ [آل عمران: ١١٣]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وعلى كل ضامر يأتين﴾ [الحج: ٢٧] فليس الضامر مفرداً في المعنى بل هو اسم جمع كالحامل، والباقر، أو صفة لجمع محذوف أي: كل نوع ضامر ونظيره ﴿لا تكونوا أول كافرين﴾ [البقرة: ٤١] (١).

فهذان المثالان: وغيرهما كثير يدلان على أنه كان محافظاً في جنب كتاب الله تعالى لا يخرج الآيات البيّنات إلا على ما أطرده وتتابع، وكان وفق المشهور الكثير، أما الشاذ والقليل فما كان يلقي منه قياساً عليه، أو التفاتاً إليه، ومن هنا تبين أن ابن هشام كان تعويله على السماع المتواتر، وأنه ما كان يعبأ بالقياس إلا إذا عضده هذا السماع، ويؤيد ذلك نهجه في كتبه، وكثرة إحالة ما لا يطمئن إليه من الأبيات الشعرية على الضرورة أو الشذوذ، على حين أن الكوفيين ومن لف لفهم يقبلون مثل ذلك وقيسون عليه.

ولابن هشام كلام حسن قاله فى الجهة الرابعة من الجهات التى يدخل الاعتراض على العرب من جهتها، وهو أن يخرج على الأمور البعيدة والأوجه الضعيفة، ويترك الوجه القوى القريب، فإن كان لم يظهر له إلا ذاك فله عذر، وإن ذكر الجميع فإن قصد بيان المحتمل، أو تدريب الطالب فحسن إلا فى الفاظ التتزيل، فلا يجوز أن يخرج إلا على ما يغلب على الظن إرادته؛ فإن لم يغلب شيء فليذكر الأوجه المحتملة من غير تعسف، وإن أراد مجرد الإغراب على الناس وتكثير الأوجه فصعب شديد^(١).

(١) معنى اللبيب ٢ : ١٢٤ .

الفصل الثالث

ما انفرد به ابن هشام

لقد انفرد ابن هشام بأمور بعضها يتعلق بالشكل وبعضها الآخر يتعلق بالموضوع، وبعبارة أدق: منها ما يمس العرض، ومنها ما أصاب الجوهر.

أما الأول فجودة الصياغة، وحسن العرض، وقوة البيان، ووفاء البحث، والإحاطة بأطراف كل موضوع من جميع نواحيه، وبيان وجه الصواب فيه مع الإيجاز حتى في مطولاته التي يمثلها «المغنى»، ذلك الكتاب الذي جمع فأوعى وجاء سليماً من الإطناب الممل الذي يدعو إليه الحشو أو التكرار، مستعيضاً عن ذلك بغزارة الشواهد التي أرسى بها أساس القواعد.

والظاهرة البارزة في مؤلفات ابن هشام هي الوضوح والجلء إلى حد أن كتبه تفهم من غير ما حاجة إلى موقف، أو ملقن، والشروح التي جللتها لم تفتح منها مغلقاً، أو توضح مبهماً، أو تحل تعقيداً كما هو الشأن في مؤلفات غيره، وإنما مسحت كلفاً، وذكرت نتفاً.

وهذه الميزات كانت مغرية لعشاق النحو أن يتلقفوا مصنفات ابن هشام؛ لأنهم رأوا فيها طعماً آخر ييل الأوام ويشفى الغليل، ألم تر إليه كيف أبدع وضع «المغنى» في ثمانية أبواب، وأخرجه للناس كما أراد هو وكما ينبغي أن يكون دون ما تواضع عليه النحاة قديماً وحديثاً من خلط وتعقيد.

وكيف استخلص آراء فحولهم في جميع العصور، وقدم ثمرات قرائحهم عصارة مصفاة في هذه الأبواب.

وتناول في الباب الأول تفسير المفردات تفسيراً شاملاً، وأتى على أحكامها حتى لم يدع قولاً لقائل، واستغرق هذا البحث وحده الجزء الأول برمته، وهو

يقع فى اثنتين وعشرين ومائتى صفحة كما استنفد أربعين صفحة من الجزء الثانى، وقد رأيت كتابين فى بحث معانى الحروف.

أحدهما للمرادى، وهو معاصر لابن هشام، وتوفى قبله، ويسمى هذا الكتاب «الجنى الدانى فى حروف المعانى» وهو مخطوط لم يطبع بعد.

والآخر لعلاء الدين بن على بن بدر الدين بن محمد الأربلى ويسمى «جواهر الأدب فى معرفة كلام العرب» وسأعقد موازنة بين الثلاثة فى بحوثهم، وكان الملائم ذكرها هنا ولكن قلة المراجع عن الإربلى جعلتنى أرجئ هذه الموازنة.

وذكر ابن هشام فى الباب الثانى: الجملة وأقسامها وأحكامها فأوفى على الغاية، ولم يقف دون النهاية.

وجاء الباب الثالث يحمل بين دفتيه أحكام ما يشبه الجملة، وهو الظرف، والجار والمجرور، وذكر حكمهما فى التعلق، وهو فى هذا الباب لا يشق له غبار، ولا تدرك له آثار، ولو وقف ابن هشام هنا لما كان مذموماً أو ملوماً، بل كان له فضل ضم الإلف إلى ألفه ونظم الصنوع مع صنوه، وجمع النحو فى ثلاثة أبواب.

ولكن المجتهد لا يقف اجتهداه ونتاجه عند هذا الحد، والمجدد لا يقنع فى ابتكاره وتجديده بهذا الرقد.

وابن هشام فيما أعتقد مجددٌ مجتهدٌ؛ لأنه درس كتب القدامى والمحدثين وشغف بهذا العلم وتضلّع فيه، وفيما يمت إليه، ووعى مفردات اللغة وعقل تراكيبها، وفقه العربية وطعم أساليبها ونهل من موردها الصافى حتى كاد الرى يخرج من أظافره.

ومن كان هذا مبلغه من العلم فهو لا يفتأ يكّد ويجهد حتى يفتح فتحاً جديداً، وكان أن هدى ابن هشام إلى تحرير أمور مختلفة إذا فطن لها الناشئون فى هذا العلم ورّعوها حق رعايتها صار النحو لهم ملكة وفيهم سجية يتجنبون معهما مواقع الزلل ومواطن العثار، وقد جعل المؤلف هذه الأمور فى خمسة أبواب من هذا الكتاب.

الباب الأول منها - والرابع فى ترتيب الأبواب - فى ذكر أحكام يكثر دورها ويقبح بالمعرب جهلها وعدم معرفتها على وجهها، إنه لعنوان طريف يستهوى القارئ ويشوقه أن يرى ما حوله، والنفس إذا اندفعت راغبة فى شىء وعته وأتقنته، وقد جمع فى هذا الباب أشتاتاً مما تفرق فى غير هذا الكتاب، وجعلها لينة اللمس محببة إلى النفس.

الباب الثانى منها - والخامس فى ترتيب الأبواب -: فى ذكر الجهات التى يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها، وهذا الباب هو الثقافة النحوية لمن أرادها ذلولة المركب صافية المشرب.

وقد أودع فيه المؤلف ما ينبغى للمعرب أن يأخذ به نفسه ليستقيم لسانه فيسلم إعرابه وذيله بالكلام على الحذف، مفصلاً أحكامه فى شتى أبوابه فأبدع وأجاد، وفى هذا الباب أجلّ خدمة لكتاب الله تبارك وتعالى، ولسنة رسوله ﷺ ولما صح من شعر العرب، فقد أنار الطريق لدفع ما يتوارد عليها من اعتراضات، فكان بهذا الصنيع أجدر النحاة بالتقدير.

الباب الثالث منها - والسادس من أبواب الكتاب -: فى التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها، وهو فى هذا الباب قد حرر أموراً تنكب فيها المعربون جادة الصواب، وأراهم وجه الحق الذى ينبغى أن يتمسكوا به، وهذا الباب جليل النفع لمن أراد أن يستمسك فى الإعراب بالعروة الوثقى.

الباب الرابع منها - والسابع من أبواب الكتاب -: فى كيفية الإعراب، وجل هذا الباب يفيد الناشئين؛ لأنه يشتمل على كثير مما يعينهم فهمه على وجهه وتمييزه عما يشبهه كتمييز الأصل من الزائد.

الباب الخامس منها - والثامن من أبواب الكتاب -: فى ذكر أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية، منها إعطاء الشىء حكم ما يشبهه فى معناه، أو فى لفظه، أو فيهما، وللأول صور كثيرة منها دخول الباء فى حيز أن فى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ﴾ [الاحقاف: ٣٣] لأنه فى معنى، أو ليس الله بقادر، ومنها وقوع

الاستثناء المفرغ في الإيجاب مثل قوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ [التوبة: ٣٢] لما كان المعنى: وإنها لا تسهل إلا على الخاشعين، ولا يريد الله إلا أن يتم نوره.

وللثاني صور كثيرة أيضاً منها زيادة «إن» بعد «ما» المصدرية الظرفية، وبعد «ما» التي بمعنى «الذى» لأنهما بلفظ النافية كقوله: «المعلوط القريعى».

وَرَجَّ الفتنى للخير ما إن رأيت
على السن خـيـراً لا يزال يزيد
وقوله (١):

يرجى المرء ————— إن لا يراه
ويعرض ————— دون أدناه الخطوب
فهذان محمولان على نحو قوله: «دريد بن الصمة».
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
كاليسوم هانىء أينق جرب

ومنها تأكيد المضارع بالنون بعد «لا» النافية حملاً لها في اللفظ على «لا» الناهية نحو: ﴿أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾ [النمل: ١٨] ونحو: ﴿واتقوا فتنة لا تُصين الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [الأنفال: ٢٥] فهذا محمول في اللفظ على نحو.

﴿ولا تحسبن الله غافلاً﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وهذا إذا لم تؤول «لا» على النهى، أما من أولها عليه فإنه لا يحتاج إلى هذا.

والثالث مثل اسم التفضيل، وأفعل في التعجب فإنهم منعوا أفعل التفضيل أن يرفع الظاهر لشبهه بأفعل في التعجب وزناً وأصلاً وإفادة للمبالغة، وأجاروا

(١) قال ابن الأعرابي في «نواده» هو لجابر بن والان الطائي، ويقال: لإياس بن الأثرث، ص ٣٢ من شواهد السيوطي.

تصغير أفعل فى التعجب لشبهه بأفعل التفضيل فيما ذكر.

ومن قواعد هذا الباب إعطاء الشئ حكم ما جاوره نحو: هذا جحر ضب
خرب، وقول امرئ القيس:

كأن أبانا فى عرّانين وبله

كبير أناس فى بجّاد مزمل

ومن قواعد إشراب لفظ معنى لفظ فيعطى حكمه، وهو المسمى تضميناً،
وفائدته أن تؤدى كلمة مؤدى كلمتين، مثل: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾
[النساء: ٢] أى: لا تضموها إليها أكلين.

وقوله تعالى: ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ [آل عمران: ١١٥] أى: فلن
يحرّموه أى: فلن يحرموا ثوابه، ولهذا عدى إلى اثنين لا إلى واحد، ومنه قول
الفرزدق:

كيف ترانى فاليا مجنى

قد قتل الله زياداً عنى

أى: صرفه عنى بالقتل، قال ابن هشام: وهو كثير.

قال أبو الفتح فى كتاب «التمام»: أحسب لو جُمعَ ما جاء منه لجاء منه كتاب
يكون مئين أوراقاً^(١).

ما انفرد به ابن هشام في الباب وفي الصميم

أما الأمور التي انفرد بها ابن هشام، وكانت في لباب العلم وفي صميم النحو، والتي تنم عن رسوخ قدمه، وتدل على نفاذ بصيرته وصفاء قريحته، وتجعله في صفوف الثقات المجتهدين فإنني أورد منها ما وقفت عليه في بعض كتبه التي هي في متناول اليد الآن، ولعل له فتوحات أخرى كثيرة فيما حُجِبَ عنا من مؤلفاته التي استأثرت بها مكتبة ليدن، وبرلين، والتي نوه بها العلامة السيوطي.

ومنها ما بلغ خمسة عشر مجلداً، فالذي يتاح له مطالعة هذه الموسوعات يستطيع أن يستخلص منها قدراً أوفر مما انفرد به ابن هشام وعملاً بالقول المأثور «ما لا يدرك كله لا يترك جله» أذكر ما ألفيته، ولإعجال الوقت دخل في اقتصاري على ما سأذكر إذ إن الإتيان بما انفرد به كاملاً يقتضي ريثاً وموازنة تامة بين مؤلفاته ومؤلفات غيره، وهي جد كثيرة تفتقر دراستها وحدها إلى بضع سنين، وقد سمعت أن مستشرقاً عكف على دراسة حرفي السلب والإيجاب زهاء سبعة عشر عاماً، ثم ندم عند تمامها على جمعه بينهما، وبدأ له أنه كان أجدى عليه إنفاق تلك الحقبة في دراسة أحدهما.

١ - فمما انفرد به أن «قد» الحرفية لا تفيد التوقع، حيث قال: إن لها خمسة معان:

أحدها: التوقع: وذلك مع المضارع واضح كقولك: قد يقدم الغائب اليوم؛ إذا كنت تتوقع قدومه.

وأما مع الماضي فأثبتته الأكثرون، قال الخليل: «يقال: قد ظل القوم ينتظرون الخبر» ومنه قول المؤذن: قد قامت الصلاة؛ لأن الجماعة منتظرون لذلك، ولا يخفى أنه يريد مقيم الصلاة، وقال بعضهم: تقول: قد ركب الأمير لمن ينتظر ركوبه، وفي التنزيل: «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها» [المجادلة: ١] لأنها كانت تتوقع إجابة الله سبحانه وتعالى لدعائها، وأنكر بعضهم كونها للتوقع مع الماضي، وقال التوقع: انتظار الوقوع، والماضي قد وقع.

وقد تبين بما ذكرت أن مراد المثبتين لذلك أنها تدل على أن الفعل الماضي كان قبل الإخبار به متوقعاً لا أنه الآن متوقع، والذي يظهر لي قول ثالث: وهو أنها لا تفيد التوقع أصلاً.

أما في المضارع فلأن قولك: يقدم الغائب يفيد التوقع بدون قد إذ الظاهر من حال المخبر عن مستقبل أنه متوقع له.

وأما في الماضي فلأنه لو صح إثبات التوقع لها بمعنى أنها تدخل على ما هو متوقع لصح أن يقال في لا رجل بالفتح إن «لا» للاستفهام لأنها لا تدخل إلا جواباً لمن قال: هل من رجل ونحوه، فالذي بعد «لا» مستفهم عنه من جهة شخص آخر كما أن الماضي بعد «قد» متوقع كذلك.

ثم قال: وعبارة ابن مالك في ذلك حسنة فإنه قال: إنها تدخل على ماض متوقع، ولم يقل إنها تفيد التوقع، ولم يتعرض للتوقع في الداخلة على المضارع البتة، هذا هو الحق^(١).

٢ - ومنه توجيه جواز النصب على الاشتغال في مثل خرجت فإذا زيد قد ضربه عمرو، وهو رأى أبي الحسن، وقد وافقه عليه ابن عصفور.

حيث قال: ووجهه عندي أن التزام الأسمية مع إذا هذه إنما كان للفرق بينها وبين الشرطية المختصة بالفعلية فإذا اقترنت بقدر حصل الفرق بذلك إذ لا تقترن الشرطية بها^(٢).

٣ - ومنه: تحرير معنى «كل» المضافة:

حيث قال في الكلام عليها إن حكمها الأفراد والتذكير، وأن معناها بحسب ما تضاف إليه، فلذلك ذكر الضمير وأفرد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ [القمر: ٥٢] ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره﴾ [الإسراء: ١٣] وأفرد وأنت في قوله عز اسمه: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ [الدثر: ٣٨] ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ [آل عمران: ١٨٥] وجمع وذكر في قوله تعالى: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ [الروم: ٣٢].

(١) معنى الليب ١ : ١٤٥ .

(٢) معنى الليب ١ : ١٤٧ .

وأنت في قول قيس بن ذريح:

وكل مصيبات تُصيب فإنها

سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

ثم قال: وهذا الذي ذكرناه من وجوب مراعاة المعنى مع النكرة نص عليه ابن مالك ورده أبو حيان بقول عنترة:

جـادَت عليهِ كل عين ثرة

فتركن كل حديقة كالدرهم

فقال: «تركن» ولم يقل: «تركت»، فدل على جواز كل رجل قائم وقائمون. والذي يظهر لي خلاف قولهما، وأن المضافة إلى المفرد إن أريد نسبة الحكم إلى كل واحد وجب الإفراد نحو كل رجل يشبعه رغيف، أو إلى المجموع وجب الجمع كبيت عنترة، فإن المراد أن كل فرد من الأعين جاد، وأن مجموع الأعين تركن، وعلى هذا تقول: جاد على كل محسن فأغنانى، فحسب المعنى الذي تريده، وربما جمع الضمير مع إرادة الحكم على كل واحد كقوله:

* من كل كوما كثيرات الوبر^(١) *

٤ - ومنه أن اللام غير العاملة لا تأتي للتعجب:

حيث قال: السابع من أقسام اللام «لام» التعجب غير الجارة نحو: لظرف زيد ولكرم عمرو؛ بمعنى: ما أظرفه، وما أكرمته، ذكره ابن خالويه في كتابه المسمى «بالجمل».

وعندى أنها إما «لام» الابتداء دخلت على الماضى لشبهه لجموده بالاسم، وإما لام جواب قسم مقدر^(٢).

٥ - ومنه الكلام على الحال المؤكدة لصاحبها فقد عدّها من أقسام الحال وتكلم عنها واستشهد لها بقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَأَمِنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ

(١) معنى الليب ١ : ١٦٢ - ١٦٥ .

(٢) معنى الليب ١ : ١٩٠ .

جميعاً» [يونس: ٩٩] ومثل لها بقوله: جاء القوم طراً، حيث قال بصدد انقسامها باعتباراتها المختلفة:

والرابع: انقسامها بحسب التبيين والتوكيد إلى قسمين مبينة، وهو الغالب وتسمى مؤسسة أيضاً، ومؤكدة، وهي التي يستفاد معناها بدونها، وهي ثلاثة مؤكدة لعاملها نحو: «ولَّى مُدْبِرًا» [النمل: ١٠] ومؤكدة لصاحبها نحو: جاء القوم طراً، ونحو: «لَأَمِّنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا» [يونس: ٩٩] ومؤكدة لمضمون الجملة نحو: ريد أبوك عطوفاً، وأهمل النحويون المؤكدة لصاحبها، ومثل ابن مالك وولده بتلك الأمثلة للمؤكدة لعاملها، وهو سهو^(١).
قال ابن مالك:

وعامل الحال بها قد أكدا

في نحو لا تعث في الأرض مفسدا

وإن تؤكد جملة فمضمـر

عاملها ولفظها يؤخر

وقال ابن عقيل في شرح البيت الأول: تنقسم الحال إلى مؤكدة وغير مؤكدة، فالمؤكدة على قسمين، وغير المؤكدة ما سوى القسمين، فالقسم الأول من المؤكدة ما أكدت عاملها، وهي المرادة بهذا البيت.

وقال في شرح البيت الثاني: هذا هو القسم الثاني من الحال المؤكدة، وهي ما أكدت مضمون الجملة.

وقال العلامة الخضرى في حاشيته عند قول ابن عقيل «على قسمين»، راد الموضح، ثالثاً: وهي المؤكدة لصاحبها نحو: «لَأَمِّنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا»^(٢) [يونس: ٩٩].

(١) معنى اللبيب ٢ : ٨٨ .

(٢) شرح ابن عقيل وحاشية الخضرى ١ : ٢١٩ .

٦ - ومنه حصر مسوغات الابتداء بالنكرة فى عشرة أمور:

حيث قال: لم يعول المتقدمون فى ضابط ذلك إلا على حصول الفائدة، ورأى المتأخرون أنه ليس كل أحد يهتدى إلى مواطن الفائدة فتتبعوها فَمِنْ مُقْلٍ مُخِلٍ، ومن مكثر مورد ما لا يصح، أو معدد لأمر متداخلة. والذى يظهر لى إنها منحصرة فى عشرة أمور^(١).

والمقل المخل الذى أشار إليه، هو من رجعها إلى الخصوص والعموم^(٢) ولا ريب أن فيه تكلفاً، والمكثر الذى أورد ما لا ينحصر، هو من أنهاها إلى نيف وثلاثين موضعاً^(٣)، وهذه المسوغات مبسطة فى الكتب صغيرها وكبيرها فلا داعى لذكرها هنا.

٧ - ومنه توجيه إفادة السين وقوع الفعل المحبوب، أو المكروه إذا دخلت عليه لا محالة، حيث قال: والسين مفيدة للاستقبال إذ الاستمرار إنما يكون فى المستقبل، وزعم الزمخشري أنها إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة، ولم أر من فهم وجه ذلك.

ووجهه أنها تفيد الوعد بحصول الفعل فدخلوها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضى لتوكيده وتثبيته معناه، وقد أوما إلى ذلك فى سورة البقرة فقال فى: ﴿فَسِيَكْفُرْكَهُمْ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧] معنى السين: أن ذلك كائن لا محالة، وإن تأخر إلى حين، وصرح به فى سورة براءة فقال فى: ﴿أُولَئِكَ سِيرَحْمَهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١] السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة فهى تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد إذا قلت سأنتقم منك^(٤).

٨ - ومنه استدلاله بنصب العبيد وقريش فيما سمع من قولهم: «أما العبيد فذو عبيد» بالنصب وأما قريشاً فأنا أفضلها على عدم التقيد بتقدير مهما يكن من

(١) شرح ابن عقيل وحاشية الخضرى ٢ : ٨٩ .

(٢) هو أبو حيان، قال فى منظومته «نهاية الإعراب»: وكل ما ذكرت فى التقسيم يرجع للتخصيص والتعميم.

(٣) هو بهاء الدين ابن النحاس.

(٤) مغنى اللبيب ١ : ١٢٠ .

شيء في مثل هذا المقام، وهي العبارة التي درج عليها النحاة قديماً وحديثاً، وأن أما ليست العاملة، وأنه يجوز أما زيداً فإنني أكرم حيث قال:

سمع: أما العبيد فذو عبيد بالنصب، وأما قریشاً فأنا أفضلها، وفيه عندي دليل على أمور.

أحدها: أنه لا يلزم أن يقدر مهما يكن من شيء، بل يجوز أن يقدر غيره مما يليق بالمحل إذ التقدير هنا مهما ذكرت، وعلى ذلك يتخرج قولهم أما العلم فعالم، وأما علماً فعالم، فهذا أحسن مما قيل إنه مفعول مطلق، أو مفعول لأجله إن كان معرقاً، وحال إن كان منكراً.

والثاني: أن أما ليست العاملة إذ لا يعمل الحرف في المفعول.

والثالث: أنه يجوز أما زيداً فإنني أكرم على تقدير العمل للمحذوف^(١).

٩ - ومنه ما اشترطه في كسر «إن» إذا كانت في جملة حالية، أو وقعت بعد حيث قال: أن تكون إن في أول الجملة من هذين الموضعين كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥] ونحو: «جلست حيث إن زيداً جالس» بخلاف نحو «أقبل زيد وعندي أنه ظافر» في الأول، ونحو: جلست حيث اعتقاد زيد أنه مكان حسن^(٢).

هذا ما وقفت للعثور عليه، وهناك مسائل أخر عزا فيها لنفسه بعض الآراء ونقد من أجلها العلماء ولكنها لم تسلم له خالصة، بل لقد قرر بعض الكاتبيين إن غيره تكلم فيها فأثرت عدم ذكرها والاكتفاء بالإشارة إليها، ورأى فيها أنها من اتفاق الخواطر.

وهناك موضوعات طرقها غيره وتكلم عليها سواء ولكن كان له فيها فضل البسط والتوفية، والإيضاح والتجلية، والتحرير والتصفية.

١ - منها إعراب كلمة «لو» وإليك ما قرره عنها في «المغنى»، قال رحمه الله: «لو» على خمسة أوجه:

(١) مغنى اللبيب ١ : ٥٥ .

(٢) شلور الذهب ص ١٨٢ .

أحدها: الشرطية، أعنى عقد السببية والمسببية بين الجملتين بعدها.

والثانى: تقييد الشرطية بالزمن الماضى، وبهذا الوجه وما يذكر بعده فارقت إن، فإن هذه لعقد السببية والمسببية فى المستقبل، ولهذا قالوا الشرط بأن سابق على الشرط بلو؛ وذلك لأن الزمن المستقبل سابق على الزمن الماضى عكس ما يتوهم المبتدئون، ألا ترى أنك تقول: إن جئتنى غداً أكرمتك فإذا انقضى الغد ولم يجيىء قلت لو جئتنى أمس أكرمتك.

الثالث: الامتناع: وقد اختلف النحاة فى إفادتها له وكيفية إفادتها إياه على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها لا تفيده بوجه، وهذا قول الشلوين؛ زعم أنها لا تدل على امتناع الشرط، ولا على امتناع الجواب، بل على التعليق فى الماضى كما دلت إن على التعليق فى المستقبل، ولم تدل بالإجماع على امتناع، ولا على ثبوت، وتبعه على هذا القول ابن هشام الخضرأوى، وهذا الذى قالاه كإنكار الضروريات، إذ فهم الامتناع منها كالبيدهى، فإن كل من سمع لو فعل فهم عدم وقوع الفعل من غير تردد، ولهذا يصح فى كل موضع استعملت فيه أن تتعقبه بحرف الاستدراك داخلاً على فعل الشرط منفياً لفظاً أو معنى، تقول: لو جاءنى أكرمته لكنه لم يجيىء، ومنه قول امرئ القيس:

ولو أن ما أسمى لأدنى معيشة

كفانى - ولم أطلب قليل - من المال

ولكنما أسمى لمجد مؤثّل

وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالى

وقول زهير:

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت

ولكن حمد الناس ليس بمخلد

ومنه قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ ولكن حق القول منى

لأملأن جهنم ﴿ [السجدة: ١٣] أى: ولكن لم أشأ ذلك فحق القول منى، وقوله تعالى: ﴿ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم﴾ [الأنفال: ٤٣] أى: فلم يريكموهم كذلك.

وقول الحماسى:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى
بنو اللقيطة من ذهل بن شيباناً

ثم قال:

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد
ليسوا من الشر فى شيء وإن هاناً

إذ المعنى لكننى لست من مازن بل من قوم ليسوا فى شيء من الشر، وإن هان، وإن كانوا ذوى عدد.

فهذه المواضع ونحوها بمنزلة قوله تعالى: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إلى رميت ولكن الله رمى﴾ [الأنفال: ١٧].

والثانى: أنها تفيد امتناع الشرط وامتناع الجواب جميعاً، وهذا هو القول الجارى على السنة المعربين، ونص عليه جماعة من النحويين، وهو باطل بمواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموت وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا﴾ [الأنعام: ١١١] ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ [لقمان: ٢٧].

وقول عمر رضى الله عنه: نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه.

وبيانه: أن كل شيء امتنع ثبت نقيضه، فإذا امتنع ما قام ثبت وبالعكس، وعلى هذا فيلزم على هذا القول فى الآية الأولى ثبوت إيمانهم مع عدم نزول الملائكة وتكليم الموتى لهم وحشر كل شيء عليهم، وفى الثانية نفاذ الكلمات

مع عدم كون كل ما فى الأرض من شجرة أقلامًا تكتب الكلمات، وكون البحر الأعظم بمنزلة الدواة، وكون السبعة الأبحر مملوءة مدادًا، وهى تمد ذلك البحر، ويلزم فى الأثر ثبوت المعصية مع ثبوت الخوف، وكل ذلك عكس المراد.

والثالث: أنها تفيد امتناع الشرط خاصة، ولا دلالة لها على امتناع الجواب ولا على ثبوته ولكنه إن كان مساويًا للشرط فى العموم كما فى قولك: لو كانت الشمس طالعة كان النهار موجودًا، لزم انتفاؤه؛ لأنه يلزم من انتفاء السبب المساوى انتفاء مسببه، وإن كان أعم كما فى قولك: لو كانت الشمس طالعة كان الضوء موجودًا، فلا يلزم انتفاؤه، وإنما يلزم انتفاء القدر المساوى منه للشرط، وهذا قول المحققين.

ويتلخص على هذا أن يقال: إن «لو» تدل على ثلاثة أمور، عقد السببية والمسببية وكونهما فى الماضى وامتناع السبب، ثم تارة يعقل بين الجزئين ارتباط مناسب، وتارة لا يعقل.

النوع الأول: على ثلاثة أقسام:

ما يوجب فيه الشرع أو العقل انحصار مسببية، الثانى فى سببية الأول نحو: «ولو شئت لرفعناه بها» [الأعراف: ١٧٦] ونحو: لو كانت الشمس طالعة كان النهار موجودًا، وهذا يلزم فيه من امتناع الأول امتناع الثانى قطعًا.

وما يوجب أحدهما فيه عدم الانحصار المذكور نحو: لو نام لا تنقض وضوءه، ونحو: لو كانت الشمس طالعة كان الضوء موجودًا، وهذا لا يلزم فيه من امتناع الأول امتناع الثانى كما قدمنا.

وما يجوز فيه العقل ذلك نحو: لو جاءنى أكرمته؛ فإن العقل يجوز انحصار سبب الإكرام فى المجيء ويرجح أنه ذلك هو الظاهر من ترتيب الثانى على الأول وأنه المتبادر إلى الذهن واستصحاب الأصل، وهذا النوع يدل فيه العقل على انتفاء المسبب المساوى لانتفاء السبب لا على الانتفاء مطلقًا، ويدل الاستعمال والعرف على الانتفاء المطلق.

النوع الثانى : قسمان :

أحدهما : ما يراد فيه تقرير الجواب وجد الشرط أو فقد، ولكنه مع فقد، أولى، وذلك كالأثر عن عمر فإنه يدل على تقرير عدم العصيان على كل حال، وعلى انتفاء المعصية مع ثبوت الخوف أولى، وإنما لم تدل على انتفاء الجواب لأمرين :

أحدهما : أن دلالتها على ذلك إنما هى من باب مفهوم المخالفة، وفى هذا الأثر دل مفهوم الموافقة على عدم المعصية؛ لأنه إذا انتفت المعصية عند عدم الخوف فعند الخوف أولى، وإذا تعارض هذان المفهومان قدم مفهوم الموافقة.

الثانى : لما فقدت المناسبة انتفت العلية فلم يجعل عدم الخوف علة عدم المعصية فعلمنا أن عدم المعصية معلن بأمر آخر، وهو الحياء، والمهابة، والإجلال، والإعظام، وذلك مستمر مع الخوف؛ فيكون عدم المعصية عند عدم الخوف مستنداً إلى ذلك السبب وحده، وعند الخوف مستنداً إليه فقط، أو إليه وإلى الخوف معاً، وعلى ذلك تتخرج آية [سورة] لقمان؛ لأن العقل يجزم بأن الكلمات إذا لم تنفذ مع كثرة هذه الأمور فلا أن لا تنفذ مع قلتها وعدم بعضها أولى، وكذا ﴿ولو أسمعهم لتولوا﴾ [الأنفال: ٢٣] فإن التولى عند عدم الإسماع أولى، وكذا ﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق﴾ [الإسراء: ١٠٠] فإن الإمساك عند عدم ذلك أولى.

والثانى : أن يكون الجواب مقررًا على كل حال من غير تعرض لأولوية نحو ﴿ولو ردوا لعادوا﴾ [الأنعام: ٢٨] فهذا وأمثاله يعرف ثبوته بعلة أخرى مستمرة على التقديرين، والمقصود فى هذا القسم تحقيق ثبوت الثانى.

وأما الامتناع فى الأول فإنه وإن كان حاصلاً لكنه ليس المقصود، وقد اتضح أن أفسد تفسير «للو» قول من قال حرف امتناع لامتناع، وأن العبارة الجيدة قول سيويه - رحمه الله - : حرف لما كان سيقع لوقوع غيره، وقول ابن مالك : حرف يدل على انتفاء تال يلزم لثبوته ثبوت تاليه.

ولكن قد يقال إن فى عبارة سيويه إشكالاً ونقصاً؛ فأما الإشكال فإن اللام

من قوله لوقوع غيره فى الظاهر لام التعليل وذلك فاسد فإن عدم نفاد الكلمات ليس معللاً بأن ما فى الأرض من شجرة أقلام وما بعده بل بأن صفاته سبحانه لا نهاية لها، والإمساك خشية الإنفاق ليس معللاً بملكهم خزائن رحمة الله بل بما طبعوا عليه من الشح، وكذا التولى وعدم الاستجابة ليسا معللين بالسمع بل بما هم عليه من العتو والضلال، وعدم معصية صهيب ليست معللة بعدم الخوف بل بالمهابة.

والجواب: أن تقدر اللام للتوقيت مثلها فى «لا يجليها لوقتها إلا هو» [الأعراف: ١٨٧] أى: أن الثانى يثبت عند ثبوت الأول.

وأما النقص فلأنها لا تدل على أنها دالة على امتناع شرطها.

والجواب أنه مفهوم من قوله: ما كان سيقع فإنه دليل على أنه لم يقع، نعم فى عبارة ابن مالك نقص فإنها لا تفيد أن اقتضاءها للامتناع فى الماضى، فإذا قيل: «لو» حرف يقتضى فى الماضى امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه كان ذلك أجود العبارات^(١).

٢ - وقال: فى الكلام على ما تلزم إضافته:

ومنها: «حسب» ولها استعمالان:

أحدهما: أن تكون بمعنى «كاف» فتستعمل استعمال الصفات فتكون نعتاً لنكرة كمررت برجل حسبك من رجل أى: كاف لك عن غيره، وحالاً لمعرفة كهذا عبد الله حسبك من رجل، واستعمال الأسماء نحو: «حسبهم جهنم» [المجادلة: ٨] «فإن حسبك الله» [الأنفال: ٦٢] بحسبك درهم، وبهذا يرد على من زعم أنها اسم فعل، فإن العوامل اللفظية لا تدخل على أسماء الأفعال باتفاق.

والثانى: أن تكون بمنزلة «لا غير» فى المعنى فتستعمل مفردة، وهذه هى «حسب» المتقدمة، ولكن عند قطعها عن الإضافة تجدد لها إشراؤها هذا المعنى وملازمتها للوصفية، أو الحالية، أو الابتدائية.

(١) معنى اللبيب: ١ : ٢٥٣ .

وبناؤها على الضم، تقول: رأيت رجلاً حسب، ورأيت زيدا حسب، قال الجوهري: كأنك قلت حسبي أو حسبك فأضمرت ذلك، ولم تنون.. انتهى.

وتقول: قبضت عشرة فحسب، أي: فحسبي ذلك، واقتضى كلام ابن مالك أنها تعرب نصباً إذا نكرت كقبل وبعد، قال أبو حيان: ولا وجه لنصبها؛ لأنها غير ظرف إلا إن نقل نصبها عنهم حالاً إذا كانت نكرة.. انتهى.

فإن أراد بكونها نكرة قطعها عن الإضافة معرفة اقتضى أن استعمالها حينئذ منصوبة شائع وأنها كانت مع الإضافة، وكلاهما ممنوع، وإن أراد تنكيرها مع الإضافة فلا وجه لاشتراطه التنكير حينئذ؛ لأنها لم ترد إلا كذلك، وأيضاً فلا وجه لتوقفه في تجويز انتصابها على الحال حينئذ فإنه مشهور حتى إنه مذكور في كتاب «الصحاح»:

قال تقول: هذا رجل حسبك من رجل، وتقول في المعرفة: هذا عبد الله حسبك من رجل، فتنصب حسبك على الحال.. انتهى.

وأيضاً فلا وجه للاعتذار عن ابن مالك بذلك؛ لأن مراده التنكير الذي ذكره في قبل وبعد، وهو أن تقطع عن الإضافة لفظاً وتقديراً.

وأما «على» فإنها توافق «فوق» في معناها وفي بنائها على الضم إذا كانت معرفة كقوله الفرزدق:

* وأتيت نحو بني كليب من عل *

أي: من فوقهم:

وفي إعرابها إذا كانت نكرة كقول امرئ القيس:

* كجلود صخر حطه السيل من عل *

أي: من شيء عال.

وتخالفها في أمرين:

أنها لا تستعمل إلا مجرورة بمن، وأنها لا تستعمل مضافة، كذا قال جماعة منهم: ابن أبي الربيع، وهو الحق، وظاهر ذكر ابن مالك لها في عداد هذه

الألفاظ أنها يجوز إضافتها، وقد صرح الجوهري بذلك فقال: يقال أتيت من على الدار بكسر اللام أى: من عال، ومتقضى قوله:

وأعربوا نصيباً إذا ما نكرا

قبلاً وما من بعده قد ذكرا

أنها يجوز انتصابها على الظرفية، أو غيرها، وما أظن شيئاً من الأمرين موجوداً.

ولما بسطت القول قليلاً فى شرح هاتين الكلمتين، لأنى لم أر أحداً وقّاهما حقهما من الشرح، وفيما ذكرته كفاية والحمد لله (١).

٣ - وقال بصدد الكلام على حركة لام المستغاث والمستغاث له «فى تذكرته»: إن قيل: لأى شىء فتحت لام المستغاث؟ فالجواب: فرقاً بينها وبين لام المستغاث له.

فإن قيل: لأى شىء كان المفتوح لام المستغاث وكان حقه التفسير فى الثانية؛ لأن عندها تتحقق الحاجة فهو أجرى على قياسهم كما أنهم لا يحذفون فى نحو سفرجل إلا ما ارتدعوا عنده؟ فالجواب: أن الأول حال محل المضمر، واللام تفتح إذا دخلت عليه.

فإن قيل: فلأى شىء كسرت فى المعطوف؟ فالجواب: إنه يعطفه على ما حصل فيه الفرق اكتفى بذلك، وساعد عليه أن المعطوف يجوز فيه ما لا يجوز فى المعطوف عليه، تقول: يا زيد والرجل، وإن لم يجز يا الرجل، فإن قيل: فلأى شىء يفتح فى الزيد، ويا لعمرى مع أنه معطوف فالجواب أنه نداء فإن مستقل والمعطوف الجملة، ثم قال: فهذا تحرير لا تجد لأحد مثله إن شاء الله تعالى (٢).

٤ - وقال فى تذكرته: هذا باب ما حملوا فيه الشىء على نقيضه وذلك فى مسائل الأولى، لا النافية حملوها على إن فى العمل نحو لا طالعا جبلا حسن.

(١) أوضح المسالك ٢ : ٧٩ .

(٢) الأشباه والنظائر نقلاً عن التذكرة لابن هشام ١ : ٣٢٧ .

الثانية: رضى عدوها بعلى حملاً على سخط قاله الكسائى.

الثالثة: فضل عدوه بعن حملاً على نقص ودليله قوله:

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب

عنى ولا أنت ديانى فتخزونى

قال ابن هشام، وهذا مما خطر لى^(١).

٥ - وقال: أيضاً فى التذكرة: إنهم يعبرون بالفعل عن أمور أحدها: وقوعه، وهو الأصل الثانى مشارفته نحو: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن﴾ [البقرة: ٢٣١] أى: فشارفن انقضاء العدة: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم﴾ [النساء: ٩] أى: شارفوا أن يتركوا.

الثالث: إرادته وأكثر ما يكون ذلك بعد أداة الشرط نحو: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ﴾ [النحل: ٩٨]، ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾ [المائدة: ٦]، ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [البقرة: ١١٧].

الرابع: مقاربتة كقوله:

إلى ملك كاد الجبال لفقده

تزول وزال الراسيات من الصخر

أى: تزول الراسيات.

الخامس: القدرة عليه نحو: ﴿وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ [الأنبياء: ١٠٤] أى: قادرين على الإعادة وأصل ذلك أن الفعل يتسبب على الإرادة والقدرة وهم يقيمون السبب مقام المسبب وبالعكس^(٢).

٦ - ومما جاء له فى الأشباه والنظائر على ما نقل عن تذكرته رسالته التى أشرت إليها عند الكلام على مؤلفاته.

وقد استهلها بقوله: «سألنى بعض الأخوان وأنا على جناح السفر».

(١) الأشباه والنظائر للسيوطى ١ : ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) الأشباه والنظائر ٢ : ٢٧٠ - ٢٧١ .

أ - عن توجيه النصب فى نحو قول القائل فلان لا يملك درهما فضلاً عن دينار.

ب - وقوله: الإعراب لغة: البيان، واصطلاحاً: تغيير الآخر لعامل.

والدليل: لغة المرشد.

والإجماع: لغة العزم.

والسنة: لغة الطريقة.

ج - وقوله: يجوز كذا خلافاً لفلان.

هـ - وقوله: وقال أيضاً.

و - وقوله: هلم جراً.

وكل هذه التراكيب مشكلة ولست على ثقة من أنها عريية، وإن كانت مشهورة فى عرف الناس وبعضها لم أقف لأحد على تفسير له، ووقفت لبعضها على تفسير لا يشفى عيلاً، ولا يبرد غليلاً.

وها أنا ذا مورد فى هذه الأوراق ما تيسر لى معتذراً بضيق الوقت وسقم الخاطر، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وقد استغرق الكلام عليها من صفحة ٢٠٣ إلى صفحة ٢٢٢ من كتاب «الأشباه والنظائر».

هل كان ابن هشام من المجتهدين؟

إن ما سبق من دراسة ابن هشام، وما هُدى إليه وامتاز به من تضلع في العلوم ودراية بالفنون، وما كان له من أفق واسع، وما حباه الله به من ذوق سليم وفقه للأساليب اللغوية، وفهم صحيح للشواهد العربية، وما أخذ به نفسه من إخلاص للعلم، وما توفر له من أمانة وهو الثبت الثقة يملأ علينا أنه من النحاة المجتهدين الذين حذقوا النحو بعد دراسة تفصيلية دقيقة وبحوث عميقة، وإذا كان أساس الاجتهاد بذل الجهد فأخلق بابن هشام أن يكون مجتهد زمانه في النحو غير مدافع، وإذا تفاوتت قدر المجتهدين وتباينت أقدارهم فابن هشام لا يفضل في النحو مجتهد سابق، ولعل لا أكون مبالغاً إذا رأيت أنه لا يعدله أحد من الرعيل الأول، ولي على ذلك دليلان:

أما الأول: فهو تأخره في الزمن مع ما امتاز به، وقديماً قيل: «كم ترك الأول للآخر» لأن المتأخر يتاح له أن يفيد بدراسته بسير الداهيين الأولين ويمتدح من عصارة البابهم فما استقام لهم قبله أقره، وما ابتعدوا فيه عن الجادة وجانفوا معه الصواب نأى عنه وسكّم منه.

هذا إلى ما يفتح الله به عليه مما لم يصلوا إليه.

وهكذا كان ابن هشام دائب البحث والتنقيب في آراء القدماء والمعاصرين لم يغادر رأياً لنحوى إلا وقف عليه، ولم يترك بحثاً إلا أنعم نظره فيه وانتفع به، ثم هو بعد ذلك ذو مرة وذو رأى جديد.

وأما الأمر الآخر: فقول العلامة ابن خلدون، وسيأتي في شهادات العلماء لابن هشام.

منزله في المجتهدين

نفهم مما تقدم منزلة ابن هشام بين أئمة مجتهدى النحويين ، وأنه فيهم صاحب الهالة ، وكما كان محمد ﷺ خاتم النبيين كذلك كان ابن هشام مسك ختام المجتهدين ، فلم يأت بعده في النحو مجتهد ، وقد انتهت به طبقة المجتهدين ، وجماعة المرجحين ، ومن جاء بعده فهو إما شارح لكلامه كابن الصائغ ، والدماسيني ، والشمسي ، وإما جامع لكلامه وكلام غيره كالسيوطي ، والأشموني ، والصبان ، ولو وقف الأمر عند هذا الحد ، واقتصر الحال على صنيع هؤلاء العلماء لاحتمل وقبل ، ولكن مَنى هذا العلم بعد أولئك الأعلام بقوم كلفوا بالتعقيد ، وشغلوا بكتابة التقارير على الحواشي وحشوها بالقال والقليل ، والإغراب في التحليل ، مما جعل النفع بها والفائدة منها قاصرة على من قطع أشواطاً في تحصيل العلوم.

أما الناشء الصغير الذي وضع لمستواه هذا المختصر الموجز فإنه يضل في مرامى الحواشى والتقارير ، ولولا اشتغال هذه الطريقة على تربية ملكة البحث لكان ضررها أكبر من نفعها إذ قلما يحيط الناشء معها بأطراف الموضوع الذي تصدى لبحثه ، وعكف على درسه ، وما دام القول قد مس الشروح والحواشى فيجدر لى تبيان موقف ابن هشام منها ، وهل كان له نصيب فيها؟

أما الحواشى فمبلغ علمى أنه لم يُسهم فيها ، ولم يَحُلْ له قرع هذا الباب ، وأن هذا العمل لم يعرف إلا من بعده.

وأما الشروح فإنه لم يعزف عنها ، ولم يكثر منها ، ويمثلها لنا كتاب «أوضح المسالك» ، وهذا عدا شروحه على كتبه المشهورة ، وله شرح على شواهد ابن الناظم لم أعثر عليه.

ابن هشام وشرح ألفية ابن مالك

شرح الألفية كثير وشروحهم معروفة تكفل ببيانها صاحب «كشف الظنون» فى هذا الكتاب، وتبارى العلماء فى شرح «الألفية» أمر ليس بالغريب لاشتغال مؤلفات ابن مالك على شىء من التعقيد^(١)، وإذا كان هذا الحكم عامًّا فيما ألفه هذا الإمام فهو فى النظم أظهر وفى «الألفية» أكثر حيث الضرورات الشعرية. واشتهر من بين هذه الشروح ثلاثة:

الأول: شرح «ابن عقيل» وهذا الشرح سهل خفيف الظل يغرى على دراسة «الألفية»، ويشف عن المراد منها دون زيادة عليها، وتبدو فيه ظاهرة عجيبة هى مسaire ابن عقيل لابن مالك وعنايته بدفع هجوم ابنه «بدر الدين» عليه وانتقاده له فى كثير من الأبواب.

وابن عقيل مصرى معاصر لابن هشام^(٢).

الثانى: «أوضح المسالك» إلى ألفية ابن مالك، وهو يشارك شرح ابن عقيل فى سهولة العبارة والكشف عن المقصود من كل بيت، ويمتاز عنه بالبسط قليلاً وحكاية بعض مذاهب النحاة، مع الضبط، والدقة، والتوجيه، والترجيح فهو من هذه الناحية أى: أملاً شرح ابن عقيل وأدق، وأحفل بالتدليل والتعليل.

والثالث: شرح أبى الحسن الأشمونى المسمى «منهج السالك إلى ألفية ابن مالك»، وهو أوفى من سابقيه علماً وأغزر مادة، وأكثر لمذاهب النحاة جمعاً، وأوفر استدلالاً وتعليلاً؛ لأن أبا الحسن الأشمونى جاء بعد هذين الإمامين وطالع شرحيهما وشروح غيرهما ممن سبقهما، أو عاصرهما كابن الناظم، والمرادى، والدنوشرى، ولم يرد أن يكون كتابه قاصراً على شرح الألفية بل رأى أن يجعله موسوعة من موسوعات هذا العلم، فاستعرض أمامه الكتب الجوامع مثل:

«شرح الكافية» للناظم، «ومغنى اليبى عن كتب الأعراب» لابن هشام،

(١) دائرة المعارف الإسلامية فى الكلام على ترجمة ابن مالك.

(٢) توفى ابن عقيل سنة تسع وستين وسبعمائة هجرية.

وما إلى هذه الأسفار وصاغ منها شرحه، فلهذا جاء شرحه أحفل، وأبطأ الدلاء أملؤها، ومن يطالع شروح الألفية، ثم يقف على أثرها بمطالعة شرح الأشموني فإنه يسهل عليه رجوع القول إلى قائله.

وقد ينسب الأشموني الفضل لذويه في شرحه، وذلك مثل تصريحه «بالمغنى» في باب المعرب والمبنى عند قول الناظم:

وفعل أمر ومضى بنياً

وأعربوا مضارعاً إن عرباً

«وبأوضح المسالك» في باب النكرة والمعرفة عند قوله:

ومن ضمير الرفع ما يستتر

كأفعل أوافق نفتبط إذ تشكر

«وبالمرادى» في باب التنازع عند قوله:

* وأخرنه إن يكن هو الخبر *

وكثيراً ما يذكر الشارح يعنى ابن الناظم، ولكن ذلك قليل جداً إذا ووزن بما أغفل نسبته إلى صاحبه.

على أن من هناته المسخ والتغيير لكلام ابن هشام في «المغنى»، فهو كثيراً ما ينتزع رأيه ويتناوله بالتقديم، أو التأخير، أو يسمه بحذف منه، أو زيادة طفيفة عليه.

يحكى لنا ذلك كلامه على الأدوات في عطف النسق، وفي النواصب والجوازم، وفي كم، وكأين، وكذا.

ولا تسلم بعض الشواهد التي ساقها من تحريف، ولولا ذلك لارتفع الأشموني بشرحه إلى مستوى عزيز المنال، ولكنه قنع بالجمع على ما سبق بيانه.

هل لابن هشام اوهام وهل عليه مأخذ؟

لابد للمصارم أن ينبو وللجواد أن يكبو، وللإنسان فى طور نضجه أن يهفو،
فالكمال والعصمة والكبرياء، والعظمة لله وحده، وقد رأيت لابن هشام
هفوات، ولكنها هينات.

منها قوله فى الشذور فى الكلام على إن وأخواتها، «يجب كسر إن فى تسع
مسائل».

الخامسة: أن تقع فى أول الجملة المضاف إليها ما يختص بالجملة، وهو إذ وإذا
وحيث، نحو: جلست حيث إن ريذاً جالس، وقد أولع الفقهاء وغيرهم بفتح
إن بعد حيث، وهو لحن فاحش، فإنها لا تضاف إلا إلى الجملة، وأن المفتوحة
ومعمولها فى تأويل المفرد.

قال الشيخ عبادة: اعلم أن شراح ابن الحاجب أوجبوا الفتح نظراً إلى أن
الأصل فى المضاف إليه الإفراد، وقد وجه المصنف ما اختاره بقوله: فإنها لا
تضاف إلا إلى الجملة، وإن المفتوحة ومعمولها فى تأويل المفرد، ثم قال:
والحق جواز الأمرين؛ لأنه ورد إضافة «حيث» إلى مفرد نحو: حيث سهيل
طالعاً من قول الشاعر:

كما ترى حيث سهيل طالعاً

نجماً يضىء كالشهاب لامعاً

وهذا البيت لم تعرف له نسبة إلى قائل، وقد ورد فيه رفع سهيل وطالع
فتكون إضافة «حيث» إلى جملة، ولكن يضعف هذه الرواية نصب رويّه حيث
لم يرو لامع بالرفع، وأياً ما كان فإن إضافة «حيث» إلى مفرد ذهب إليه
الكسائى وجعله مقيساً، وإن شذ ذلك فى رأى جمهرة النحاة.

وبعضهم يجعل «إن» إذا فتحت بعد حيث مبتدأ مع ما بعدها ويقدر لذلك
خبراً، فحيث فى الواقع مضافة إلى جملة، وفتحها جائز، وليس بلحن فاحش

كما قرر ابن هشام، ولعل هذا التخريج هو ما عناه شيخنا الأستاذ محيي الدين عبد الحميد في تعليقه على الشذور بقوله: «ليس كما قال المؤلف بل هو جائز وله تخريج حسن» (١).

قال الفيثي: قوله: وهو لحن فاحش فيه نظر؛ لأنه مذهب الكسائي، والحق جوار الأمرين، وهو الصواب.

قال جار الله: وشبه حيث بالغيات من حيث ملازمتها الإضافة، ويقال: حيث وحوث بالفتح، والضم فيهما، وحكى الكسائي حيث بالكسر، ولا يضاف إلى غير الجملة إلا ما ورد من قوله:

* أما ترى حيث سهيل طالعا *

أي: مكان سهيل وقد روى ابن الأعرابي بيتاً عجزه

* حيث لي العمائم (٢) *

وقال ابن يعيش في شرحه على المفصل بعد إن ذكر ما فيها من لغات، وهي مبنية في جميع لغاتها، والذي أوجب بناءها أنها تقع على الجهات الست، وهي خلف وقدام ويمين وشمال وفوق وتحت، وعلى كل مكان، فأبهمت حيث ووقعت عليها جميعاً فضاهت بإبهامها في الأمكنة «إذ» المبهمة في الأزمنة الماضية كلها فكما كانت «إذ» مضافة إلى جملة توضيحها أوضحت «حيث» بالجملة التي توضح بها «إذ»، من ابتداء وخبر، وفعل، وفاعل، وحين افتقرت إلى الجملة بعدها أشبهت «الذي» ونحوها من الموصولات في إبهامها في نفسها وافتقارها إلى جملة بعدها توضيحها فبنيت كبناء الموصولات.

ووجه ثان أنه ليس شيء من ظروف الأمكنة يضاف إلى جملة «إلا حيث»، فلما خالفت أخواتها بنيت لخروجها من بابها، ثم علل لبنائها على السكون ولتحريكها إلى إن قال: ومنهم عن شبهها بالغيات فضمها كقبل وبعد، ووجه الشبه بينهما أن حق «حيث» من جهة أنها ظرف أن تضاف إلى المفرد كغيرها من

(١) شذور الذهب تعليق العلامة الشيخ محيي الدين عبد الحميد ص ١٨٢ .

(٢) كتاب المفصل للزمخشري ٤ ٩ .

ظروف الأمكنة نحو أمامك وقدامك ونحوهما، فلما أضيفت إلى الجملة صارت إضافتها كلا إضافة فأشبهت قبل وبعد في قطعهما عن الإضافة إلا أن الحركة في «حيث» لالتقاء الساكنين، وفي قبل وبعد للبناء.

ثم قال: ومن العرب من يضيف «حيث» إلى المفرد ويجره، وأنشد ابن الأعرابي:

ونظعنهم حيث الحبي بعد ضربهم

يبيض المواضي حيث لى العمائم

وقد رأيت في منار السالك إلى أوضح المسالك^(١)، هذا البيت منسوباً إلى الفرزدق، وقال بعض الكاتبيين إنه لم يعرف له قائل، غير أنه ورد في شعر كثير عزة مثله: - وهو دليل على ما قصد إليه الشارح - قال كثير:

وهاجرة يا عز يلفظ حرها

لركبانها من حيث لى العمائم

نصبت لها وجهى وعزة تتقى

بجلبابها والستر لفح السمائم

قال ابن يعش: فهذا بناء وأضافه إلى المفرد كما قال: «من لدن حكيم عليم» [النمل: ٦] فأضاف لدن مع كونه مبنياً ولم يمنعه ذلك من الإضافة^(٢).

وقال العلامة الصبان في حاشيته على قول الأشموني: «والواقعة بعد حيث» بعد كلام حرره ابن هشام، وكان له فيه فضل سبق.

هذا والصحيح جواز الفتح عقب حيث، أما على القول بجواز إضافتها للمفرد فظاهر، وأما على المشهور من وجوب إضافتها إلى الجملة فلا أنه يقدر تمام الجملة من خبر، أو فعل، وقيل: يكتفى بإضافتها إلى صورة الجملة.

(١) منار المسالك إلى أوضح المسالك ٢ : ٨٣ .

(٢) شرح الزمخشري ٤ : ٩٢ .

وقال الأشموني في باب الإضافة عند قول ابن مالك .

والزموا إضافة إلى الجمل

حيث وإذا وإن ينون يحتمل

وأما نحو قوله :

* أما ترى حيث سهيل طالعا *

وقوله : «حيث لى العمائم» فشاذا لا يقاس عليه خلافاً للكسائي^(١).

قال الصبان : وقيل : سهيل مرفوع فحيث مضافة إلى جملة فلا شاهد فيه.

وقد سلف أن قافية البيت لم ترد إلا منصوبة، وهذا يناقض رفع سهيل.

وقال الشيخ الخضرى فى حاشيته على شرح ابن عقيل عند قوله : «بعد حيث» أى : وإذا لوجوب إضافتهما للجمل لكن الصحيح جواز الفتح بعدهما خلافاً لأبى حيان كما جاز بعد إذا الفجائية مع اختصاصها بالجمل ، فأن وصلتها إما فاعل لثبت محذوفاً ، أو مبتدأ خبره محذوف ، وقيل : يكفى إضافتهما لصورة الجملة ، وعلى قول الكسائي : يجوز إضافة حيث للمفرد فلا إشكال فى الفتح^(٢).

وقال ابن الحاجب فى كتابه «الكافية» :

الظروف منها ما قطع عن الإضافة كقبل وبعد ، وأجرى مجراه لا غير وليس غير وحسب ، ومنها : حيث ولا يضاف إلا إلى جملة فى الأكثر^(٣).

قال العلامة الرضى : اعلم أن الظروف المضافة إلى الجمل على ضربين إما واجبة الإضافة إليها بالوضع ، وهى ثلاثة لا غير «حيث» فى المكان ، «وإذا» و«إذا» فى الزمان على خلاف فى «إذا» هل هى مضافة إلى الجملة التى تليها ، أو لا ؟ كما يجىء ، وحيث وإذا يضاقان إلى الفعلية والأسمية.

(١) الأشموني ٢ : ١٤٥ .

(٢) حاشية الخضرى على شرح ابن عقيل ١ : ١٣١ .

(٣) كافية ابن الحاجب ٢ : ٩٥ .

وقال رضى الله عنه: والظروف المضافة إلى الجمل على ضربين كما ذكرنا، إما واجبة الإضافة إليها، وهى حيث فى الأغلب، ثم قال: فالواجبة الإضافة إليها واجبة البناء؛ لأنها مضافة فى المعنى إلى المصدر الذى تضمنته الجملة، وإن كانت فى الظاهر مضافة إلى الجملة، فإضافتها إليها كلا إضافة فأشبهت الغايات المحذوف ما أضيفت إليه، فلهذا بنيت «حيث» على الضم كالغايات على الأعراف^(١).

مما تقدم يتبين أن ابن هشام لم يحالفه التوفيق فى قوله: «وقد أولع الفقهاء وغيرهم بفتح إن بعد حيث، وهو لحن فاحش فإنها لا تضاف إلا إلى الجملة، وأن المفتوحة ومعمولاها فى تأويل المفرد» والعبارة الجيدة أن يقول: وفتحها بعد حيث شاذ لدى الجمهور، والكسائى يقيس عليه.

أما قوله: إن أن المفتوحة ومعمولاها فى تأويل المفرد وحيث لا تضاف إلا إلى الجملة فمع التسليم به يمكن الخروج منه بتقدير خبر لذلك المفرد المؤول. هذا وقد عن لابن هشام بعد ذلك أن يخالف ما ذهب إليه فى الشذور فقال فى «المغنى» عند الكلام على «حيث»: وندرت إضافتها إلى المفرد كقوله:

* حيث لى العمائم *

والكسائى يقيسه: ثم التمس للفقهاء وجهاً يخرجون عليه فتح أن بعد حيث، وهو مذهب الكسائى.

والأولى أن يخرج على جعل «حيث» مضافة إلى الجملة بأن تجعل أن ومعمولاها مؤولة بمصدر مبتدأ والخبر محذوف، وحذف خبر المبتدأ بعد حيث ليس عزيزاً كما قال الدمامينى^(٢).

وقال ابن هشام فى «أوضح المسالك»: وربما أضيفت إلى المفرد كقوله: «حيث لى العمائم» ولا يقاس عليه خلافاً للكسائى.

والذى أراه بعد أن ابن هشام قرر ما قرر فى كتاب «الشذور» ولما يبلغ رأى

(١) شرح الرضى على الكافية ٢ : ١٠٠ .

(٢) حاشية الدسوقى على المغنى ١ : ١٩٦ .

منه إناء، وأنه عندما ألف هذا الكتاب كانت نشوة السرور تنازع تواضعه الماثور،
بدليل قوله بعد ذلك: وقد أتيت في شرح هذا الموضع بما لم أسبق إليه فتأملوه.

والواقع أن العلماء تكلموا فيما قرره وحرروه، وإن الذى عده لحنًا فاحشًا فى
هذا المؤلف رآه فى غيره نادرا، وأن ما ذهب إليه هنا من أنه نادر وهنالك من أنه
لحن فاحش له وجه سائق مقبول هو رأى العلامة الدمامينى الذى أشرت إليه
أنفا، ولكن يغفر له ذلك ما تراءى له بعدئذ من سعة الأفق فى التخريج، وم
أتيح له من حسن مرهف وذوق سليم.

وقال فى الجهة العاشرة من الجهات التى يدخل الاعتراض على العرب من
جهتها، وهى أن يخرج على خلاف الأصل، أو على خلاف الظاهر لغير
مقتضى:

ولما قال فى قوله:

اعتاد قلبك من سلمى عوائده

وهاج أحزانك المكنونة الطللُ

ربع قواء أذاع المعصرات به

وكل حيران سار ماؤه خضل

إن التقدير: هو ربع ولم يجعله على البديل من الطل؛ لأن الربع أكثر منه
فكيف يبدل الأكثر من الأقل، ولئلا يصير الشعر معيًّا لتعلق أحد البيتين بالآخر،
إذ البديل تابع للمبدل منه ويسمى ذلك علماء القوافى تضمينا، والمحكى عنه
سيبويه بدليل التصريح باسمه من قبل، وبدليل ورود البيتين السابقين فى كتابه
وهما من الأبيات المجهولة القائل.

واعتاد معناها هنا: انتاب، وعوائد جمع عائد كعود وعواد، وهاج: أثار
وحرك، والمكنونة: المستورة، والطلل: ما شخص من آثار الديار، والربع: الدار
بعينها حيث كانت، والقواء: المنزل الموحش، وأذاع سره، أو به أفساه، وفى
القاموس أذاع الإبل أو القوم بما فى الحوض: شربوا ما فيه، وبمالى ذهبوا به،

والمعصرات: السحاب تعتصر بالمطر كما فى المختار، أو تعصرها الرياح فتمطر، وحيران يطلق على الماء إذا تردد، والخضل يطلق على البارد الرطب، وعلى النبت الناعم، والمناسب للمعنى هنا ما ذهب إليه الأعلام الشنتمرى من أنه الغزير؛ إذ هو الذى يحو المعالم ويغير الرسوم.

يريد الشاعر أن يقول: إن قلبى متيم إثر ليلى مكبول يا يتأجج فيه الشوق إليها حيناً بعد حين، وكلما سلوت عنها علودنى الحنين، وأثار لواهج الأسى عليها دار غيرها البلى ومحا محالها هطل اجش، أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا. وقد علل ابن هشام لجعل ربيع خبراً دون أن يكون بدلاً من الطلل بعلتين، لم يحالفه التوفيق تماماً من علل ثلاث.

الأولى: قوله: لأن الربيع أكثر من الطلل فكيف يبدل الأكثر من الأقل؟
والثانية: قوله: ولثلا يصير الشعر معيياً لتعلق أحد البيتين بالآخر إذ البدل تابع للمبدل منه، ويسمى ذلك علماء القوافى «تضميناً».
وضعف العلة الأولى من جهتين:

الأولى: بمنع أن يكون الربيع أكثر من الطلل؛ لأن الربيع الذى معنا وصف بما يجعله والطلل سواسية من عدم تعهد ساكن به لخلوه، ومن عصف الرياح به والصيب الهطل.

والثانية: مع التسليم بأن الربيع أكثر من الطلل، فالإبدال كالإخبار، وكما يمتنع بدل الأكثر من الأقل لعدم صدق أحدهما على الآخر يمتنع الإخبار بالأكثر عن الأقل لعدم الصدق أيضاً إلا على وجه المبالغة فى الإخبار، وهو ما لم يشر إليه ابن هشام من قريب أو بعيد.

العلة الثانية: قوله: ولثلا يصير الشعر معيياً لتعلق أحد البيتين بالآخر إذ البدل تابع للمبدل منه ويسمى ذلك علماء القوافى «تضميناً».

وعلماء القوافى قرروا أن التضمين القبيح الذى يصير الشعر بسببه معيياً أن يكون ما فى البيت الثانى الذى تعلق به قافية البيت الأول لا يتم الكلام إلا به

كجواب الشرط والقسم والخبر والفاعل والصلة، إنما ما تم الكلام من دونه والحاجة إليه تكميل المعنى المتقدم فقط كالتفسير والنعت وغيره من سائر التوابع والبدل منها والفضلات فليس قبيحاً ولا يصير الشعر معه معيباً^(١).

وهذا يناقض ما ذهب إليه ابن هشام وجعله غلة ثانية لمنع إبدال «الربع» من الطلل، وقد عثرت على كثير مثل هذا جانف فيه ابن هشام وجه الصواب ولكنه قليل إذا قيس بما وقع فيه سواء، ولا يعد شيئاً مذكوراً تجاه ما قرر وأجاد وحرر وأفاد، من ذلك استشهاده بقول الشاعر:

فوالله ما فارقنكم قالياً لكم

ولكن ما يقضى فسوف يكون

فى باب إن وأخواتها من كتاب «القطر» على أن ما بعد «لكن» كافة لها عن العمل ومصححة لدخولها على الجملة الفعلية حيث قال:

إنما تنصب هذه الأدوات الأسماء وترفع الأخبار بشرط ألا تقترن بهن «ما» الحرفية؛ فإن اقترنت بهن بطل عملهن، وصح دخولهن على الجملة الفعلية، ثم ساق الشاهد السابق الذى نسب به بعضهم للأفوه الأودى على حين أن القالى فى أماليه^(٢)، والأشمونى فى شرحه على الألفية^(٣)، لم ينسبها إلى قائل معين كما فعل غيرهما من النحاة.

وابن هشام وأهمُّ هنا فى استشهاده بهذا البيت، فإن «ما» اسمية موصولة بدليل الفاء الواقعة فى الخبر، وهى اسم «لكن» والجملة من الفعل الذى بعدها ونائب الفاعل صلتها، وليست حرفية كافة كما توهم.

ومثال الحرفية الكافة ما فى «لكنما» من قول امرئ القيس:

ولكنمما أسمى لمجد مؤثّل

وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالى

(١) حاشية الدمنهورى الكبرى على متن الكافى ص ١٠٢ .

(٢) كتاب الأمالى لأبى على القالى ١ ٩٩ .

(٣) شرح الأشمونى على الألفية ٢ ٦٢ .

فما فى هذا الشاهد حرف رائد كفى «لكن» عن العمل وهى لها الدخول على الفعل، ولكن يغفر له احترازه عنها فى «أوضح المسالك» حيث قال: بخلاف قوله:

***ولكنما يقضى فسوف يكون ***

ومن ذلك حكمه على المتنبي بأنه غلط فى إعمال «لا» عمل ليس مع تعريف اسمها من قوله:

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى

فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً

حيث قال: فى كتابه «شرح القطر» ولإعمالها أربعة شروط، أن يتقدم اسمها، وألا يقترن خبرها بالآ، وأن يكون اسمها وخبرها نكرتين، وأن يكون ذلك فى الشعر لا فى النثر فلا يجوز إعمالها فى نحو: «لا أفضل منك أحد»، ولا فى نحو: «لا أحد إلا أفضل منك»، برفع أفضل وأحد فى المثالين.

ولا فى نحو: «لا زيد قائم ولا عمرو» بالرفع أيضاً.

ثم قال: ولهذا غلط المتنبي فى قوله:

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى

فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً

أما أن المتنبي لا يحتج بشعره فمسلم؛ لأنه من شعراء الدولة العباسية وقد توفى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة هجرية فيبته مسوق للتمثيل.

وأما أنه غلط فى إعمالها عمل «ليس» مع تعريف اسمها فى الأولى، وهو الحمد، والآخرة، وهو المال، فليس كما قال ابن هشام؛ لأن المتنبي نحا نحو النابغة الجعدي فى قوله:

وحلت سواد القلب لا أنا باغياً

سواها ولا عن حبها متراخياً

وقد أجاز إعمال «لا» عمل «ليس» فى غير النكرات الإمام أبو الفتح بن جنى المتوفى ببغداد سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة هجرية، ووافقه على ذلك أبو السعادات بن الشجرى المتوفى ببغداد أيضاً سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة هجرية. وقال ابن عقيل - وهو معاصر لابن هشام - فى شرحه على ألفية ابن مالك: وزعم بعضهم أنها قد تعمل فى المعرفة وأنشد للنابغة البيت السابق وقبله بيتاً آخر، ثم قال: واختلف كلام المصنف فى هذا البيت فمرة قال: إنه مؤول ومرة قال: إن القياس عليه سائغ.

والتأويل عزاه الشيخ الخضرى فى حاشيته إلى التصريح، والذى فى التصريح، هو قول الشيخ خالد، وأما قول النابغة:

لا أنا باغياً سواها

ولا فى حبها متراخيا

وقول المتنبي:

* فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً *

فمن النوادر.

فإن قلت كيف جعلته نادراً وفى مثل سيبويه ما ريد ذاهباً، ولا أخوه قاعداً؟ قلت: لا عمل للابل هى زائدة والاسمان تابعان لمعمولى «ما».

ومن عجب أن عبارة الشيخ الخضرى بنصها على قول ابن عقيل «مؤول» هى:

أى بأن أما نائب فاعل لمحذوف أى: لا أرى باغياً من رأى البصرية لفباغياً حال فلما حذف الفعل برز الضمير، أو أن ذلك الفعل خبره أى: لا أنا أرى... إلى آخره، ثم ذكر مثل سيبويه السابق، وخرجه وكتب.. انتهى. التصريح، فهل ما ذكره الشيخ الخضرى يوائم ما كتبه الشيخ خالد؟ اللهم لا.

وأعجب من تأويل الخضرى ما استدرك به الزرقانى على الشيخ خالد حيث قال: «الأحسن أن يقول: وأما قول النابغة على ما هو ظاهر منه إذ هو محتمل

لأن يكون على حذف مضاف أى: لا مثلى باغيا فمدخول لا نكرة؛ لأن مثلا لا تتعرف بالإضافة، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فأتى به منفصلا مرفوعا.

وقد عقب العلامة «يس» فى حاشيته على التصريح بأن هذا الاحتمال غير ظاهر.

وعندى أن التخريج الذى ارتضاه الشيخ خالد، والتأويل الذى تكلفه الشيخ الخضرى لا داعى إليهما ما دام الأمر لا يحوج إلى ذلك، ولأن ابن هشام نفسه قال فى كتابه «الشذور».

وربما عملت فى اسم معرفة كقوله:

أنكرتها بعد أعوام مـضين لها

لا الدار داراً ولا الجيران جيرانا

وعلى ذلك قول المتنبى:

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى

فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً

ولأنه قال فى «المغنى»: إنها لا تعمل إلا فى النكرات خلافاً لابن جنى وابن الشجرى، ومن ذلك تخريجه قول الفرزدق:

وكل رفيقى كل رحل وإن هما

تعاط القنا قومهما أخوان

حيث قال: وهذا البيت من المشكلات لفظاً وإعراباً ومعنى، فلنشرح:

قوله: «كل رجل»: «كل» هذه زائدة، وتعاطى أصله تعاطيا فحذف لامه للضرورة، أو الألف من تعاطى لام الفعل ووجد الضمير؛ لأن الرفيقين ليسا باثنين معينين بل هما كثير كقوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ [الحجرات: ٩] ثم حمل على اللفظ إذ قال: هما أخوان كما قيل: ﴿فأصلحوا بينهما﴾ وجملة هما أخوان خبر «كل».

وقوله: «قوما» إما يدل من القنا لأن قومهما من سبيهما إذ معناه: تعاومهما فحذفت الزوائد فهو يدل اشتمال، أو مفعول لأجله أى: تعطايا القنا لمقاومة كل منهما الآخر، أو مفعول مطلق من باب «صنع الله» [النمل: ٨٨]، لأن تعاطى القنا يدل على تقاومهما.

ومعنى البيت: أن كل الرفقاء فى السفر إذا استقروا رفيقين رفيقين فهما كالأخوين لاجتماعهما فى السفر والصحبة، وإن تعاطى كل واحد منهما مغالبة الآخر^(١).

وقد ند التوفيق الذى حالف ابن هشام فى أبيات تبدو مشكلة أكثر من هذا البيت عنه هنا.

والذى جعل ابن هشام يتوهم الإشكال فى هذا البيت أمرٌ جدّ يسير، هو متابعتة من ظن أن قومًا مفرد منصوب منون، على حين أن ألفه للتثنية، والمثنى مرفوع بها مضاف إلى كلمة «هما»، والقنا مفعول به، وأخوان خبر «كل»، وتعاطى مفرد وجملة وإنه هما تعاطى القنا قوماهما معترضة.

ومعناه على هذا: وكل صاحبين فى كل رحل كالأخوين، وإن نزع الشيطان بين عشيرتهم وأوضع خلالهم، وحملهم على التزال والطعان فالسفر يؤلف بين القلوب من كل رفيقين، ولا يعكر عليهما اشتعال نار العداوة والبغضاء بين قوميهما.

فاندفع بهذا التخريج الإشكال فى إعراب البيت كما اندفع الإشكال فى معناه، وليس بعد هذين إشكال فى اللفظ.

هذا ما أرتضيه، وهو يكاد يتفق مع ما قرره بعض الكاتيين.

وقد رأيت فى شرح البغدادى لشواهد المغنى أنه عثر على نسخة من ديوان الفردق ضبط فيها هذا البيت بفتح الميم دون تنوين، وأنه اشتراها وحرص عليها لهذا، ثم قرر أن ابن هشام ليس أبا عذرة هذا التحريف الباعث على الإشكال وهذه التوجيهات، وإنما هذا جميعه لأبى على الفارسى، فأخذه المصنف من

(١) معنى الليب ١ : ١٦٤ .

كلامه وقصر فى عزوه إليه فإنه لو عزاه إليه لسلم من هذه التبعة، ولكنه استسمن ذا ورم، ونفخ فى غير ضرم، بنقله من طرسه ما استخلصه لنفسه، ثم نقل كلام أبى على^١ فى «المسائل البغدادية» الذى اقتطف منها ابن هشام ما سلف، وقال عن أبى على^٢ إنه قد اعترف فى آخر كلامه بأن الرواية «قوماهما» على أنه مثنى قوم مضاف إلى ضمير الرفيقين، وكأنه إنما ذكر الوجه الأول، وهو تنوين قوماً، إما لأنه رواية ضعيفة، وإما ليجعله من مسائل التمرين فى الإعراب، ليظهر قوة استحضاره للقواعد ووجوه التخريجات، ثم قال: والمصنف لشدة شغفه بالغرائب اختصر كلامه منه، ولم يلحظ آخر كلامه^(١).

(١) شرح شواهد المعنى للبغدادى المخطوط بدار الكتب المصرية ٢ : ٧ .

مأخذ دفع

ذكرت آنفا بعض ما وقع فيه ابن هشام من أوهام، وسأحاول هنا دفع بعض ما أخذ العلماء عليه.

من ذلك ترديده كلمة «لا غير» على حين أنه لَحَنَ من قالها.

فقد جاءت في باب المفعول فيه من كتابه «أوضح المسالك» حيث قال: «أو مسموعاً بالحذف لا غير».

وهنا اعترضه الشيخ خالد الأزهرى في التصريح^(١)، فقال: وكان ينبغي للموضح أن يقول ليس غير؛ لأنه يرى أن قولهم «لا غير» لحن كما صرح به في «المغنى»، وبالع في إنكاره في شرح شذوره.

ثم قال الشيخ خالد: والحق جواره لو رود السماع به كما أوضحت في باب الإضافة، وكلامه في باب الإضافة هو قوله: يرد على ابن هشام:

ورد بأن أبا العباس كان يقول لا غير بالبناء على الضم كقبل وبعد، وكذا قال الزمخشري، وابن الحاجب، وابن مالك، وأنشد عليه في باب القسم من شرح التسهيل:

جواباً به تنجوا اعتمد فورينا

لعن عمل أسلفت لا غير تسأل

وتبعهم صاحب القاموس^(٢).

أما عبارة ابن هشام في «المغنى» التي أشار إليها صاحب «التصريح» فهي قوله:

غير اسم ملازم للإضافة في المعنى ويجوز أن يقطع عنها لفظاً إن فهم المعنى وتقدمت عليها كلمة ليس وقولهم لا غير لحن^(٣).

(١) شرح التصريح ١ : ٣٤١ .

(٢) التصريح ٢ : ٥٠ .

(٣) مغنى اللبيب ١ : ١٣٣ .

وأما عبارته فى شرح الشذور فهى قوله بصدد الكلام على ما يبنى على الضم.

النوع الثانى ما ألحق بقبل وبعد من قولهم قبضت عشرة ليس غير، ثم قال: ولا يجوز حذف ما أضيفت إليه غير إلا بعد ليس فقط كما مثلنا، وأما ما يقع فى عبارات العلماء من قولهم «لا غير» فلم تتكلم به العرب، فإما أنهم قاسوا لا على ليس، أو قالوا: ذلك سهواً عن شرط المسألة^(١).

قال الشيخ عبادة فى حاشيته على الشذور: ذكر الفاكهى فى شرح «القطر»: أن تقييد المصنف غير بالواقعة بعد ليس لا يعول عليه بل لا فرق بين ليس، وبين لا كما نص عليه الزمخشري فى «المفصل»، وابن الحاجب فى الكافية وتابعه على ذلك شراح كلامه، ومنهم المحققون كالرضى، وقد سمع وقوع غير بعد لا، أنشد ابن مالك قوله: جواباً به تنجو... البيت.

ثم قال: فيعمل به من غير توقف، وما وقع فى «المعنى» و «الشذور» لا يعند به.. انتهى بتصرف، وفى شرح التوضيح مثله^(٢).

ونص عبارة الفاكهى:

ألحق بهذه الظروف فى البناء والإعراب لفظة «غير» الواقعة بعد «لا»، أو ليس إلى آخر ما ذكره عبادة ملخصاً^(٣).

قال صاحب القاموس عند الكلام على غير: وهو اسم ملازم للإضافة فى المعنى ويقطع عنها لفظاً إن فهم معناه، وتقدمت عليها ليس، قيل: وقولهم لا غير لحن، وهو غير جيد؛ لأنه مسموع فى قول الشاعر:

جواباً به تنجو اعتمد فورينا

لعن عمل أسلفت لا غير تسأل

وقد احتج به ابن مالك فى باب القسم من شرح التسهيل، وكان قولهم لحن

(١) شرح الشذور ص ٩٧ .

(٢) شرح الفاكهى على القطر ١ : ٣٩ و ٤٠ .

(٣) حاشية الشيخ عبادة على الشذور ١ : ١٢٠ .

مأخوذ من قول السيراقى، الحذف إنما يستعمل إذا كانت إلا وغير بعد ليس، ولو كان مكان ليس غيرها من ألفاظ الجحد لم يجوز الحذف، ولا يتجاوز بذلك مورد السماع.. انتهى كلامه وقد سمع^(١).

عبارة الزمخشري

أما عبارة الزمخشري فقد جاءت فى كتابه «المفصل»، ولابن يعيش كلام فى شرحه على هذا الكتاب تحت عنوان «الظروف».

قال جاز الله: منها الغايات: وهى قبل، وبعد، وفوق، وتحت، وأمام، وقدام، ووراء، وخلف، وأسفل، ودون، وعلى وأبدأ بهذا أول، وقد جاء ما ليس بظرف غاية نحو: حسب، ولا غير، وليس غير، والذي هو حد الكلام وأصله أن ينطق بهن مضافات، فلما اقتطع عنهن ما يضافن إليه وسكت عليهن صرن حدوداً ينتهى عندها فلذلك سمين غايات^(٢).

وأما ابن يعيش فقد مر كريماً عليها، ولم يشر بكلمة إليها.

قال رحمه الله: وكذلك قبل، وبعد إذا نكر وأضيف أعرب، وإذا أفرد معرفة بنى، فلذلك قالوا: جئت قبل، وبعد، ومن قبل، ومن بعد، قال الله تعالى: ﴿الله الأمر من قبل ومن بعد﴾ [الروم: ٤] إلى إن قال: وحكم أول وحسب وليس غير حكم قبل وبعد.

(١) القاموس المحيط ٢ : ١٠٦ .

(٢) المفصل للزمخشري ٤ : ٨٥ ، بشرح ابن يعيش.

عبارة ابن الحاجب والرضى

لقد جاءت عبارة الرضى فى الجزء الثانى من شرحه على الكافية «صفحة ٥٦ إلى ٥٩» ونصها قوله: «الظروف منها ما قطع عن الإضافة كقبل وبعد وأجرى مجراه لا غير وليس غير وحسب» قوله: «وأجرى مجراه لا غير وليس غير وحسب» شبه غير بالظروف والغايات لشدة الإبهام الذى فيها كما فى الغايات لكونها جهات غير محصورة.

ولإبهام غير لا تتعرف بالإضافة، وهى أشد إبهامًا من مثل فلذا لم يبن مثل على الضم، ولا يحذف منها المضاف إليه إلا مع لا التبرئة وليس نحو: أفعل هذا لا غير، وجاءنى زيد ليس غير، لكثرة استعمال غير بعد لا وليس.

ومن هذه الأقوال نرى أن أسبق من قال لا غير هو أبو العباس المبرد المتوفى سنة خمس وثمانين ومائتين من الهجرة، وورودها فى سياق كلام المبرد لا يثبت ورودها فى كلام العرب، وإن كان المبرد مسك ختام المجتهدين من نحاة البصرة؛ لأنه لم يستشهد لها ولم يدل عليها، فلا يعدو أن يكون ورودها فى كلامه كورودها فى كلام ابن هشام القائل بمنع استعمالها.

وإن قيل إن ورودها فى كلامه دليل على أنه رأى شواهد من كلام العرب تبرر نطقه بها، فإنى أبيع لنفسى عدم الأخذ عنه والتسليم له حتى مع سوق الشواهد لها؛

لأنه على سمو مكانته كان يغير فى الشواهد وفق إرادته، يؤيد ذلك ما ذكره الإمام أبو القاسم البصرى المتوفى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة هجرية فيما أخذه على كامل المبرد فى استشهاده على قصر الممدود بقول النمر بن تولب من أبيات:

يسر الفتى طول السلامة والبقا

فكيف يرى طول السلامة يفعل؟

وقول يزيد بن عمرو بن الصعق:

فرغتم لتمرير السياط وأنتم
يشن عليكم بالقنا كل مربع

وقول الطرماح:

وأخرج أمه لسواس سلمى

لمعفور الضرا ضرم الجبين

ما نصه: إن المبرد غير رواية الأبيات الثلاثة؛ لأن رواية بيت النمر «طول السلامة والغنى».

ورواية بيت الصعق «بالقنا».

ورواية بيت الطرماح «لمعفور الغنا» وهو النمل.

قال: وإن أبا العباس ربما ركب المذهب يخالف فيه أهل العربية فينصره بتغيير الشعر واستشهاده بتغيير الروايات يغنيانا عن التماس الحجج عليه.

وللمبرد حكاية مع الإمام الراوية الحجة الثقة النحوي اللغوي أحمد بن داود المشهور بأبي حنيفة الدينوري المتوفى سنة اثنتين وثمانين ومائتين من الهجرة تؤيد ذلك،

وخلاصتها: أن الإمام المبرد كان زائراً لعيسى بن ماهان فلما استقر به المجلس وطاب الحديث قال: له عيسى: ما الشاة المجثمة التي نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحمها؟ فقال: هي الشاة القليلة اللبن مثل اللجبة، فقال: هل من شاهد؟ قال: نعم قول الراجز:

لم يبق من أهل الحميد نسمة

إلا عنيز لجبة مجثمة

وإذا الحاجب يستأذن لأبي حنيفة الدينوري فلما دخل قال له عيسى: ما الشاة المجثمة التي نهينا عن أكل لحمها؟ قال: هي الشاة التي جثمت على ركبها

وذبحت من خلف قفاها، فقال: كيف تقول ذلك، وهذا شيخ أهل العراق يقول هى مثل اللجة، وأنشده الشعر؟ فقال أبو حنيفة: إيمان البيعة تلزم أبا حنيفة إن كان هذا التفسير سمعه هذا الشيخ، أو قرأه، وإن كان الشعر إلا لساعته هذه، فقال أبو العباس: صدق الشيخ؛ فإننى أنفت أن أرد عليك من العراق وذكرى ما قد شاع ولا أعرف أول ما تسألنى عنه، فاستحسن منه هذا الإقرار^(١).

وهذا الحادثة تفسر لنا مدى ما يستشهد له المبرد عما أنفرد به، فكيف بما لم يستشهد له من مثل «لا غير»!

ولعل أول من تلقفها من كلام المبرد وسلکها فى سماء القواعد الإمام الزمخشري المتوفى سنة سبع وتسعين وأربعمائة هجرية حيث قال:

وقد جاء ما ليس بظرف غاية نحو حسب، ولا غير، وليس غير، ولكن قوله لا ينهض حجة على دفع قول ابن هشام بدليل أن ابن يعيش شارح كلامه مر عليها مرور الكرام، فلم يحفل بها، ولم يعلق عليها حيث قال فى شرحه على المفصل: وحكم أول وحسب وليس غير حكم قبل ويعد.

أفلا يجوز أن يكون الزمخشري قد أخطأ هنا كما أخطأ فى خطبة المفصل إذ أدخل الباء الجارة على كلمة «كافة» حيث قال: محيطاً بكافة الأبواب، ومن المقرر المعلوم أن كافة لا تستعمل إلا منصوبة.

أما احتجاج ابن مالك بالبيت فلا يسلم ما دام أنه لم ينسبه إلى قائل معين، وما دام لم يستشهد بغيره، ولأن ابن مالك معروف بالتساهل فى الرواية، وبأنه كان لا يجارى فى غزارة الشواهد، فهل جف معينه بعد هذا الشاهد الذى قال عنه العلامة الدمامينى: والظاهر أنه غريب^(٢)!

أما ابن الحاجب والرضى فلم يفيضا فى القول على هذه الكلمة ولا سيما العلامة الرضى الذى اشتهر بطول النفس وكثرة الشواهد فإنه اكتفى هنا بأن قال: ولا يحذف المضاف إليها إلا مع لا التبرئة وليس نحو أفعل هذا لا غير

(١) المراهب الفتحة ١ : ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) معنى اللبيب ١ : ٣٠٩ .

وجاءنى زيد ليس غير، لكثرة استعمال غير بعد لا وليس، ولا استعمال ليس نصاً فى الورد عن العرب ولست أدري على أى أساس بنى كثرة استعمال غير بعد لا.

وأما صاحب القاموس فإنه نحا نحو هؤلاء فى جواز استعمال «لا غير» ولم يفتح الله عليه بغير البيت الذى ساقه ابن مالك، على أنى راجعت غير القاموس من المعاجم اللغوية الميسورة فلم أظفر بها فى واحد منها.

وبعد... فهل ضاقت أساليب اللغة العربية المعول عليها ممثلة فى قصائد الشعراء النابهين، وخطب البلغاء المفوهين، ورسائل الكتاب المجيدين، عن استعمال هذه الكلمة، وقد كان العالم فيما سلف لا يعجزه أن يأتى بعشرات الأبيات تحمل الشواهد السليمة، وتحضرنى فى هذا المقام حكاية طريفة عن محمد بن هشام بن عوف التميمى أبى محلم الشيبانى السعدى اللغوى لما سألته الواثق بالله عن المرت؛ لأنه رأى فى منامه أنه يسأل الله الجنة وأن يتغمده برحمته، ولا يهلك بما هو فيه، وأنه سمع قائلاً قال له لا يهلك على الله إلا من قلبه مرت، فقال: أبو محلم: المرت من الأرض القفر الذى لا نبت فيه، فالمعنى على هذا: لا يهلك على الله إلا من قلبه خال من الإيمان، فقال الواثق: أريد شاهداً من الشعر فى المرت ففكر أبو محلم طويلاً، فأنشده بعض من حضر بيتاً لبعض بنى أسد هو:

ومرت مرواة يحار بها القطا

ويصبح ذا علم بها وهو جاهل

فضحك أبو محلم وقال للذى أنشده: ربما بعد الشيء عن الإنسان وهو أقرب إليه مما فى كفه، والله لا تبرح حتى أنشدك، فأنشد للعرب مائة بيت معروف لشاعر معروف فى كل منها ذكر المرت، فأجازه الواثق إجازة سنية^(١).

على أن الزمخشري كما فى «العمدة» لابن رشيق يستشهد بكلام بعض المولدين وتبعه الرضى فى ذلك فاستشهدا بشعر أبى تمام، وقال الزمخشري: إنه

(١) بغية الوعاة ص ١١٠ - ١١١.

وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، وهذا مخالف للصحيح الذي ذهب إليه العلماء^(١).

وقال الشاطبي في شرحه على ألفية ابن مالك في بابي الاستثناء والحال إن السماع الذي اعتمده الناظم أمران.

أحدهما: الشعر، والآخر الحديث الشريف، أما اعتماده على الشعر مجرداً عن نثر شهير يضاف إليه أو يوافق لغة مستعملة يحمل ما في الشعر عليها فليس بمعتمد عند أهل التحقيق؛ لأن الشعر محل الضرورات، والحق أن ابن مالك في هذا غير مصيب^(٢).

وإذا كان هذا هو رأي الإمام الشاطبي «وهو ابن بجدةها» فيما يستدل به من أبيات، أفلا يكون الحق مع ابن هشام في تلحين من يقول «لا غير» حيث إن ابن مالك لم يستشهد عليها إلا بيت واحد مجهول القائل، وقد تأثر به من جاء بعده ممن حذا حذوه.

هذا هو الحق، والحق أحق أن يتبع.

ورود كلمة لا غير في سياق كلام ابن هشام

أما ورود تلك الكلمة في سياق كلام ابن هشام فلا يؤخذ بها بعد أن قرر تلحين من ينطق بها في موطنها،

لأنها من الخطأ المشهور الذي يسبق إليه اللسان عفو الخطأ ويقيده القلم على حين غفلة من الجنان.

فهذا لا يعني أن ابن هشام عدل عما نص عليه وقرره، وإنما جرى قلمه بما لهج به المؤلفون، كما وقع للعلامة «ابن عرفة» في تحية المسجد الحرام^(*)، وقصته معروفة.

(١) المواهب الفتحية ١ ٥٣

(٢) المواهب الفتحية ١ ٣٩ . ٤

الفصل الرابع

موازنة بين المغنى وبين غيره

لقد عنيت بالبحث عن كتب بينها وبين «مغنى اللبيب» شبه، وكان مما عثرت عليه كتاب «جواهر الأدب فى معرفة كلام العرب» وهذا الكتاب منسوب إلى «الإمام الهمام المشهور بالصلاح والدين، الإمام علاء الدين بن على بن الإمام بدر الدين بن محمد الأربلى» وهو مطبوع متداول، ومؤلفه قصره على تبیان معانى الحروف وطريقة بحثه تشبه طريقة بحث ابن هشام فى «المغنى»، حتى ليحار الإنسان فى الحكم على الرجلين أيهما أخذ من الآخر، أو على الأقل من السابق المبتكر منهما ومن اللاحق المقتدى فيهما؟

والذى أراه وقد قرأت فى «الجواهر» بعض فصوله أن صاحب «المغنى» له قصب السبق، وأن صاحب «الجواهر» جاء بعده، وحذا حذوه.

ويبدو أن علاء الدين - هذا - لم يكن نابه الذكر؛ بدليل أن كتب «التراجم» لم تنوه به، ولم تذكر عنه شيئاً.

وليس أدل على ذلك من إغراقه فى مدح سلطان زمانه، وهذا النوع من المبالغة انتشر فى العصور المتأخرة، وكان القدامى يقتصدون فيه.

قال علاء الدين: فى خطبة هذا الكتاب:

«بيمن سلطنة من خصه الله بالقول الرضى والفعل المرضى، وحسن معدنه، من منحه الله بالخلق الحسنى والخلق البهى، وهو المقام العالى والمقر المتعالى، المولوى الأكمل، الأعدلى الأحكمى، الأعلمى الملكى المالكى، السلطان الظاهرى... إلى أن قال: أجل الملوك فرعا وأصلاً، وأجملهم فصلاً ووصلاً.

الظاهر بن الظاهر بن الظاهر بن الظاهر، راكى الفعال طاهر الأعراق والسرائر، وفيها نجل أعظم السلاطين رتبة وشرقاً، وزبدة أسمى الملوك منزلة

وشرقاً

والآن قد ورث الخلافة نجله
 ذو العقل والآراء والتدبير
 مولى سلاطين الأنام ومن له الـ
 حسنى ورب الباطن الممهور
 الظاهر السلطان من أغنت طها
 رته عن التنظيف والتطهير

والتاريخ يحدثنا بأن أعظم سلاطين المماليك هو الظاهر بيبرس البندقدارى، وأن له نجلين، ورث كلاهما الملك من بعده، ولا تستقيم إرادة أحدهما، أو أيهما؛ لأن أباهما الظاهر توفى سنة ست وسبعين وستمائة، وولده ليس فيهما من يحمل هذا الاسم، ولم يعمر طويلاً في الملك حيث خلع أولهما «السعيد محمد بركة» بعد ستين وشهر من وفاة والده، وأعقبه خلع الآخر «العادل سلامش» بعد خمسة أشهر.

ولأن علاء الدين في هذا الكتاب كثيراً ما نقل عن أبى حيان المتوفى سنة خمس وأربعين وسبعمائة هجرية، فليس صحيحاً ما ذكر فى فهرس دار الكتب المصرية من أن صاحب «الجواهر» توفى سنة سبع وأربعين وستمائة هجرية.

فهل يريد الظاهر برقوق الذى حكم مصر والشام مرتين وتوفى سنة إحدى وثمانمائة هجرية، ثم حكم من بعده نجله الملك الناصر فرح الذى قتل فى ظلال ملكه الثانى سنة خمس عشرة وثمانمائة، ليس فى كلامه ما يقطع بذلك، ثم هو قد ذكر الجهة التى ألف فيها الكتاب وأنه قصد إليها من مكان آخر لم يعينه، يحكى لنا ذلك قوله: «وبعد فحيث تقرر سابق علم العليم الخبير بسابق الحكم ولاحق التقدير» ووصلت إلى بلدة ماردين المحروسة، وحصلت فى خطتها المحمية المانوسة، وماردين بلدة بالجزيرة بها حصن، فإذا أنضاف إلى هذا أنه منسوب إلى إربل، وهى مدينة بالموصل قوى اعتقاد أنه ليس من نحاة مصر، ولا

من نحاة الشام وأنه ليس من مشاهير علماء الموصل، وكم بحثت عن ترجمته فى «بغية الوعاة» و «حسن المحاضرة» للسيوطى، وفى «طبقات الشافعية» للسبكى، وفى «الدرر الكامنة» لابن حجر وكلفت نفراً غير قليل فى ديار الكتب المختلفة وشاركتهم البحث فى جميع المراجع فلم نهتد إلا إلى كلمة وجيزة فى فهرس دار الكتب المصرية لم ندر مصدرها، وقد أخطأت فى تاريخ وفاته؛ بدليل ما قدمت، وبدليل نقله عن الرضى، وشرحا على الكافية والشافعية لم يدخل مصر إلا بعد موت ابن هشام.

قال البقاعى فى «مناسبات القرآن» ولم ينقل الشرح من العجم إلى الديار المصرية إلا بعد أبى حيان، وابن هشام.

عما سبق نعلم ونجزم بأن علاء الدين متأخر عن ابن هشام، يؤيد ذلك أنه نقل عن أبى حيان، ولم يقل عن شيخنا أو عن نحوى هذا العصر حتى يشعرنا أنه معاصر لابن هشام.

وعلاء الدين فى كلامه على الحروف، وهى المقصودة من كتابه قد تدرج من البسيط الأحادى إلى المركب من حرفين، ثم من ثلاثة إلى خمسة، وعقد لكل فصلاً، فنظامه أدق من نظام ابن هشام الذى أثر أن يتوخى اتحاد الحرف الأول من الكلمة غير ناظر بعد ذلك إلى التدرج فى عدد الحروف فتراه مثلاً بعد أن تكلم على «أن» بفتح الهمزة وسكون النون جعل فى عقبها «إن» بكسر الهمزة وتشديد النون، وهى ثلاثية، ثم قفى على أثرها بالكلام على «أم» وهى ثنائية.

وصاحب «الجواهر» يطيب له أن يصدر بحثه بما هو إلى علم التجويد أقرب كذكر مخرج الحرف، ويحلوه أن يستطرد إلى علم فقه اللغة، على حين أن صاحب «المغنى» لا يحفل بمثل هذا، وعنايته بالنحو فائقة غالبية.

ويشتركان فى الكلام على الألفاظ المشتركة بين الأسماء والأفعال والحروف، أو بين الحروف وبين واحد سواها.

ويمتاز ابن هشام بطول النفس الذى يصحبه الإيضاح ويفيض فى الشواهد بيد أن ما ساقه علاء الدين منها قليل، ولما كان كتاب «الجواهر» قاصراً على بحث

الحروف فإنه لم يغادر شيئاً منها إلا تكلم عنه، أما ابن هشام فقد ترك العناوين للواضح منها واكتفى بالكلام عليها استطراداً.

وإني مورد هنا كلام كلّ منهما على كلمة «على»:

قال علاء الدين: «الفصل الثانى» من هذا النوع أى: المشترك بين الأسماء والحروف «على» تقع مرة اسماً بمعنى: فوق عند دخول «من» عليها كقوله:

غدت من عليه بعد ما تم ظمؤها

تصل وعن قيس بزياء مجهل

وبناؤها حينئذ لكونها كالحرفية، ولهذا قلبت ألفها ياء حيث أضيفت إلى الضمير، وليست كذلك الأسماء المتمكنة، وأخرى حرفاً للاستعلاء إما حساً وحقيقة كقوله تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾ [الرحمن: ٢٦] ونحو: زيد على السطح، أو حكماً كقوله تعالى: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾ [البقرة: ٢٥٣] ﴿والله على الناس حج البيت﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقولك: على دين لركوب الحقوق العنق والذمة كالراكب مركوبه، وقد يطلق والمقصود غير الاستعلاء إما ميعة كقوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ [الإنسان: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ [الرعد: ٦]، أو مجاوزة، وتختص بتعدية بعد وخفى، وتعذر، واستحال، وغضب، ورضى، وحرّم، ونحوها، قال فى الإعراب: لذلك اشتركت هى وعن فى تعدية كثير من هذا الباب، أو تعليلاً كقوله تعالى: ﴿ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ [الحج: ٣٧].

وقول الشاعر:

* ودع ما عليه ذم من كان قد ذما *

وقولهم: علام فعلت أو تركت كذا.

وظرفية كقول الشاعر:

* على حين ألهى الناس جلُّ أمورهم *

ومعنى «من» كقوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ [المؤمنون: ٥] ﴿إلا على أزواجهم﴾ [المؤمنون: ٦]، وقوله تعالى: ﴿الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون﴾ [المطففين: ٢]، ومعنى: «الباء» كقوله تعالى: ﴿حقيقٌ على ألا أقول على الله إلا الحق﴾ [الأعراف: ١٠٥] ويؤيده قراءة أبى (*) بها، وقد تكون زائدة دون تعريض كقوله:

أبى الله إلا أن سرحة مالك

على كل أفنان العضاء تروق

والأصل تروقه؛ لأنه متعد، وقوله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليکفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير» (*) وقيل: هى هنا بمعنى: الباء أيضاً، والأول أحسن لأنها زائدة.

وأيضاً قد تجىء لمجرد الإسناد فتؤدى معنى «إلى» كقوله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [الطلاق: ٣] أى: أسند أموره إلى الله، ومعنى الاستعلاء ملحوظ فى جميع ذلك، وقد تأتى لكثرة الاستعمال غير ملحوظ منها شىء من ذلك كقوله تعالى: ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ [مريم: ١٧]، ومنه: ما أعظم الله، وما أجله، وجعلها بعضهم بمعنى «من» وليس يبعد لاقتضاء الوعد والوعيد ذلك (١).

وقال جمال الدين بن هشام: «على» على وجهين:

أحدهما: أن تكون حرفاً، وخالف فى ذلك جماعة فزعموا أنها لا تكون إلا اسماً، ونسبوه لسيبويه، ولنا أمراهم أحدهما قوله:

نحن فتبدي ما بها من صبابة

وأخفى الذى لولا الأسى لقضائى

أى: لقضى علىّ فحذفت على وجعل مجرورها مفعولاً، وقد حمل الأخفش

(*) أخرجه: مسلم فى الإيمان ٣١١٣، الترمذى فى النور والإيمان ١٤٥٠.

(١) جواهر الأدب فى معرفة كلام العرب ص ١٨٦ - ١٨٧.

على ذلك ﴿ولكن لا تواعدوهن سرا﴾ [البقرة: ٢٣٥] أى على سر، أى نكاح وكذلك ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ [الأعراف: ١٦] أى. على صراطك.

والثانى أنهم يقولون نزلت على الذى نزلت أى عليه كما جاء ﴿ويشربُ مما تشربونه﴾ [المؤمنون: ٣٣] أى منه، ولها تسعة معان.

أحدها الاستعلاء إما على المجرور، وهو الغالب نحو ﴿وعليها وعلى الفلك يحملون﴾ [المؤمنون: ٢٢] أو على ما يقرب منه نحو ﴿أو أجد على النار هدى﴾ [طه: ١٠].

وقوله:

* وبات على النار الندى والمخلق *

وقد يكون الاستعلاء معنويًا نحو: ﴿ولهم على ذنب﴾ [الشعراء: ١٤] ونحو: ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ [البقرة: ٢٥٣].

الثانى المصاحبة كمع نحو: ﴿وأتى المال على حبه﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ [الرعد: ٦].

الثالث: المجاوزة كعن كقوله:

إذا رضيت على بنو قشير

لعمرو الله أعجبنى رضاها

أى: عنى، ويحتمل أن رضى ضمن معنى عطف، وقال الكسائى: حمل على نقيضه، وهو سخط، وقال:

فى ليلة لا نرى بها أحداً

يحكى علينا إلا كواكبها

أى. عناً.

وقد يقال ضمن يحكى معنى يتم.

الرابع: التعليل كاللام نحو: ﴿لتكبروا الله على ما هداكم﴾ [الحج: ٣٧] أى: لهدايته إياكم.
وقوله:

علام تقول الرمح يثقل عاتقى

إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كبرت

الخامس: الظرفية كفى نحو: ﴿ودخل المدينة على حين غفلة﴾ [القصص: ١٥] ونحو: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾ [البقرة: ١٠٢] أى: فى زمن ملكه، ويحتمل أن «تتلو» مضمن معنى تتقول فيكون بمنزلة: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ [الحاقة: ٤٤].

السادس: موافقة «من» نحو: ﴿إذا اكتبالوا على الناس يستوفون﴾ [المطففين: ٢].

السابع: موافقة الباء نحو: ﴿حقيقٌ على ألا أقول على الله إلا الحق﴾ [الأعراف: ١٠٥] وقد قرأه أبى بالباء (*)، وقالوا اركب على أسم الله.

الثامن: أن تكون زائدة للتعويض أو غيره.

فالأول: كقوله:

إن الكريم وأبيك يعستمل

إن لم يجد يوماً على من يتكل

أى: من يتكل عليه، فحذف عليه وزاد على قبل الموصول تعويضاً له.
قال ابن جنى: وقيل المراد: إن لم يجد يوماً شيئاً، ثم ابتداء مستفهماً فقال: على من يتكل.

وكذا قيل فى قوله:

ولا يؤاتيك فيما ناب من حدث

إلا أخو ثقة فانظر بمن تثق

إن الأصل فانظر لنفسك، ثم استأنف الاستفهام، وابن جنى يقول فى ذلك أيضاً: إن الأصل فانظر من تثق به فحذف الباء ومجرورها وزاد الباء عوضاً، وقيل: بل تم الكلام عند قوله: فانظر، ثم ابتداء مستفهماً فقال: بمن تثق.

والثانى: قول حميد بن ثور:

أبى الله إلا أن سرحه مالك

على كل أفنان العوضاء تروق

قاله ابن مالك وفيه نظر؛ لأن راقه الشيء بمعنى أعجبه، ولا معنى له هنا وإنما المراد تعلو وترتفع.

التاسع: أن تكون للاستدراك والإضراب كقولك: فلان لا يدخل الجنة لسوء صنيعه، على أنه لا يياس من رحمة الله، وقوله:

فوالله لا أنسى قتيلاً رزئته

بجانب قوسى ما بقيت على الأرض

على أنها تعفوا الكلوم وإنما

يوكل بالأدنى وإن جل ما يمضى

أى: على أن العادة نسيان المصائب البعيدة العهد.

وقوله:

بكل نداويننا فلم يشف ما بنا

على أن قرب الدار خير من البعد

ثم قال:

على أن قرب الدار ليس بنافع

إذا كان من تهواه ليس بذى ود

أبطل بعلى الأولى عموم قوله: لم يشف ما بنا، فقال: بلى إن فيه شفاء ما، ثم أبطل بالثانية قوله: على أن قرب الدار خير من البعد، وتعلق على هذه بما

قبلها عند من قال به، كتعلق حاشا بما قبلها عند من قال به؛ لأنها أوصلت معناه إلى ما بعدها على وجه الإضراب والإخراج، أو هي خبر لمبتدأ محذوف، أي: والتحقيق على كذا، وهذا الوجه اختاره ابن الحاجب، قال: ودل على ذلك أن الجملة الأولى وقعت على غير التحقيق، ثم جرى بما هو التحقيق فيها.

والثاني من وجهي «على» أن تكون اسماً بمعنى: فوق، وذلك إذا دخلت عليها «من» كقوله:

* غدت من عليه بعد ما تم ظمؤها *

وزاد الأخفش موضعاً آخر، وهو أن يكون مجرورها وفاعل متعلقها ضميرين بمسمى واحد، نحو قوله تعالى: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ [الاحزاب: ٣٧]. وقال الشاعر:

هونٌ عليك فـإن الأـمـور

ربكفُ الإله مـقـاديرها

لأنه لا يتعدى فعل المضمر المتصل إلى ضميره المتصل في غير باب ظن وفقد وعدم، لا يقال ضربتني، ولا فرحت بي، وفيه نظر؛ لأنها لو كانت اسماً في هذه المواضع لصح حلول فوق محلها؛ ولأنها لو لزمت اسميتها لما ذكر لزم الحم باسمية إلى في نحو: ﴿فصرهن إليك﴾ [البقرة: ٢٦٠] ﴿واضمم إليك﴾ [القصص: ٣٢] ﴿وهزى إليك﴾ [مريم: ٢٥] وهذا كله يتخرج إما على التعليق بمحذوف كما قيل في اللام في سقيا لك، وإما على حذف مضاف أي: هون على نفسك، واضمم إلى نفسك، وقد خرج ابن مالك على هذا قوله:

وما أصحاب من قوم فأذكرهم

إلا يزيدهم حـبـاً إلى هم

فادعى أن الأصل يزيدون أنفسهم، ثم صار يزيدونهم، ثم فصل ضمير الفاعل للضرورة، وأخرج عن ضمير المفعول، وحامله على ذلك ظنه أن الضميرين لمسمى واحد، وليس كذلك، فإن مراده أنه ما يصاحب قوماً فيذكر قومه لهم إلا

ويزيد هؤلاء القوم قومه حباً إليه لما يسمعه من ثنائهم عليهم، والقصيدة فى حماسة أبى تمام، ولا يحسن تخريج ذلك على ظاهره كما قيل فى قوله:

قد بت أحرسنى وحلى ويمعنى

صوت السباع به يضبحن والهام

لأن ذلك شعر فقد يستسهل فيه مثل هذا، ولا على قول ابن الأنبارى إن «إلى» قد ترد اسماً فيقال: انصرفت من إليك، كما يقال: غدوت من عليك؛ لأنه إن كان ثابتاً ففى غاية الشذوذ، ولا على قول ابن عصفور إن إليك فى «واضم إليك» [القصص: ٣٢] إغراء، والمعنى: خذ جناحك أى: عصاك؛ لأن «إلى» لا تكون بمعنى: خذ عند البصريين، ولأن الجناح ليس بمعنى العصا إلا عند الفراء وشذوذ من المفسرين^(١).

ولما كان كتاب «الجنى الدانى» للمرادى قاصراً على بحث معانى الحروف، وهو للإمام المرادى المعاصر لابن هشام كان لا بد من إدخاله فى الموازنة بين الكتابين السابقين، وإنى موردٌ هنا نبذة عنه، وذاكرٌ ما كتبه عن كلمة «على» لتستقيم الموازنة.

وقد جاء فى مقدمة «الجنى الدانى»: وهذا كتاب أرجو أن يكون نافعاً، ولمعانى الحروف جامعاً، جعلته لسؤال بعض الإخوان جواباً، ولصدق رغبته ثواباً، ولما وفى لفظه بمعناه، ودنا من متناوله جناه، سميته بالجنى الدانى فى حروف المعانى، ويشتمل على مقدمة وخمسة أبواب؛ المقدمة، وفيها خمسة فصول:

الفصل الأول: فى حد الحرف، قال بعض النحويين: لا يحتاج فى الحقيقة إلى حد الحرف؛ لأنه كلمة محصورة، وليس كما قال بل هو مما لا بد منه، ولا يستغنى عنه، ليرجع عند الإشكال إليه، ويحكم عند حد الاختلاف بحرفية ما صدق الحد عليه، وقد حد بحدود كثيرة، ومن أحسنها قول بعضهم: الحرف كلمة تدل على معنى فى غيرها فقط فقوله: كلمة جنس شمل الاسم، والفعل، والحرف.

(١) معنى اللبيب ١ . ١٢٢ - ١٢٦ .

وعلم من تصدير الحد به أن ما ليس بكلمة فليس بحرف كهمزتى النقل والوصل وياء التصغير فهذه من حروف الهجاء لا من حروف المعانى، فإنها ليست بكلمات بل هى أبعاض كلمات، وهذا أولى من تصدير الحد بما لإبهامها، وأعرض بأن تصدير حد الحرف بالكلمة لا يصح من جهة أنه يخرج عنه من الحروف ما هو أكثر من كلمة واحدة نحو: «إنما» و«كأنما»، والجواب أنه ليس فى الحروف ما هو أكثر من كلمة واحدة، وأما نحو: «إنما» و«كأنما» مما هو كلمتان فهو حرفان لا حرف واحد بخلاف «كان» مما صيره التركيب كلمة واحدة فهو حرف واحد.

وقوله: تدل على معنى فى غيرها فصل يخرج به الفعل وأكثر الأسماء؛ لأن الفعل لا يدل على معنى فى غيره، وكذلك أكثر الأسماء.

وقوله: فقط فصل ثان يخرج به من الأسماء ما يدل على معنى فى غيره، ومعنى فى نفسه؛ فإن الأسماء قسمان:

قسم يدل على معنى فى نفسه، ولا يدل على معنى فى غيره، وهو الأكبر.

وقسم يدل على معنيين: معنى فى نفسه، ومعنى فى غيره كأسماء الاستفهام والشرط؛ فإن كل واحد منها يدل بسبب تضمنه معنى الحرف على معنى فى غيره مع دلالة على المعنى الذى وضع له، فإذا قلت مثلاً: من يقيم أقم معه فقد دلت «من» على شخص عاقل بالوضع، ودلت مع ذلك على ارتباط جملة الجزاء بجملة الشرط لتضمنها معنى «إن» الشرطية فلذلك زيد فى الحد فقط ليخرج به هذا القسم.

واعترض الفارسى قول من حد الحرف بأنه ما دل على معنى فى غيره بالحروف الزائدة نحو «ما» فى قولهم: إنك ما وخير؛ لأنها لا تدل على معنى فى غيرها، وأجيب بأن الحروف الزائدة تفيد فضل تأكيد وبيان بسبب تكثير اللفظ بها، وقوة اللفظ مؤذنة بقوة المعنى، وهذا معنى لا يتحصل إلا مع كلام.

الفصل الثانى: فى تسميته حرفاً.

الفصل الثالث: فى جملة معانيه.

الفصل الرابع: فى بيان عمله.

الفصل الخامس: فى عدة الحروف.

وقد حضرها فى خمسة أقسام: أحادى، وثنائى، وثلاثى، ورباعى، وخماسى، فلذلك جعلت لها خمسة أبواب:

الباب الأول فى الأحادى: وهو أربعة عشر حرفاً، الهمزة، والباء، والتاء، والسين، والشين، والفاء، والكاف، واللام، والميم، والنون، والهاء، والواو، وهم إذا وقعت فصلاً، ووا، ووى، ويا، وهو، وهى.

الباب الثانى فى الثنائى: هو متفق عليه ومختلف فيه، وجميع ذلك ثلاثة وثلاثون حرفاً: إذا، وأل، وأم، وإن، وأن، وأو، وآ، وأى، وإى، وبلى، وذأ، وعن، وفى، وقد، وكم، وكى، ولم، ولن، ولو، ولا، ومذ، ومع، ومن، ومن، وما، وهل، وما.

الباب الثالث فى الثلاثى: وهو ضربان متفق عليه ومختلف فيه، وجملة ذلك ستة وثلاثون، أجل، إذن، وإذا، وآلا، وإلى، وأما، وإن، وأن، وأنا، وأنت، وأنت، وآى، وأيا، ويجل، وبلى، وبلى، وثم، وجلل، وجير، وخلا، ورب، وسوف، وعدا، وعسى، وعلى، وكما، وليت، وليس، ومنذ، ومتى، ونعم، ونحن، وهما، وهن، وهيا، وأنا أذكرها على هذا الترتيب إن شاء الله تعالى، ويعيننا هنا كلامه على كلمة «على».

قال رحمه الله: «على» التى ينجر ما بعدها فيها خلاف، فمشهور مذهب البصريين أنها حرف جر إلا إذا دخل عليها حرف الجر كقول الشاعر:

غدت من عليه بعد ما تم ظمؤها

تصل وعن فيض بزيء مجهل

فعلى فى هذا اسم بمعنى فوق، وزاد بعضهم أنها تكون اسماً فى موضع

آخر، وهو قول الشاعر:

هون عليك فإن الأمـور

بكف الإله مقاديرها

وما أشبهه؛ لأنها لو جعلت حرفاً في ذلك لأدى إلى تعدى فعل المخاطب إلى ضميره المتصل، وذلك لا يجوز في غير أفعال القلوب، وما حمل عليها، ونقل بعضهم أن هذا مذهب الأخفش، فإنه قال بأسميتها في نحو: سويت على ثيابي.

قال الشيخ أبو حيان: ولا يلزم في نحو: هون عليك، ولا في: سويت على أن يكون اسماً فإنه قد ورد مثل هذا الترتيب في «إلى» نحو قوله تعالى: «وهزي إليك» [مريم: ٢٥]، «واضم إليك جناحك» [القصص: ٣٢] ولا نعلم خلافاً في حرفية «إلى» فيخرج هون عليك ونحوه على ما خرج عليه، «وهزي إليك».

قلت تقدم مثل هذا في «عن» وذكرت ثم ما تخرج عليه، «وهزي إليك». ولقائل أن يقول إن «عن» و «على» قد بينت أسميتهما بدخول «من» فلم يحتج فيهما إلى تأويل مخالف الظاهر بخلاف «إلى». وتقدم ذكر مذهب القراء في أن «عن» و «على» حرفان إذا دخلت «من» عليهما، وذهب ابن طاهر، وابن خروف، وابن الطراوة، والرندي، وابن معزوز، والشلوبين في أحد قوليه: إلى أنها اسم، ولا يكون حرفاً، وزعموا أن ذلك مذهب سيبويه، وقد تحصل في «على» الجارة عما ذكرته أقوال:

أحدها: أنها حرف في كل موضع، وهو قول القراء.

والثاني: أنها اسم في كل موضع، وهو قول ابن طاهر، ومن وافقه.

والثالث: أنها حرف إلا في موضع واحد.

والرابع: أنها حرف إلا في موضعين، وبه جزم ابن عصفور، وهو قول الأخفش.

وقد استدل على حرفيتها بحذفها في الشعر ونصب ما بعدها كقول الشاعر:

نَحْنُ فُتَبِدِي مَا بِهَا مِنْ صِبَابَةٍ

وأخفى الذي لولا الأسي لقضاني

أى: لقضى على.

وقد أجاز الأخفش ذلك في قوله تعالى: ﴿لَأَقْعَدَنَّ لَهُمُ صِرَاطَكَ﴾ [الأعراف: ١٦] أى: على صراطك.

واستدل أيضاً على حرفيتها بجواز حذفها مع الضمير في الصلة كقول الشاعر:

وإن لسانى شهدة يشتفى بها

وهو على من صببه الله علقم

أى: صببه الله عليه، ولو كانت اسماً لم يجز فيها ذلك.

فإن قلت: إذا قلنا بأسميتها فهل هي معربة، أو مبنية؟ قلت: ذكر بعضهم أنها معربة عند من قال إنها لا تكون إلا اسماً.

وأما من جوز فيها إذا كانت حرفاً أن تنتقل إلى الاسمية بدخول «من»، أو على مذهب الأخفش في نحو: سويت على ثيابي، فقال بعضهم: هي إذ ذاك معربة.

وقال «أبو القسم بن القسم» كذا في الأصل -: هي مبنية والألف فيها كالف هذا.

وأعلم أن علا قد تكون فعلاً من العلو يرفع الفاعل كقوله تعالى: ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ [القصص: ٤] وأمر هذا بين، وليست من الحرفية في شيء إلا في الصورة.

وأما على الاسمية: فقال ابن يعيش: مختلف فيها؛ فمذهب أبى العباس وجماعة أنها على الاشتراك اللفظي فقط؛ لأنه لا يشتق، ولا يشتق منه، فكل

واحد من هذه الثلاثة مباين لصاحبه إلا من جهة اللفظ، وقال قول الأصل أن تكون حرفاً، وإنما كثر استعمالها فشبهت في بعض الأحوال بالاسم فأجريت مجراه، وأدخل عليها حرف الجر كما يشبه الاسم بالحرف ويجرى مجراه، نحو «من» و «كم».. انتهى.

والغرض هنا إنما هو «على» الحرفية، وذكر معانيهما، وذكر ابن مالك فيها ثمانية معان:

الأول: الاستعلاء حساً، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، أو معنى كقوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ولم يثبت لها أكثر البصريين غير هذا المعنى، وتأولوا ما أوهم خلافه.

الثاني: المصاحبة كقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] ﴿وَأَنْ رَّبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

الثالث: المجاوزة كقول الشاعر:

إذا رضيت على بنو قشير

لعمر أيك أعجبنى رضاها

أى: عنى.

قال ابن مالك: وكذلك الواقعة بعد خفى، وتعذر، واستحال، وغضب، وأشباهها.

الرابع: التعليل كقوله تعالى: ﴿وَلْتَكْبِرُوا لِلَّهِ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥].

الخامس: الظرفية كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مَلِكٍ سَلِيمٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وتؤولت الآية على تضمن تتلو معنى تتقول.

السادس: موافقة «من» كقوله تعالى: ﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: ٢] قاله بعض النحويين، والبصريون يذهبون في هذا إلى التضمنين، أى: وإذا حكم على الناس فى الكيل.

السابع: موافقة الباء كقوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىَّ أَلَّا أَقُولَ﴾ [الاعراف: ١٠٥] أى: بأن لا أقول، وقرأ أبى بأن فكانت قراءته تفسيراً لقراءة الجماعة.

وقال العرب: اركب على اسم الله أى: باسم الله.

الثامن: أن تكون زائدة للتعويض كقول الشاعر:

إن الكريم وأبيك يعنـمـل

إن لم يجد يوماً على من يتكل

قال ابن جنى: أراد من يتكل عليه فحذف «عليه» وزاد «على» قبل «من» عوضاً.. انتهى.

ويحتمل أن يكون الكلام تم عند قوله: إن لم يجد يوماً، ثم قال: على ما يتكل، وتكون «من» استفهامية.

قال ابن مالك: وقد تزداد دون تعويض واستدل على ذلك بقول حميد بن ثور:

أبى الله إلا أن سرحـة مالك

على كل أفنان العـضاه تروق

زاد «على» لأن راق متعدية مثل أعجب، تقول: راقنى حسن الجارية، وفى الحديث «من حلف على يمين» والأصل حلف يميناً، قيل: ولا حجة فى ذلك لأنه يحتمل تضمين تروق معنى تشرف، ويضمن حلف معنى جسر، وقد نص سيبويه على أن «على» لا تزداد، وزاد بعضهم فى معانى «على» موافقة اللام كقوله تعالى: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وأكثر هذه المعانى إنما قال به الكوفيون، ومن وافقهم كالقنبرى^(١)، والبصريون يؤولون ذلك.

مما تقدم نعلم أن نظام المرادى فى بحثه أتم وأشمل وأنه يتفق مع ابن هشام فى أكثر الشواهد والأمثلة، ولا مانع من أن يكون ابن هشام قد طالع كتابه قبل تأليفه «المغنى».

(١) هو ابن قتيبة.

أما أن يكون «الجنى الدانى» مأخذًا «للمغنى» كما قرر صاحب «كشف الظنون» فهذه دعوى يعوزها الدليل؛ لأن ترتيب الكتاين فى بحث معانى الحروف مختلف اختلافًا بيناه، واتفاقهما فى أكثر الشواهد والأمثلة لا ينهض وحده دليلًا على هذه الدعوى؛ لأن كليهما قد استقى من معين واحد هو عصارة الباب السابقين فى مؤلفاتهم، ولو قال صاحب «كشف الظنون»: إن الإربنى أخذ عن المرادى لقبلى حكمه إلى حد ما؛ لأن ترتيب «جواهر الأدب»، وفق ترتيب «الجنى الدانى»، وكلاهما قاصرا على الحروف بيد أن «مغنى اللبيب» تناول فيه ابن هشام جميع أبواب النحو فكيف يكون «الجنى الدانى» مأخذ «المغنى»؟!

ومن عجب أن كتاب المرادى على فضله وغزارة علمه لم يطبع إلى الآن، وقد عثرت على نسخة مخطوطة منه فى دار الكتب المصرية نقلت منها ما سلف ورجعت إلى كلمة «عن» حيث أحال عليها فى كلامه السابق فوجدت بها خرمًا، ولم أجد سواها أتم منها كلامه.

موازنة عامة بين الرضى وابن هشام

سبق القول إن ابن هشام المولود سنة ثمان وسبعمائة لم يطلع على مؤلفات الرضى المتوفى سنة تسعين وستمائة على أصح الروايات، وقد أيدت هذا بالدليل العقلي وبما وقفت عليه في الأمر الثالث من مقدمة «خزانة الأدب»^(١)، نقلاً عن البقاعي في «مناسبات القرآن»، ولكنني وجدت بين الإمامين الجليلين تشابهاً في بعض النواحي، فهما يلتقيان في الجمع، والتحقيق، وطول النفس، وحسن التعليم، وقوة التدليل، وغزارة الاستشهاد، وتلك نتيجة لتوفر كل منهما على خدمة هذا العلم واستقصاء البحث فيما ثمره النحاة السابقون من لدن نشأة النحو إلى أن وصل إليهما، حتى هدى كل واحد منهما إلى مبتكرات تفتق عنها ذهنه مما ترك الأول للآخر، عمادها استقلال الرأي وقوة الحجة.

والموازنة بين الإمامين الجليلين واضحة في شرح الرضى «للكافية»، وفي «مغنى اللبيب» لابن هشام، فكلا الرجلين مؤلف قد جمع في كتابه قواعد النحو وأسرارها بما يدل على تعمق في هذا العلم واستكشاف لمخباته وإحاطة بأوابده مع شغف بضم الأنواع المتجانسة، ولم أطراف الكلام الذي يراد التعميد له، وكلاهما أخو فن متقن، حر التفكير تختمر الفكرة عنده فيرسلها مدعومة بما صح من نقل، مقبولة بما هدى إليه العقل، من غير تحيز إلى مذهب خاص من مذاهب النحاة الأربعة.

أما تباين الرجلين فيتجلى في أمور منها:

أولاً: أن صنيع ابن هشام فيما خطت يمينه من مؤلفاته كانت تغلب عليه النزعة الاستقلالية غير ملتزم ما اختاره سلفه من النحاة في الترتيب والتبويب، وأنطق شاهد على ذلك كتابه «المغنى» الذي تجلت فيه ملكة التصنيف والتنسيق فأبدعه على مثال لم يسبق إليه، ولم يدع للمتأخرين استدراكاً عليه.

على حين أن الرضى كان في تأليفه شارحاً لكلام غيره، ولا أعلم له مؤلفات أخرى سوى «شرحيه على الكافية والشافية» لابن الحاجب، ويغلب على ظني

(١) مقدمة خزانة الأدب للبغدادى ص ١٣ .

أنه لم يعدل عن طريقة الشرح فيما لم يصل إلينا من مؤلفاته.

ثانياً: أن شواهد ابن هشام الشعرية مستقاة من طبقات الشعراء الثلاثة الأولى: «الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين» وقد انعقد الإجماع على صحة الاستشهاد بشعر الطبقتين الأولى والثانية، وأما الثالثة: فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها.

وأما الشعراء المحدثون فإن ابن هشام لم يعول على شعرهم كشواهد يعتمد عليها، ولم يرد فى مؤلفاته إلا قليل من ذلك ساقه مساق الأولين والاستثناس فحسب.

على حين أن «الرضى» رضى بالقول الضعيف فى جواز الاستدلال بشعر المحدثين كأبى تمام، والمتنبى، وبشار، وأبى نواس، والقول الراجح الصحيح أنه لا يستشهد بكلام هؤلاء وأمثالهم، والرضى فى ذلك متابع للزمخشري.

وقد استشهد «الرضى» رضى الله عنه فى باب المبتدأ والخبر بقول أبى نواس:

غَير «مأسوف على زمن

ينقضى بالهم والحزن

ويقول أبى تمام:

لعاب الأفاعى القاتلات لعابه

وأرى الجنى اشتارته أيد حواسل

كما استشهد فى باب الحال بقول بشار:

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتهـا

خرجت مع البازى على سواد

ويقول أبى الطيب:

قبلتها ودموعى مزج أدمعها

وقبلتنى على خوف نـمـاً لفم

ويقوله أيضاً:

بدت قمرًا وماسّت خطوط بان

وفاحت عنبرًا ورنّت غزالا

وقد استشهد بشعر غيرهم من المحدثين كذلك، وكأنه كان ولوعًا بشعر المتنبي حيث كرر الاستشهاد بكلامه في مواطن كثيرة.

ثالثًا: إن ابن هشام كان معتدلاً في استشهاديه بالحديث فهو يتحرى الصحيح منه، وما يكاد ينعقد الإجماع عليه، فكانت الأحاديث في شواهد قليلة بالنسبة لإفاضة الرضى في الاستشهاد بها، وهو في ذلك مسبق بابن مالك.

رابعًا: أن الرضى أفاض في الاستشهاد بالكلام المنسوب إلى الإمام على - رضى الله عنه - في نهج البلاغة؛ لتشيعه، وكلام على كرم الله وجهه حجة، بيد أن ابن هشام لم يتجه هذا الاتجاه شأنه في ذلك شأن غيره من النحاة.

خامسًا: تمتاز مؤلفات ابن هشام بالوضوح والبيان على حين أن مؤلفات «الرضى» على إحكامها قد بدا فيها تأثير البيئة الأعجمية من فلسفة قديمة في تبيان القواعد، ومن أسلوب منطقي في التوجيه والتعليل مما جعلها وقفًا على الموغلين في العلم.

أما مؤلفات ابن هشام فيقضى لبائته منها الصغير والكبير كل بحسب قدرته، وطابعها النظام والإحكام.

شهادت العلماء لابن هشام

قال ابن خلدون^(١): ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة، وتكلم عن الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها، وسماه «بالمغنى فى الإعراب»، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها، وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرهما، فوقفنا منه على علم جم، يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة، ووفور بضاعته منها، وكان ينحو فى طريقته منحة أهل الموصل، الذين اقتفوا أثر ابن جنى، واتبعوا مصطلح تعليمه، فأتى من ذلك بشئ عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه، والله يزيد فى الخلق ما يشاء.

وقال فى نفس المقدمة: وصل إلينا بالمغرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام، وظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة، لم تحصل إلا لسيبويه، وابن جنى، وأهل طبقتهم لعظم ملكته، وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتقاريعه، وحسن تصرفه فيه، ودل على أن الفضل ليس منحصراً فى المتقدمين^(٢).

وقال فى موطن آخر: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام: أنحى من سيبويه.

وقال عنه العلامة ابن حجر العسقلانى - المتوفى سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة من الهجرة - وأتقن العربية ففاق الأقران بل الشيوخ، وتصدر لنفع الطالبين، وانفرد بالفوائد السخرية والمباحث الدقيقة، والاستدراكات العجيبة، والتحقيق البالغ، والاطلاع المفرط، والاقتدار على التصرف فى الكلام، والملكة التى كان يتمكن بها من التعبير عن مقصوده بما يريد مسهباً وموجزاً، مع التواضع والبر والشفقة، ودمائة الخلق، ورقة القلب.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٣ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٠ .

قال لنا ابن خلدون وذكر العبارة الأخيرة ^(١) وردد مثل هذا الإمام السيوطي المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة من الهجرة ^(٢)، وحذا حذوه العلامة ابن العماد الحنبلي المتوفى سنة تسع وثمانين وألف هجرية ^(٣)، وصنع مثله الشوكاني المتوفى سنة خمسين ومائتين وألف من الهجرة ^(٤).

وقال التاج السبكي: إن أنسًا رضى الله عنه قال بصدد تعليم الوضوء لفتاه بعد أن جدد الماء لمسح الأذنين: إنهما من الرأس «ليس هما من الوجه» قال أستاذنا أبو حيان: قول أنس: ليس هما من الوجه، وجه الكلام أن يقول: ليستا من الوجه، لكنه جعل ليس مثل ما فلم يعملها، يقولون «ليس الطيب إلا المسك» وقول الشيخ أبي حيان إن أنسًا جعل ليس مثل ما.

قال الشيخ جمال الدين عبد الله بن هشام نحوى هذا الوقت أبقاه الله تعالى: ليس ذلك متعينا بل يجوز أن يكون أضمر فى ليس الشأن والحديث وحيثئذ فتقول هما من الوجه مبتدأ وخبر، والجملة خبر ليس، وفصل الضمير واجب؛ لأنه حيثئذ معمول للابتداء كما أنه فى تخريج أبى حيان كذلك، والتخريج الذى ذكرته أولى؛ لأن فيه إبقاء «ليس» على إعمالها، وقول أبى حيان إن ذلك لغة تميم وإشارته إلى الحكاية ليس بجيد ^(٥).

وقال العلامة يس: «وليس المصنف - يعنى ابن هشام - ممن يرد عليه بكلام الرضى فإنه كان نحوى عصره بشهادة أئمة عصره كالتاج السبكي صاحب جمع الجوامع» ^(٦).

فهذه الشهادات وما إليها من أهلها شرف عظيم، قلما ظفر بمثله غير ابن هشام، ذلك الذى رفع من قدر مصر التى ألحجته وجعلها تذكر مقرونة باسمه فى مقام الفخار والإكبار، فإذا كانت البصرة والكوفة منبت النحو فيهما نما

(١) الدرر الكامنة ٥ : ٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٢) بغية الوعاة ص ٢٩٣، حسن المحاضرة ص ٢٣٠ .

(٣) شلرات الذهب ٦ : ١٩١ .

(٤) البدر الطالع ١ : ٤٠٠ .

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ٣٣ - ٣٤ .

(٦) حاشية يس على التصريح ٢ : ٥١ .

وترعرع، وتعهده فى المصرين أئمة أعلام كابى عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، وسيبويه، والأخفش، ومن ترسم خطاهم حتى المبرد، وكمعاذ الهراء، والرؤاسى، والكسائى، والفراء، ومن لف لفهم إلى ثعلب.

ثم كانت بغداد بعد مستقرًا ومقامًا لكثير من هاجر من المدينتين فوجدوا فيها مرآعًا كثيرًا وسعة، وعيشًا هنيئًا ودعة، وأولوا هذا العلم عناية فائقة جعلت منه صورًا جديدة، يمثل بعضها الزجاج وابن السراج، ويقابله ابن الأنبارى وابن خالويه، ويقف بين الفريقين الأخفش الصغير ونفطويه.

وأتيح للأندلس أن تظفر بكرام بررة، يرفعون القواعد من النحو، كابن خروف، وابن عصفور، والأعلم الشتمرى، وابن مالك.

وساهم المشاركة بنصيب لا ينكر فى خدمة هذا العلم كالرضى والجاربردى، والجامى، وكان عتاد بعض هؤلاء مستمدًا من مشافهة الأعراب الفصحاء، أو مقتبسًا من دواوين شعرهم، أو مستنبطًا من مدارس القرآن.

فإن مصر البلد الطيب، والأُم الرؤوم، أبى الله إلا أن يتم نوره على هذا العلم فيها، فوهب لها وقد عقم سواها غلامًا ذكيًا، ورثه علم السابقين وأثار بصيرته لفقه كتابه الميّن، فكان ابن هشام المدخر الذى نقى النحو مما شابه من بحوث فلسفية، ومصطلحات علمية، تشوه من جماله، ونحى عنه الأساليب المنطقية فى توجيه قواعده كما يبدو فى مؤلفات المشاركة.

ومن نعم الله على ابن هشام ما هدى إليه من تخريج آيات الكتاب الكريم، وفق الذوق السليم، وكفى بتلك الآيات البينات وبما تركه من تراث خالد هاديًا إلى النحو مثبتًا لقواعده، مبصرًا بشواهد، وهل النحو إلا بحث فى الشواهد ومران عليها، وإتيان بمثلها؟! عند ذلك تثمر الدراسة، وبأكورة ثمراتها الملكة، فطن إلى ذلك ابن هشام فجاءت كتبه عالية القيمة عظيمة القدر. أحسن الله إليه كما أحسن إلى لغة قرآنه، وأكرم مثواه، إن ربي لسميع الدعاء.

دكتور

يوسف عبد الرحمن الضبع

أستاذ اللغويات بالجامعات

المصرية والعربية

فهرس الآيات القرآنية

طرف الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾	الفاتحة	٧	١٤
﴿هدى للمتقين﴾	البقرة	٢	٩٢
﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾	البقرة	٣	٩٢
﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾	البقرة	٣٧	٧٢
﴿لا تكونوا أول كافر به﴾	البقرة	٤١	١٦٨
﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾	البقرة	٤٢	١٤٣
﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾	البقرة	٤٥	١٧٤
﴿واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً﴾	البقرة	٤٨	١ ٢
﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مُصدّقاً﴾	البقرة	٨٩	٨٩
﴿ولن يتمنوه أبداً﴾	البقرة	٩٥	١٥٤
﴿وما كفر سليمان﴾	البقرة	١٠٢	١٨٣
﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا﴾	البقرة	١٠٣	١٥
﴿ما ننسخ من آية﴾	البقرة	١ ٦	٨١
﴿ونحن له مسلمون﴾	البقرة	١١٣	١٣٢
﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكون﴾	البقرة	١١٧	١٨٩
﴿ربنا تقبل منا﴾	البقرة	١٢٧	١ ٣
﴿وقالوا نعبد إلهك﴾	البقرة	١٣٣	١٢٤
﴿فسيكفيهم الله﴾	البقرة	١٣٧	١٨
﴿وإن كانت لكبيرة﴾	البقرة	١٤٣	١٢

٢٢٢	١٧٧	البقرة	﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾
١٥٧	١٧٩	البقرة	﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾
١٢٨	١٨٤	البقرة	﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾
٢٣١	١٨٥	البقرة	﴿وَلَتَكْبِرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾
١٥٤	١٩٦	البقرة	﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾
١٥٦	٢٠٨	البقرة	﴿ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً﴾
١٤٤	٢١٤	البقرة	﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾
١٢٤	٢١٧	البقرة	﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾
١٨٩	٢٣١	البقرة	﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾
١١٢	٢٣٣	البقرة	﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾
٢٢٢	٢٣٥	البقرة	﴿وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾
٦٧	٢٥١	البقرة	﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ﴾
٢٢٠	٢٥٣	البقرة	﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾
٢٢٥	٢٦٠	البقرة	﴿فَصَرِّهِنَّ إِلَيْكَ﴾
١٢٥	٢٨٢	البقرة	﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾
١٦٠	١	آل عمران	﴿آلَمَ﴾
١٦٠	٢	آل عمران	﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾
١٠٥	٤٤	آل عمران	﴿وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾
١٢٣	٩٢	آل عمران	﴿حَتَّى تَنْفَقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾
١٦٨	١١٣	آل عمران	﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ﴾
٧٣	١٤٠	آل عمران	﴿تِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾
١٣١	١٤٤	آل عمران	﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾

١٤٥	١٥٢	آل عمران	﴿منكم من يريد الدنيا﴾
١٦٦	١٧٢	آل عمران	﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾
١٦٨	١٨٥	آل عمران	﴿كل نفس ذائقة الموت﴾
١٢٤	١	النساء	﴿تساءلون به والأرحام﴾
١٧٥	٢	النساء	﴿ولا تأكلوا أموالهم﴾
١٠٣	٤٦	النساء	﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾
١٤١	٦٦	النساء	﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾
١٥٥	٧٧	النساء	﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾
١٥٥	٧٨	النساء	﴿أينما تكونوا يدركم الموت﴾
١٣٤	٧٩	النساء	﴿وكفى بالله شهيداً﴾
١٤٣	١٠٠	النساء	﴿ومن يخرج من بيت مهاجراً﴾
١١٠	١١٧	النساء	﴿وإن يدعون من دونه إلا إناثاً﴾
١١٠	١٥٩	النساء	﴿وإن من أهل الكتاب ليؤمنن به﴾
٧٩	١٦٣	النساء	﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾
١١٣	١٧٦	النساء	﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾
١٥٢	١٧٦	النساء	﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾
١٢٥	٢	المائدة	﴿ولا يجرمكم شأن قوم﴾
١٨٩	٦	المائدة	﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾
١٠٣	٢٧	المائدة	﴿فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾
١٢٩	٤٥	المائدة	﴿وأن احكم بينهم﴾
٢٣٢	٥٤	المائدة	﴿أذلة على المؤمنين﴾
١٦٦	٧٣	المائدة	﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون﴾

٩٣	١١٧	الأنعام	﴿كنت أنت الرقيب عليهم﴾
١٢٣	٢٨	الأنعام	﴿ولو ردوا﴾
١١١	٦٠	الأنعام	﴿مكناهم في الأرض﴾
١١٩	٦٦	الأنعام	﴿وكذبت به قومك﴾
١٣٩	٩٦	الأنعام	﴿وجاعل الليل سكنا والشمس﴾
٧٤	١٠٩	الأنعام	﴿وما يشعركم﴾
٢٨٣	١١١	الأنعام	﴿ولو أنا أنزلنا إليهم الملائكة﴾
٦٨	١١٤	الأنعام	﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب﴾
١٠٥	١٣٠	الأنعام	﴿ألم يأتكم نذيرٌ قالوا بلى﴾
٧٣	١٤١	الأنعام	﴿وأتوا حقه يوم حصاده﴾
٢٢٢	١٦	الأعراف	﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾
١٤١	٥٩	الأعراف	﴿ما لكم من إله غيره﴾
١٤٥	٩٥	الأعراف	﴿حتى عفوا﴾
١٢٠	١٠٢	الأعراف	﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾
٢٣٢	١٠٥	الأعراف	﴿حقيقٌ على ألا أقول﴾
١١٤	١٠٨	الأعراف	﴿فإذا هي بيضاء﴾
٨٠	١٣٢	الأعراف	﴿مهما تأتينا به من آية﴾
١٦٥	١٥٥	الأعراف	﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾
١٠٥	١٧٢	الأعراف	﴿ألستُ بربكم قالوا بلى﴾
١٨٤	١٧٦	الأعراف	﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾
١٣٥	١٧٧	الأعراف	﴿سواء مثلاً القوم﴾
١٨٦	١٨٧	الأعراف	﴿ولا يجليها لوقتها إلا هو﴾

١١١	١٩٤	الأعراف	﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾
١٨٠	٥	الأنفال	﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾
٧٣	١٦	الأنفال	﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾
١١٠	١٩	الأنفال	﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدَ﴾
١٨٥	٢٣	الأنفال	﴿وَلَوْ أَسْمِعْهُمْ لَنُتِلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾
١١٠	٣٨	الأنفال	﴿إِنْ يَتَّبِعُوا يُغْفِرْ لَهُمْ﴾
١٨٣	٤٣	الأنفال	﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ﴾
١٨٦	٦٢	الأنفال	﴿فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ﴾
١٣٩	٦٧	الأنفال	﴿وَاللَّهُ يَرِيدُ الْآخِرَةَ﴾
١١٠	٧٣	الأنفال	﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾
١٥١	١٣	التوبة	﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾
١٥٩	٣٠	التوبة	﴿قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾
١٧٤	٣٢	التوبة	﴿وَيَا أَيُّهَا اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ﴾
١٥٦	٣٦	التوبة	﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾
١١٠	٣٩	التوبة	﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ يُعَذِّبْكُمْ﴾
١١٠	٤٠	التوبة	﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾
١٨٠	٧١	التوبة	﴿أَوَلَيْكَ سِيرَاحُهُمْ اللَّهُ﴾
١١٠	١٠٧	التوبة	﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾
٩٠	١٠٨	التوبة	﴿مَنْ أَوَّلَ يَوْمٍ﴾
٧٣	١١٧	التوبة	﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾
١١٥	١١٨	التوبة	﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾
٧٤	١٢٨	التوبة	﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾

١١٠	٦٨	يونس	﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾
١١٩	٩٠	يونس	﴿إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾
٦٨	٩٩	يونس	﴿لَا مَنْ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾
٨٢	٨	هود	﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾
١٣٦	٤٣	هود	﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾
١١٠	٤٧	هود	﴿إِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
١٣	٥٣	هود	﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾
١٣٠	٦٩	هود	﴿قَالُوا سَلَامًا﴾
١٢٩	٧٧	هود	﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾
١١٢	١١١	هود	﴿وَأَنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقِيهِمْ﴾
١٥٤	١١٦	هود	﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾
١٣٢	١٣	يوسف	﴿وَأَنِّي لِيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾
١٠٥	٢٥	يوسف	﴿لَدَى الْبَابِ﴾
١١٩	٣٠	يوسف	﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾
١١٠	٣٣	يوسف	﴿وَالِإِ تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنِ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ﴾
١٢٣	٦٥	يوسف	﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾
١٤٩	٩١	يوسف	﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾
١٣٨	٩٢	يوسف	﴿لَا تُثْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾
٢٢٠	٦	الرعد	﴿وَأِنْ رِيكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ﴾
١٢٦	١٦	الرعد	﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتِ﴾
٦١	١٧	الرعد	﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾
١٧٤	٤٢	إبراهيم	﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا﴾

١٣١	٣٠	الحجر	﴿فسجد الملائكة كلهم﴾
٣٩	٨	النحل	﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها﴾
١٠٤	٤٠	النحل	﴿قال الذى عنده علم من الكتاب﴾
١١١	٨١	النحل	﴿سراييل تقيكم الحر﴾
١٨٩	٩٨	النحل	﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ﴾
١٣٢	١٢٤	النحل	﴿وإن ربك ليحكم بينهم﴾
٩٠	١	الإسراء	﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾
١٦٧	١٣	الإسراء	﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه﴾
١٠٥	٣٦	الإسراء	﴿إن السمع والبصر والفؤاد﴾
١١٠	٥٢	الإسراء	﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾
١٣٦	٦٢	الإسراء	﴿أرايتك هذا الذى كرمت على﴾
١٢٨	٧٤	الإسراء	﴿ولولا أن ثبتناك﴾
١٨٥	١٠٠	الإسراء	﴿لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى﴾
١١٠	٥	الكهف	﴿إن يقولوا إلا كذباً﴾
١٢٣	٣١	الكهف	﴿من أساور من ذهب﴾
١١٢	٣٨	الكهف	﴿لكننا هو الله ربى﴾
١٣٥	٥٠	الكهف	﴿بئس للظالمين بدلاً﴾
١٠٥	٦٥	الكهف	﴿آتيانا رحمة من عندنا﴾
١٠٣	٨٢	الكهف	﴿وما فعلته عن أمرى﴾
٢٢٥	٢٥	مريم	﴿وهزى إليك﴾
١٥٤	٢٦	مريم	﴿فلن أكلم اليوم إنسيا﴾
١١٠	٧١	مريم	﴿وإن منكم إلا واردها﴾

١٠٥	٩٥	مريم	﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
٢٢٢	١٠	طه	﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾
١١٤	٢٠	طه	﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾
١٠٣	٤٢	طه	﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾
١٦١	٦٣	طه	﴿إِنْ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ﴾
١٢٧	٧١	طه	﴿وَلَا صَلْبِنُكُمُ فِي جُزُوعِ النَّخْلِ﴾
١١١	١٧	الأنبياء	﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾
١٤٩	٢٢	الأنبياء	﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾
١٤٢	٢٦	الأنبياء	﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾
١٤٩	٥٧	الأنبياء	﴿وَتَاللَّهِ لَا كَيْدُنَ أَصْنَامُكُمْ﴾
١٨٩	١٠٤	الأنبياء	﴿وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾
١٣١	١٠٨	الأنبياء	﴿قُلْ إِنَّمَا يُوصِي إِلَيَّ﴾
١١١	١١١	الأنبياء	﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾
١٤٠	٦	الحج	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾
١٦٨	٢٧	الحج	﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾
٢٢٣	٣٧	الحج	﴿وَلَتَكْبِرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾
٢٢١	٥	المؤمنون	﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾
٢٢١	٦	المؤمنون	﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾
١٠١	١٤	المؤمنون	﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾
٢٢٢	٢٢	المؤمنون	﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾
٢٢٢	٣٣	المؤمنون	﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾
١٠٣	٤٠	المؤمنون	﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾

١٣٦	٤٥	المؤمنون	﴿عما قليل﴾
١٦٨	٥٣	المؤمنون	﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾
١٤٢	٦٣	المؤمنون	﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾
١٤٣	٧٠	المؤمنون	﴿أم يقولون به جنّة﴾
١٢٨	٩	النور	﴿والخامسة أن غضب الله عليها﴾
١٥١	٢٢	النور	﴿ألا تحبون أن يفقر لكم﴾
١٦٥	٦٣	النور	﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾
٩٦	٥	الفرقان	﴿وقالوا أساطير الأولين أتنبأ﴾
١٢٦	٢٥	الفرقان	﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾
١٢٦	٥٩	الفرقان	﴿فاسأل به خبيراً﴾
٢٢٢	١٤	الشعراء	﴿ولهم على ذنب﴾
١٢٠	١٨٦	الشعراء	﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾
٧٨	٢٠٨	الشعراء	﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾
١٧٩	١٠	النمل	﴿ولى مدبراً﴾
١٧٤	١٨	النمل	﴿أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان﴾
١٠٤	٤٠	النمل	﴿فلما رآه مستقراً عنده﴾
٧٦	٤٩	النمل	﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾
١٢٦	٨٤	النمل	﴿أم ماذا كنتم تعلمون﴾
٢٠٦	٨٨	النمل	﴿صنع الله﴾
٢٣٠	٤	القصص	﴿إن فرعون علا في الأرض﴾
٧٢	١٥	القصص	﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾
٢٢٩	٣٢	القصص	﴿واضمم إليك جناحك﴾

١٢٨	٨٢	القصص	﴿لولا أن من الله علينا﴾
١٢٩	٣١	العنكبوت	﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم﴾
٢١٠	٤	الروم	﴿ولله الأمر من قبل ومن بعد﴾
١٥٥	٢٣	الروم	﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار﴾
١٥٩	٢٥	الروم	﴿وإذا دعاكم دعوة من الأرض﴾
١٧٧	٣٢	الروم	﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾
١٨٣	٢٧	لقمان	﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾
١٤٥	٣٢	لقمان	﴿فلما نجاهم إلى البر﴾
١٨٣	١٣	السجده	﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾
١٢٦	٢٠	الاحزاب	﴿ويسألون عن أنبيائكم﴾
٢٢٥	٣٧	الاحزاب	﴿أمسك عليك زوجك﴾
٢١	٦٢	الاحزاب	﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾
٨٠	١٣	سبا	﴿يعملون له ما يشاء من محاريب﴾
١٥٦	٢٨	سبا	﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾
١٥٥	٤٦	سبا	﴿إنما أعظكم﴾
١٤٠	٣٧	فاطر	﴿نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل﴾
١١١	٤١	فاطر	﴿ولئن زالتا إن أمسكهما﴾
١٦٢	٨٢	يس	﴿إنما أمره إذا أراد شيئا﴾
١٥٨	١٩	الزمر	﴿أفأنت تنقذ من في النار﴾
٨٣	٢٠١	غافر	﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾
١٦٨	٥	غافر	﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾
١٠٥	١٨	غافر	﴿لدى الحناجر﴾

١٤٦	٤٨	غافر	﴿إنا كل فيها﴾
٧٨	١٠	فُصِّلَتْ	﴿فى أربعة أيام سواء للسائلين﴾
١٢٤، ١٣١	١١	فُصِّلَتْ	﴿فقال لها وللأرض﴾
١٣١	٢٤	فُصِّلَتْ	﴿إن يستعبدوا﴾
١٥٧	١١	الشورى	﴿ويذروكم فيه﴾
١٠٣	٢٥	الشورى	﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عباده﴾
١٢٥	٥	الزخرف	﴿أفنزرب عنكم الذكر صفتحاً﴾
١٦٧	٥١	الزخرف	﴿أفلا تبصرون﴾
١٠٥	٨٠	الزخرف	﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم﴾
١١١	٨١	الزخرف	﴿قل إن كان للرحمن ولد﴾
٩٠	٣	الدخان	﴿إنا أنزلناه فى ليلة مباركة﴾
٨٩	٤	الدخان	﴿فيها يُفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا﴾
٧٢	٢٣	الجاثية	﴿ختم الله على سمعه وقلبه﴾
١٣١	٢٥	الجاثية	﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾
١٠٣	١٦	الاحقاف	﴿أولئك الذين نتقبل عنهم﴾
١١١	٢٦	الاحقاف	﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾
١٧٣	٣٣	الاحقاف	﴿أو لم يرو أن الله الذى خلق السموات﴾
١٠٢	٣٨	محمد	﴿فإنما يخل عن نفسه﴾
١٤٩	٢٥	الفتح	﴿ولو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا﴾
١٦٥	٢٩	الفتح	﴿وعد الله الذين آمنوا﴾
٢٠٥	٩	الحجرات	﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتلوا﴾
١١٨	١٤	الحجرات	﴿قالت الأعراب﴾

٧٣	٥٠	ق	﴿إِنْ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾
١٠٣	٣	النجم	﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾
١٠٤	١٤	النجم	﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾
٧٨	٧	القمر	﴿خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ﴾
١١٨	٩	القمر	﴿كَذَبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ﴾
١٦٧	٥٢	القمر	﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزَّبْرِ﴾
٢٣١	٢٦	الرحمن	﴿كُلِّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾
٧٢	٦٠	الرحمن	﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾
١٢٦	١٢	الحديد	﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾
١٧٦	١	المجادله	﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾
١٨٦	٨	المجادله	﴿حَسِبُهُمْ جَهَنَّمَ﴾
١١٠	٢٠	المجادله	﴿إِنْ أَمَهَا تَهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَدَنَّهُمْ﴾
١١٩	١٢	المتحنة	﴿وَإِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾
١١١	٢٥	الجمعة	﴿قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تَوْعَدُونَ﴾
١٠٥	٧	التغابن	﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾
٢٢١	٣	الطلاق	﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾
١٥٥	٦	الطلاق	﴿أَسْكُنُوا مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾
١١٧	٤	التحریم	﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾
١٦٦	٨	الملک	﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾
١٢٦	٢٠	الملک	﴿أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ﴾
١١٩	٥١	القلم	﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾
٧٣	٧	الحاقة	﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾

١٣٥	١٦	المُزمل	﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾
١٢٦	١٨	المُزمل	﴿السَّمَاءِ مَنْفَطَرٌ بِهِ﴾
١٧٧	٣٨	المُدثر	﴿كُلْ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةً﴾
١٦٦	٣	القيامة	﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾
٧٣	٣٠	القيامة	﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسَاقُ﴾
٢٢٠	٨	الإنسان	﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَبِّهِ مَسْكِينًا﴾
٢٣١	٢	المطففين	﴿إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾
٩٣	١	الإنشقاق	﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾
١٠٣	١٩	الإنشقاق	﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾
١١٠	٤	الطارق	﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾
٦٩	١٧	الطارق	﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رَوِيدًا﴾
٧٢	٥	الأعلى	﴿الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾
١٤٢	١٤	الأعلى	﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾
١١١	٩٠	الأعلى	﴿فَذَكَرْ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ﴾
٧١	٢٠١	الكوثر	﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾

فهرس الاتحادىث النبوىة

رقم الصفحة	طرف الحديث
٧٣	«أناكم أهل اليمىن».
١٠٦	«أترضون أن تكونوا ربىع أهل الجنة».
١١٣	«إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون».
١٦١	«إن قعر جهنم سبعىن خرىفا».
١٠٦	«أىسرك أن يكونوا لك فى البر سواء».
١٠٢	«صُومى عن أمك».
١٠٥	«كُلْكم راع وكلكم مسئول عن رعىته».
١٠٥	«كل الناس يغدو فبائع نفسه».
١٤٣	«لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم».
٧٣	«لكل شىء قلب».

فهرس الشواهد الشعرية

قافية الهمزة

الصفحة

- إن من يدخل الكنيسة يوماً يلتق فيها جاذراً وطلباء ١١٤
لما رأيت أبا يزيد مقلاتلا أدع القتال وأشهد الهيجاء ١٦٣

قافية الباء

- أبانا بقتلانا من القوم ضعفهم وما لا يعد من أسير ومكلب ٧٦
نخيرن من أزمان يوم حليلة إلى اليوم قد جرين كل التجارب ٩٠
كالبحر يقذف للقريب جواهرها جوداً ويسر للبعير سحائبها ٩٤
كالشمس في كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً ٩٤
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب ١٠٧
أنت حنّك تقصد كل فج ترجى منك إنها لا تخيب ١١٦
كذلك أديت حتى صار من خلقى أنى رأيت ملاك الشيمة الأدب ١١٨
تخيرن من أزمان يوم حليلة إلى اليوم قد جرين كل التجارب ٩٠
وقد جعلت قلوب بني سهيل من الأكوار مرتعها قريب ١٥٠
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله كالיום هانىء أبتق جرب ١٧٤
وكل مصيبات تصيب فلانها سوى فرقة الأحباب هيئة الخطب ١٧٨
علي حين ألهم الناس جل أمورهم فتدلا زريق المال بذل الثمالب ٢٢٠
يرجى المرء منا إن لا يراه ويعرض دون أدناء الخطوب ١٧٤

قافية التاء

١٥١ ألا رجلاً جزاه الله خيراً يدل على محصلة تبیت

قافية الدال

٩	ليس على الله بمستنكر	أن يجمع العالم في واحد
٧٢	تناغى غزالاً عند باب ابن عامر	وكحل ماقيك الحسان بأثمد
٧٢	عاضها الله غلاماً بعد ما	شابت الأصداغ والضرس نقد
١٠٤	كل عندك عندي	لا يساوي نصف عندي
١١٣	أن تقرأن على أسماء ويحكمنا	منى السلام وألا تشعرا أحدا
١٥	يلومونني في حب ليلى عراذلي	ولكنني من حبها لعميد
١٦١	إذا اسود جنح الليل فلتأتني ولتكن	خطاك خفائفاً إن حراسنا أسدا
١٧٤	ورج الفتى للخير ما إن رأيته	على السن خيراً لا يزال يزيد
١٨٢	فلو كان حمد يحمد الناس لم تمت	ولكن حمد الناس ليس بمخلد
٢٢٥، ٢٢٣	إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها	خرجت مع البازي على سواد
٢٢٤	بكل تداوينا فلم يشف ما بنا	على أن قرب الداد خير من البعد
٢٢٤	على أن قرب الدار ليس بنافع	إذا كان من تهواه ليس بلذی ود

قافية الراء

٧٥	جلاها الصيقلون فأخلصوها	صفاء كلها يتقى بأثر
٧٨	حملت أمراً عظيماً فاضطربت له	وقمت فيه بأمر الله يا عمر
١١٤	إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن	عاراً عليك ورب قتل عار
١٢٥	إما أقمت وإما أنت مرتحلاً	فالله يكلأ ما تأتى وما تذر

١٢٥	بشيب غائلة النفوس غدور	طلب الأزارق بالكتائب إذ هوت
١٢٩	سودا المحاجر لا يقرآن بالسور	هن الحرائر لا ربات أخمرة
١٣١	يا أشبه الناس كل الناس بالقمر	كم قد ذكرتك لو أجزى بذكركم
١٦٥	ونار توقد بالليل نارا	أكل أمرىء تحسبين أمر
١٨٩	تزول وراك الراسيات من الصخر	إلى ملك كاد الجبال لفقده
٢١٨	ذو العقل والآراء والتدبير	والآن قد ورث الخلافة نجله

قافية السين

١٠	لا يذهب العرف بين الله والناس	من يصنع الخير لا يعدم جوازيه
٧٨	ترجو الحباء وربها لم يأس	يا مرو إن مطيتى محبوسة

قافية الضاد

٢٢٤	بجانب قوسى ما بقيت على الأرض	فوالله لا أنسى قتيلاً رزته
-----	------------------------------	----------------------------

قافية العين

١٠	إذا جمعتنا يا جرير المجامع	أولئك آبائي فجئتني بمثلهم
٥٠، ١٣	له فى كل فن بالجميع	وكان من الفنون بحيث يقضى
٥٧	وبه فى كل أمر يتفع	إنما النحو قياس يتبع
١١٧	إذا لم تكونا على من أقاطع	خليلي ما واف بعهدى أنما
١٢٤	وقلت ألم أصبح والراس فى الشيب وزاع	على حين عاتيت المشيب على الصبا
١٤٤	كأن أباهما نهشل أو مجاشع	فواعجباً حتى كليب تسبني
١٢٥	فإن قومى لم تأكلهم الضبع	أبا خراشه اما أنت ذا نفر
١٩٨، ١٩٥	نجماً يضىء كالشهاب لامعاً	كما ترى حيث سهيل طالعا
٢١٢	يشن عليكم بالقنا كل مسريع	فرغتم لتمرين السياط وأنتم

قافية القاف

- ١٦٢ ألم تسأل الربيع القواء فينتطق وهل يخبرنك اليوم بيضاء سملق
 ٢٢١ أبا الله إلا أن سرحمة مالك على كل أفنان العضاة تروق
 ٢٢٣ ولا يؤاتيك فيما ناب من حدث إلا أخو ثقة فانظر بمن تشق

قافية اللام

- ١٠ إذا مات منا سيد قام سيد قوول لما قال الكرام فعمول
 ١٦ وقال أصيحاي وقد هالني النوى وهالهم أمرى متى أنت قافل
 ١٦ فقلت إذا شاء إلا له فساويتي قريب ورعى بالسعادة أهل
 ٣٣ إنما يقدر الكرام كـريم ويقيم الرجال وزن الرجال
 ٤٧ ومن دعا الناس إلى ذمـه ذمـوه بالحق وبالباطل
 ٧١ بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اذها لم يفد مكبول
 ٧٢ وإن شفائي عبرة إن سفحتها وهل عند رسم دارس من معول
 ٧٤ أن رأت رجلاً أعشى أضرب به ريب الزمان ودهر مفسد تبل
 ٧٤ فاليوم أشرب غير مستحقب إثمًا مثن الله ولا واغل
 ٤٦ إذا كنت في دار يهينك أهلها ولم تك مكبولا بها فتحول
 ٩٧، ٧٩ لمية مـروحـشًا طلل يلوح كـأنه خلل
 ١٣٨ أرائي ولا كـفـران لله آية لنفسى قد طالبت غير منيل
 ١٣٩ فظل طهاة اللحم ما بين متضج صفيف شواء أو قدير معجل
 ١٤٤ رأيت الناس ما حاشا قريشًا فإنا نحن أفضلهم فعلا
 ١٤٤ فما زالت القتلى تمج دمائها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل
 ١٤٤ يغشونه حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل
 ١٤٩ ألا عم صباحًا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

١٥٢

تبارك رحمانا رحيمًا وموثلاً

- فليت دفعت السهم عنى ساعة
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
ألا كل شيء ما خلا الله باطل
إذا المرء لم يندس من اللؤم عرضه
كان أبانا فى عرائين وبله
ولو أن ما أسعى لأدنى معيشه
ولكنما أسعى لمجد مؤثّل
مكر مفسر مقبل مدير معا
اعتاد قلبك من سلمى عرائده
جوابًا به تنجو اعتمد فورينا
يسر الفتى طول السلامة والبقا
ومرت مرورة يحار بها القطا
إن الكريم وأبيك يعتمل
غدت من عليه بعد ما تم ظمؤها
لعاب الأفاعى القائلات لعابه
بدت قمرًا وماست خروط بان
- فبستنا على ما حيلت ناعماً بالى
يوماً على آلة حذباء محمول
وكل نعيم لا محالة رائل
فكل رداء يرتديه جـمـيـل
كسبير أناس فى بجاد مزمل
كفانى ولم أطلب قليلاً من المال
وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالى
كجلمود صخر حطه السيل من عل
وهاج أحزانك المكنونة الطلل
لعن عمل أسلفت لا غير تسال ٢٠٨، ٢٠٩
فكيف يرى طول السلامة يفعل ٢١١
ويصبح ذا علم بها وهو جاهل ٢١٤
أن لم يجد يوماً على من يتكل ٢٢٣، ٢٣٢
تصل وعن قيض بزياء مجهل ٢٢٠، ٢٢٢
وأرى الجنى اشتارته أيد عراسل ٢٣٥
وفاحت عنبراً ورنّت غزالا ٢٣٦

قافية الميم

- إذا قالت حذام فصدقوها
يظنى الغمر أن الكتب تهدى
وما يدرى الجهول بأن فيها
إذا رمت العلوم بنغير شيخ
- فإن القول ما قالت حذام ١٠
أخا ذهن حيرت لإدراك العلوم ٤٨
ظلت عن الرطيق المستقيم ٤٨
غوامض حيرت عقل الفهيم ٤٨

- وقلتبس الأمور عليك حتى
واحمر قلباه عن قلبه شميم
ومها تكن عند امرئ من خليفة وإن
وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
فإن ترفقى يا هند فالرفق أئمن
فبينى بها إن كنت غير رفيقة
الشعر صعب طويل سلمه
رلت به إلى الخضيض قدمه
جادات عليه كل عين ثرة
وهاجرة يا عز يلفظ حرها
نصيت لها وجهى وعزة تنقى
- ٤٨ تصير أضل من توما الحكيم
٧٧ ومن بجسمى وحالى عنده سقم
٨١ خالها تخفى على الناس تعلم
٨٢ وما هو عنها بالحديث المرجم
١٣٤ وإن تخرقى يا هند فالخرق أشأم
١٣٥ وما لامرئ بعد الثلاث مقدم
١٦٢ إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
١٦٢ يريد أن يعربه فيعجمه
١٧٨ فتركن كل حديقة كالدرهم
١٩٧ لركبانها من حيث لى العمائم
١٩٧ بجلابها والتسر لفتح السمائم

٢٢٠ ودع ما عليه ذم من كان قد ذما

- وما أصحاب من قوم فأذكرهم
قد بت أحرسنى وحدى ويمعنى
وإن لسانى شهدة يشفى بها
قبلتها ودموعى مزج أدمعها
- ٢٢٥ إلا يزيدهم حبا إلى هم
٢٢٦ صوت السباع به يضبحن والهام
٢٣٠ وهو على من صبه الله علقم
٢٣٥ وقبلى على خوف فما لقم

قافية النون

- فخلد لنفسك ذكرى
أنشأت مدرسة ومارستانا
أن يقل هن من بنى عبد شمس
نامت فؤادك لى يحزنك ما صنعت
- ٩ فالذكر للإنسان جمرثان
لتصحح الأديان والأبدانا
٢٧ فحسرى أن يكون ذاك وكانا ١٣٣، ٦٩
إحدى نساء بنى ذهل بن شيبانا ٧٤

٨٩	في فلك ماخر في اليم مشحونا	بحيت يا رب نوحاً واستجبت له
١٠٣	عنى ولا أنت ديانى فتخزونى	لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب
١٠٧	أخفاف إن هلكت أن ترنى	عمداً فعلت ذاك بيد أنى
١١٣	فجعلنا القرى أن تشتمونا	ترلتم منزل الأضياف منا
١٢٦	أم كيف يجزوننى السواى من الحسن	أنى جزوا عامراً سوءى بفعلهم
١٢٦	رئسان أنفق إذا ماضى بالبن	أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به
١٢٧	فلتقضى حوائج المسلمينا	لتقم أنت يا ابن خير قرشى
١٧٥	قد قتل الله رباداً عنى	كيف ترانى قاليا مجنى
١٨٧	بنوا اللقيطة من ذهل بن شيبانا	لو كنت من مازن لم تستبح إبلى
١٨٣	ليسوا من الشرف فى شىء وإن هانا	لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد
٢٠٢	ولكن ما يقضى فسوف يكون	فوالله ما فارقتم قاليا لكم
٢٠٥	تعاطا لقنا قوما هما أخوان	وكل رفيقى كل رحل وإن هما
٢٠٥	لا الدار داراً ولا الجيران جيرانا	أنكرتها بعد أعوام مضيئ لها
٢١٢	لمفور الضرا ضرر الجين	وأخرج أمه لسواى سلمى
٢٣٠، ٢٢١	وأخفى الذى لولا الأسى لقضائى	تحن فتبدي ما بها من صباة
٢٣٥	ينقضى بالهم والحزن	غير ما سوف على زمن

قافية الهاء

١٠	كأنك تعطيه الذى أنت سائله	تراه إذا ما جئته منهلاً
١٢	على مسا كان عوده أبوه	وينشأ ناشئ الفتيان منها
١٦	ما لم تبالغ قبل فى تهذيبها	لا تعرضن على الرواة قصيدة
١٦	عدوه منك وساوياً تهذى بها	فمتى عرضت الشعر غير مهذب
٧٥	وعزة مطول معنى غريمها	قضى كل ذى دين فوفى غريمه

- رأيت الرليد بن اليزيد مباركا شديداً بأعباء الخلافة كاهله ٨
كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شسراك نعله ١٩٧
في ليلة لا ترى بها أحداً يحكى علينا إلا كواكبها ٢٢٢
إذا رضيت على بتوقشير لعمر والله أعجبني رضاها ٢٣١، ٢٢٢
هون عليك فإن الأمور ربكف الإله مقاديرها ٢٢٩، ٢٢٥

قافية الواو

- زيارتنا نعمان لا تنسينها تق الله فينا والكتاب الذي تتلو ٧٥
ولم يبق سوى العبدوا ن دناهم كـمـا دانوا ٨٩
فبكي بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون على ثم تفرقوا ١١٩

قافية الياء

- وأس سراة الحى حيث لقيتهم ولاتك عن حمل الرباعة وانيا ١٠٣
أراني إذا أصبحت أصبحت ذا هوى فم إذا أمسيت أمسيت غاديا ١١٥
ويركب يوم الروح منا فوارس بصيرون في طعن الأباهر والكلى ١٥٢
على إذا ما ررت ليلي بخفية زيارة بيت الله رجلا ن حاقيا ١٥٢
فليت كفاً كان خيرك كله وشرك عني ما ارتوى الماء مرتوى ١٦٤
ولو أن واش باليمامة داره ودارى بأعلى حضرموت اهتدى ليا ١٦٤

المراجع

- ١ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى.
- ٢ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوى.
- ٣ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى.
- ٤ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد.
- ٥ - بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى.
- ٦ - حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة للسيوطى.
- ٧ - الأشباه والنظائر فى النحو للسيوطى.
- ٨ - شرح شواهد المغنى للسيوطى.
- ٩ - «طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكى.
- ١٠ - دائرة المعارف الإسلامية المترجمة.
- ١١ - طبقات الحنابلة.
- ١٢ - وفيات الأعيان.
- ١٣ - قوافى الوفيات.
- ١٤ - الوافى بالوفيات.
- ١٥ - كشف الظنون.
- ١٦ - مقدمة ابن خلدون.
- ١٧ - نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد الطنطاوى.
- ١٨ - الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام.
- ١٩ - شرح بانة سعاد لابن هشام.
- ٢٠ - قطر الندى وبل الصدى وشرحه لابن هشام.

- ٢١ - شذور الذهب وشرحه لابن هشام.
- ٢٢ - أوضح المسالك لابن هشام.
- ٢٣ - شرح التصريح للشيخ خالد الأزهرى.
- ٢٤ - حاشية يس على التصريح.
- ٢٥ - شرح ابن عقيل مع حاشية الخضرى على الألفية.
- ٢٦ - شرح الأشموني على الألفية.
- ٢٧ - حاشية الصبان على الأشموني.
- ٢٨ - المفصل للزمخشري.
- ٢٩ - شرح المفصل لابن يعيش.
- ٣٠ - الكافية لابن الحاجب.
- ٣١ - شرح الكافية للرضى.
- ٣٢ - مغنى اللبيب لابن هشام.
- ٣٣ - شرح الدمامينى على المغنى.
- ٣٤ - حاشية الشمنى على المغنى.
- ٣٥ - حاشية الأمير على المغنى.
- ٣٦ - حاشية الدسوقى على المغنى.
- ٣٧ - النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة للعلامة الكبير الشيخ محمد أحمد عرفة، من جماعة كبار العلماء.
- ٣٨ - الكتاب لسيويه.
- ٣٩ - جواهر الأدب فى معرفة كلام العرب للإريلى.
- ٤٠ - الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى.
- ٤١ - خزانة الأدب للبغدادى.
- ٤٢ - شرح شواهد المغنى للبغدادى.
- ٤٣ - التطبيقات العربية للأستاذ الكبير أحمد يوسف فجاتى بك.

- ٤٤ - الخصائص لأبى الفتح بن جنى.
- ٤٥ - الصاحبى لأحمد بن فارس.
- ٤٦ - المواهب الفتحية للشيخ حمزه فتح الله.
- ٤٧ - الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه للمرحومين الأسكندرى، وعنانى بك.
- ٤٨ - آداب اللغة العربية لجورجى زيدان.
- ٤٩ - خطط المقرئى.
- ٥٠ - الخطط التوفيقية.
- ٥١ - معجم الأدباء لياقوت الحموى.
- ٥٢ - القاموس المحيط.
- ٥٣ - لسان العرب.
- ٥٤ - المصباح المنير.
- ٥٥ - مختار الصحاح.
- ٥٦ - تفسير الكشاف للزمخشرى.
- ٥٧ - البحر المحيط لأبى حيان.
- ٥٨ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبى.
- ٥٩ - تفسير النسفى.
- ٦٠ - أصول الفقه لمحمد بك الخضرى.

ومراجع أخرى طالعت فيها أكتفى بالإشارة إليها، على أن بعض المراجع السابقة لم أنقل كلامه بنصه، ولكن له على فضل التوجيه، والتغذية بالمعانى والفكر.

فهرس المحتويات

رقم الصفحة

٥	ترجمه المؤلف بقلم دكتور/ مصطفى الذهبى
٩	الدكتور/ يوسف الضبع بقلم دكتور/ إبراهيم على إسماعيل
١٥	مقدمة الكتاب
١٧	الفصل الأول
١٧	حياة ابن هشام
١٨	مولده، وفاته، مكانه الآن ومقبرة سعيد السعداء
١٩	من يطلق عليه ابن هشام
٢١	الفصل الثانى
٢١	عصر ابن هشام
٢٤	حالة اللغة العربية فى القرن السابع
٢٥	حظ النحو فى مصر والشام فى القرن السابع
٢٦	رعاية الممالك للغة العربية وعلومها
٢٧	أشهر المدارس والمساجد فى ذلك العهد
٢٩	التأليف فى هذا العهد
٣١	المؤلفات فى هذا العهد وأشهر المؤلفين
٣١	طابع التأليف فى هذا العهد
٣٢	أشهر النحاة فى مصر فى هذا العهد
٣٤	بيئة ابن هشام وأثرها فيه
٣٥	شخصية ابن هشام

٣٦	حياته العلمية
٤٠	نقد وملاحظة
٤١	شيوخه في الفقه
٤٢	شيوخه في الحديث
٤٤	مكان دراسة ابن هشام
٤٦	سر تحمل ابن هشام على أبي حيان
٤٨	الكتب التي تأثر بها ابن هشام
٥٠	الفنون التي نبغ فيها ابن هشام
٥٢	أشهر معاصريه من العلماء
٥٤	أشهر تلاميذ ابن هشام
٥٦	اتجاهات ابن هشام
٦٣	مؤلفات ابن هشام
٨٦	أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك
٩٢	مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب
٩٥	متى وأين ألف هذا الكتاب
٩٦	متى فرغ منه؟
٩٦	هل المغنى منتحل لابن هشام؟
٩٧	هل في النحو مغنى لغير ابن هشام؟
٩٨	عود على بدء
٩٩	مميزات هذا الكتاب إجمالاً
١٠٢	شواهد المغنى
١٠٥	تنبيهان
١٠٧	هل يشف المغنى عن ابن هشام؟

- ١٠٩ مدرسة ابن هشام النحوية
- ١٠٩ ابن هشام بين البصريين والكوفيين
- ١١٠ بعض ما وافق فيه البصريين
- ١٢٠ صلة الانخفش بالكوفيين
- ١٢٣ بعض ما وافق فيه ابن هشام الكوفيين
- ١٢٨ أمثلة من انحراف ابن هشام على أبي حيان
- ١٣٤ ابن هشام والكسائي
- ١٣٧ موقف ابن هشام من نحاة بغداد
- ١٣٨ أمثلة توضح ذلك
- ١٤٠ موقف ابن هشام من نحاة المغرب والأندلس
- ١٤٢ ابن هشام وابن مالك
- ١٤٨ ابن هشام والزجاج
- ١٤٩ ابن هشام وابن جنى
- ١٥١ ابن هشام وابن الحاجب
- ١٥٩ ابن هشام وابن عطية
- ١٦١ المغنى أنار السبيل لدفع اعتراضات ترد على الشواهد العربية وهى: كتاب الله تعالى وحديث رسول الله ﷺ والشعر العربى
- ١٦٦ ابن هشام لا يخرج التتزيل على الشاذ والقليل
- ١٧١ الفصل الثالث
- ١٧١ ما انفرد به ابن هشام
- ١٧٦ ما انفرد به ابن هشام فى الباب وفى الصميم
- ١٩١ هل كان ابن هشام من المجتهدين؟

١٩٢	منزله في المجتهدين
١٩٣	ابن هشام وشراح ألفيه ابن مالك
١٩٥	هل لابن هشام أو هام وهل عليه مأخذ؟
٢٠٨	مأخذ تدفع
٢١٠	عبارة الزمخشري
٢١١	عبارة ابن الحاجب والرازي
٢١٥	ورود كلمة لا غير في سياق كلام ابن هشام
٢١٧	الفصل الرابع
٢١٧	موازنة بين المغنى وبين غيره
٢٣٤	موازنة عامة بين الرضى وابن هشام
٢٣٧	شهادات العلماء لابن هشام
٢٤١	فهرس الآيات القرآنية
٢٥٥	فهرس الأحاديث النبوية
٢٥٧	فهرس الشواهد الشعرية
٢٦٥	فهرس المراجع
٢٦٩	فهرس المحتويات

رقم الإيداع

٩٨/٤٤٦٨

الترقيم الدولي I.S.B.N

977-300-000-1